منهج شيخ الإسلام ابن تيمية التجديدي السلفي ودعوته الإصلاحية

سعيد عبد العظيم
غفر الله له ولوالديه

دار العقيدة

الطبعة الأولى ١٩٩٩

رقم الايداع: ١٦٥٠٥ / ٩٨
الترقيم الدولى 4 - 68 - 5458 - 977

دار العقيدة
الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح - باكوس ت: ٥٧٤٧٣٢١ / ٠٣ فاكس: ٥٧٦٥٦٢١ / ٠٣
القاهرة: ٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ٥١٤٣١٧٤ / ٠٠٢٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

شيخ الإسلام ابن تيمية
وملامح دعوته التجديدية الإصلاحية
مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره[1]، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢]،

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء: ١]،

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كثر أدعياء التجديد والإصلاح، وازدات بهم الدنيا غربة علي غربتها، ولا سبب لذلك إلا لابتعادهم عن منهج ربهم، وإنحرافهم عما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وهم في ذلك بين مقل ومستكثر، ومن المعلوم أن الإصلاح والتجديد لا يتم بمجرد الدعوي أو النوايا الطيبة، أو إضفاء الألقاب والنعوت علي هذا أو ذاك، إذ لابد من صحة العمل، وذلك لأن الله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يضيع أجر المحسنين، والعاقبة للمتقين، وقد وصف سبحانه المنافقين بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾[البقرة: ١١].

١- ذكر فضيلة الشيخ الألباني حفظه الله في السلسلة الصحيحة الجزء الخامس أن كلمة ونستهديه ليست من نص خطبة الحاجة التي كان يستفتح بها رسول الله ﷺ خطبه هذا لمن أراد ثواب الإتباع.

وأدعياء التجديد والإصلاح ما برز أمرهم في الآونة الأخيرة إلا لندرة القادة والمصلحين الحقيقيين، ولذلك وجب السعي والأخذ بالأسباب لسد الثغرات، وإيجاد الكفاءات، التي تحسن المسير إلي الله، وتقيم الحق في الخلق، وترتفع همتها بإرتفاع دعوة الإسلام.

وقد ورد في الحديث عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»**.(١)

وفي لفظ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»**(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، -قال:- فينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله لهذه الأمة»** (٣).

قال البخاري في وصف هذه الطائفة: «هم أهل العلم»،

وقال القاضي عياض: «إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة»،

وذكر ابن تيمية أن: «أهل السنة هم الطائفة المنصورة»،

وقال النووي: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، -وعدَّد أنواعهم فقال:- إنهم شجعان مقاتلون، فقهاء، محدثون، زهاد، آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أنحاء الأرض».

فأين أدعياء التجديد والإصلاح من الملاحدة والزنادقة، الذين وصفوا أنفسهم بالتنوير ورموا دين الله بنعوت التخلف والرجعية والظلامية!!

---

(١)، (٣) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.

أقول أيـن هؤلاء مما وردت به نصوص الشـريعة ونطقت به أقـوال أهل العلم، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»** [1]

قال الخطيب البغدادي في «التاريخ»: «وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث فروينا في «المدخل» للبيهقي بإسناده إلي الإمام أحـمد أنه قال بعد ذكره إياه: «وكان في المائة الأولى: عمر بن عبد العزيز، وفي الثانية: الشافعي»».

وقد يحدث هذا التجديد علي يد فرد، وقد يتم علي يد جماعة من أهل السنة، تتوافـر فيهم صفـات الطائفة الناجيـة الظاهرة المنصورة، ونحسب شـيخ الإسلام، واحداً من هؤلاء المجددين المصلحين، ولا نزكيـه علي الله، فالمجدد المصلح يجب أن يكون ربانياً، بحـيث ينصبغ بصبغـة الإسلام في كل ناحية من نواحـي حياته، ومع كل نفس من أنفاسه، في العقيدة والشـريعة والأخلاق والحكم، وهذه الصبغة تأخذ من الكتاب والسنة، ولا يصح خلطها بالفلسفة، ولا يمكن الحصول عليها من أديان منحرفة أو مبادئ ضالة، ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾[الأنعام: ١٧١].

وينبـغي أن يكون عنده من البـصيـرة والفرقـان مـا يميز به بين الحق والبـاطل، والإيمان والكفر، وهذا لا يتحقق إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨]، وأن يتوافر عنده من العزة الإيمانية ما لا يجـعله يرهب صولة الباطل، أو عنفوان الكفر، أو أن تأخذ في اللـه لومة لائم، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩].

فـهذه العـزة مـصـدرها الإيمان لا الجنس، ولا اللون ولا اللغـة، أو المال، أو النسب، فلا يخـجل من إنتمائه للإسـلام، ولا من إظهاره لشعائره، يُبلغ شـريعة الإسلام وعقيدته إلي الناس كافة، ثم هو يتمسك بالحق ويتثبت عليه، ويجاهد في سبيله بكل ما يملك، ويتـخوف علي نفسه من المعصيـة، ويتعوذ بالله من الفتن ما ظهـر منهـا ومـا بطن، ويتـفـرغ إلي ربه ويعلم أنه لا حـول ولا قـوة إلا بالله، ويستصحب في سـفره إلي ربه زاد التقوى، ويصبر على ما أصابه، فـالنصر عقبى الصابرين.

١- أخرجه أبو داود والحاكم والطبراني في الأوسط بإسنادٍ صحيح.

والمجدد المصلح لابد وأن يكون شديد الحب لربه، قوي التعلق به، ذا أوبة، ويتمنى لقاؤه سبحانه في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، والناظر في سيرة شيخ الإسلام، وفي علمه، وعبادته، وجهاده، لابد وأن يلمس ذلك، ولا نعني بذلك الغلو فيه، -رحمه الله- فليس من شرط المجدد المصلح أن يكون معصوماً، بل يكفيه أن يكون متبعاً للمعصوم ﷺ، ولأنه لا عصمة لأحد من البشر بعد رسول الله ﷺ، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولا يشينه مراجعة العلماء له في بعض المسائل، فالعالم المجتهد له أجران إذا أصاب، وله أجر إذا أخطأ، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم زلة، وكفي بالمرء نبلاً أن تعدُّ معايبه، فإذا كثرت الحسنات كان الإنسان إلي العفو أقرب. قال تعالي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[فاطر: ٣٢]، والسابق بالخيرات هو الذي غلبت حسناته على سيئاته.

قال ابن كثير رحمه الله: «وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء، وممن يخطئ ويصيب، ولكن خطأة بالنسبة إلي صوابه كنقطة في بحر لجّي، وخطؤه أيضاً مغفور، كما في صحيح البخاري: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فخطأ، فله أجر، فهو مأجور**»[1].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ومع ذلك فهو بشر يخطئ ويصيب، فالذي أصاب فيه -وهو الأكثر-، يستفاد منه، ويترحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه، بل هو معذور، لأن أئمة عصره، شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه»أ. هـ.

ولا يطعن في شيخ الإسلام مخالفة الصوفية له، قديماً وحديثاً، كاتباع الطريقة العزمية، الذين رموه رحمه الله بأنه من ثالوث التكفير، هو وابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، فهذا من البهتان العظيم، الذي يجب تبرئته منه، على ضوء ما سنبين من معتقده -رحمه الله-، ولا يقدح فيه أيضاً ذم الملاحدة والزنادقة

١- مجموع الفتاوى (٢٢٦/٣).

وبعض المخالفين لأهل السنة والجماعة، كالمعتزلة والأشاعرة، طالما أن دوافع الذم معلومة، فلغرض أو مرض هوجم ابن تيمية كما يذكر ابن الآلوسي، فالبعض عاداه بسبب المعاصرة والمنافسة، وما يجري بين الأقران في كل زمان، والبعض للمخالفة، المذهبية في بعض المسائل الفرعية الإجتهادية، وبعض الإعتقادية، ومنهم من طعن من غير تحقيق وروية، ومنهم لاعتراضه على بعض كلمات الصوفية، المغاير ظاهرها للشريعة المطهرة، ولأنه سلفي الإعتقاد، كالأئمة الأمجاد، وطاعنوه كما تعلم خلفيون، ولآيات الصفات مؤولون.

وحسبه -رحمه الله- ثناء العلماء المعتبرين عليه، كما سنوضح بإذن الله، ومحبة الصالحين من العباد له، على مر العصور وكر الدهور، فهذا عنوان محبة الله له، وهذا سبب إستقامته على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وموافقته لخير القرون، علماً وعملاً وإعتقاداً.

وقد كان رحمه الله يقول: «إني في عمري إلي ساعتي هذه لم أدع أحداً قط في أصول الدين -أي: المسائل التي يجب إعتقادها قولاً، أو قولاً وعملاً، كمسائل التوحيد، والصفات، والقدرة، والنبوة، والمعاد، ودلائل هذه المسائل- إلي مذهب حنبلي أو غير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وقد قلت لهم غير مرة أنا أمهل من خالفني ثلاث سنين، إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة، بألفاظهم وألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف، هذا مع أني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلي تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخري، وعاصياً أخري، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العلمية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية»!. هـ.

فتأمل رحـمك الله هذه العبارة حتي تدرك مدي رسـوخ شيخ الإسلام في دين الله، وأنه برئ براءة الذئب مـن دم ابن يعقـوب، عليـهـما السـلام، مما رمـاه به مخالفوه سامحهم الله.

إن الأمة اليوم، تعاني من انحرافات عقائدية متمثلة في موجات الإلحاد واستيراد المبادئ الكافرة، والنظـم الفاجرة، وانحرفات فـيما يتعلق بأسـمـاء الله، وصفاته، وأفعاله، ويكفي نظرة سـريعة على الجامعات، والـكتب، والدعاة، الذين يروجون لأفكار المعـتزلة وعـقائدهـا، حتي أنتـشرت النزعـات العـقلانيـة وسط المسلمين، والتهجم علي نصوص الشريعة بزعم مخالفـتها للعقل، وحتي الانحرافات الطائفية القديمة، كالشيعة، والصوفية، لا زالت قوية ونشطة رغم انحرافها وفساد معتقداتها، هذا بالإضافـة إلي الإنحرفات الطائفيـة الحديثة، كالبـهائية، والقاديانيـة ونحوها من الطوائف التي خرجت على عـقيدة الإسلام بـدعوى النبوة لزعمـائها، ونزول الوحي عليهم، وهي تتستر في كثير من البلدان باسم الإسلام وهي خارجة عليه.

فإذا انتقلنا إلى العبـادات وجدنا الغلو المفرط في أدائها، والذي كان يتمـثل فيما سبق في طائفة الخوارج، والصوفيـة حيث كان لكل منهم غلو مفرط في جانب أو جوانب منها.

وفي مقابل ذلك وُجـد الإهمال المطلق للعبادات والإكتفـاء بالتلفظ بالشهادتين، وهذا الإنحـراف كان من ثـمرات الإرجـاء الذي لا يُعطي للعـمل اهتـمامـاً، هذا بالإضافة إلي عدم إلتزام كثير من المسلمين بالأداء الصحيح للعبادات.

وحالتنا فيما يتعلق بالشريعة لا يقل سوءاً، فمحاربة الشريعة، واستبدال القوانين الوضعية بها، أو محاولة التوفـيق بين الشريعة والأنظمة الوضعية، كل هذا كان من آثار الإستعمار العسكري والفكري، الأمر الذي أفـسد عقلية الأمة، حتي وجد في المسلمين من يتحمس لقوانين الغرب، وفكره، ويدعوا لتطبيقها ومتابعتها.

فما أحوجنا الأن إلى الرجوع إلى الكتـاب والسنة علاجاً لهذا العوج التي ترامى بالأمة إلى العطب، والمهانة، والمذلة.

ما أحرانا أن نرجع لمثل ما كان عليه رسـول الله صلي الله عليه وسلم وصحابته الكرام...

فكل خـيـر في إتبـاع مـن سلف وكل شـر في إبـتـداع مـن خلف

وما لم يكـن يومئذٍ دين فليس اليوم بدين، ولن يصلح آخـر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وكلنا يقين -بإذن الله- أن الخلافة ستـعود على منهاج النبوة، كما أخبـر الصادق المصدوق -صلوات الله وسـلامه عليه- أي أنهـا ليست شيعـية ولا خارجية ولا معتزلية ولا صوفية.

وكلنا أيضاً ثقة في ان المستقبل للإسـلام، بغالبيته، وظهوره علي الأديان كلها، وهذا يتطلب جهداً كـبيراً، وأن نعود أقوياء، مـعنوياً، ومادياً، وأن نعلم أن أعظم معاني القوة، قوة الإيمان وعمق اليقين.

إن الأمة اليوم وهي تواجه أعدائها من اليـهود وغيرهم، تحتاج رجالاً ممن علت همتهـم، وأحاطوا بالإسلام من جمـيع جوانبه، ويحسنون التـأسي بسلفنا الصالح الذين غيّـر بهم ربنا وجه الأرض، حتي دانت لهم الدّنيـا شرقاً وغـرباً، وامتلكوا قصور كسـرى وقيصر، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[الأحزاب:٢٣]، بهم قام الإسلام، وبه قاموا.

ومن هؤلاء:

شيخ الإسـلام ابن تيمـية -رحمـه الله- رجل والرجال بحق قليل، فـهو من الصنف الذين آمنوا بالله وصـدّقوا المرسلين، فكانت حـياته ومماته، سـيرة عطرة، وكانت ترجـمته عظةٌ وعـبرة، ولم يخطئ الإمـام أبو حنيفة حين قـال: «التراجم والسير أحبُ إلينا من كثيرٌ من الفقه».

وإليك يا أخي ملامح دعوته التجديدية والإصـلاحية، حتي تدرك أن مثل الأمة كالمطر، لا يدرى أوله خير أو آخره، وأن الخير والجهاد ماض في هذه الأمة، وأنها أمة أشبه بمعين لا ينضب، فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله.

لقد تمنى عمر ملئ داره أمثال أبي عبيدة ابن الجراح، أمين هذه الأمة، حتى يقيم بهم أركـان حكمه، ويؤتمنون على تطبـيق شرع الله، ونحن بدورنا ندعـوا ربنا أن يصلح شأننا كله ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفـة عين ولا إلى أحدٍ من خلقه، وأن يُبرم لهذه الأمـة أمر رشد يُعـز فيـه أهل طاعته ويذل فـيه أهل معـصيـته، ويؤمر فـيه بالمعروف وينهى فيـه عن المنكر، وأن يكثر فينا من يحسن التـأسي بسلفنا الصالح، علماً، وعمـلاً، واعتقاداً، عسـاه سبحانه أن يغيـر بنا وجه الأرض، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فإليك أخي الفاضل رسالة:

«شيخ الإسلام ابن تيمية وملامح دعوته التجديدية الإصلاحية»

لك غنمها، وعليَّ غُرمـها، فما فيها من صواب فمن الله، ومـا فيها من خطأ وقصور، فمن نفسي ومن الشيطان والله منه براء.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

كتبه

سعيد عبد العظيم

الإسكندرية في ١٤ من ربيع الثاني سنة ١٤١٩هـ

السابع من أغسطس سنة ١٩٩٨هـ

نشأة شيخ الإسلام ابن تيمية

أولاً: عصر ابن تيمية:

ظهر علم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصـرة الدين، غير أنه تأثر بالفلسفة وتسربت إليه روحهـا حتى تكونت "فلسفة دينية" تنتـهج نفس المنهج وتتبع نفس الأسلوب للبحث والإستبدال، وتعيد نفس الخطأ، فـكانت هذه الفلسفة الإلهية الجديدة، قد انحرفت عن منهج أهل السنة والجماعـة، وتأثرت بالفكر اليوناني رغم أنها ظهرت ضـد الفلسفـة اليونانـية، وزاد من خطورة هذه الفلسـفـة الدينية، إنتـسابهـا زوراً للإسلام، وتكلُّم بعضُ المرموقين بها.

وقد كانت بلاد الإسلام هدفاً لهجوم صليبي متتابع، وكان المسيحيون قد تحمسوا لإثبات أن المسيـحية هي الدين الحق، وشجعهم ضـعفُ المسلمين على تأليف كتب ترفض نبوة مـحمد ﷺ، وأخرى أرادوا بهـا إثبات فضل دينهم ووجدت فـرقة الباطنيـة وفروعها المختلفـة من الإسماعيليـة، والحشاشية، والدروزية، والـنصيرية مرتعـاً خصـباً لتبـييت المؤامـرات، وتدبير التورات، والتـعاون مع أعـداء الإسلام والمسلمين، كالصليبيين والتتر.

والناظر في هذا العصـر سيجـد أن المسلمين قد وقعوا فـريسة العقـائد الباطلة، واشتداد نزعـات الغلو والإفراط، في الإعتقـاد في الأولياء والصالحين شـأن اليهود والنصاري، واتخاذ قبور الأنبياء، والصـالحين مساجد، ولم يكن المسلمون يشعرون بأي غضاضة في التخلق بأخلاق الذميين والكافرين، واتخاذ شعائرهم وخصائصهم والحضور في أعيادهم والتشبه بهم في تقاليدهم وعاداتهم، وقد تسرب إلى الصوفية تأثير الفـلسفة الإشـراقية، التي جـاءت من اليونان والهند فظهـرت عقـيدة الحلول والإتحاد، ومذهـب وحدة الوجود، وتقسـيم الدين إلى ظاهر وباطن، والدعوة إلى سقوط التكاليف الشرعية عن الواصلين...

وقد شاع القول بغلق باب الإجتهاد، رغم كثرة المشكلات والحاجة الماسة لإيجاد حلول لها، هذا بالإضافة إلى الجمود المذهبي والتـعصب المقيت للأراء في مواجهة نصـوص الشـريعـة، وبالجملـة فالسـوء الذي تردت إليـه الأوضـاع كـان يتطلب علاجاً، وإلا فهو نذير شر وخيم.

ثانياً: ظروف ولادة ابن تيمية:

ولد ابن تيمية بعد تدمير بغداد بخمس سنوات، ودخول التتر في حلب ودمشق بثلاث سنوات فقط، وكان المماليك يحكمون مصر والشام من قبل مولد ابن تيمية بثلاث عشرة سنة، وكانوا أتراكاً، وكان من جملتهم سيف الدين قطز، وهو الذي هزم التتر هزيمة نكراء، ثم تولى الحكم من بعده الظاهر بيبرس، فانتصر على التتر والصليبيين، واستمر في الحكم ثمانية عشر عاماً، وقد تحدث ابن كثير عنه فقال: «كان رحمه الله متيقظاً، شهماً، شجاعاً، لا يفتر عن الأعداء ليلاً ولا نهاراً، بل هو مناجز لأعداء الإسلام وأهله، ولم شعثه، واجتماع شمله، وبالجملة أقامه الله في هذا الوقت المتأخرعوناً ونصراً للإسلام وأهله، وشجاً في حلوق المارقين من الفرنج، والتتار، والمشركين، وأبطل الخمور، ونفى الفساق من البلاد، وكان لا يرى شيئاً من الفساد، والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته[1].

ويعتبر الملك الناصر: محمد بن قلاوون هو المعاصر الأصيل لابن تيمية، فقد استقر حكمه إلى ٣٢ سنة، وقد شابه الظاهر بيبرس في العديد من صفاته، وخصائصه، وكان مثلاً لوالده منصور قلاوون، وفي عصره تم الإنتصار على التتر.

ثالثاً: أسرته:

ولد أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١هجرية، بحران، وأنبته الله نباتاً حسناً، فعاش بها بضع سنين، ثم انتقل أبوه به وبأخويه إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ عند قدوم التتر إلى الشام، وفي دمشق نشأ ابن تيمية وترعرع، ثم درس ونضج، حتى بلغ أشده، وآتاه الله العلم والحكمة، وصار أحد الأئمة الأعلام، ومن كبار شيوخ الإسلام.

أبوه: هو شهاب الدين أبو المحاسن عبد الحليم ابن تيمية، نزيل دمشق، ولد بحّران سنة ٦٢٧هـ وسمع من أبيه وكثيرين غيره.

وقال الذهبي عنه في تاريخه: «إنه قرأ المذهب الحنبلي على أبيه حتى أتقنه، ودرّس وأفتى وصنف، وكان إماماً محققاً، كثير الفنون، ديناً متواضعاً حسن الأخلاق، كما كان جواداً من حسنات العصر، وكان من أنجُم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر وضوء الشمس» أ.هـ. يشير إلى أبيه وابنه.

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٦

ويقول البرزالي عنه: «كان من أعيان الحنابلة، باشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية وكان له كرسي بالجامع يتكلم عليه أيام الجمع من حفظه».

أمه: عاشت أمه حتى رأت مجد ابنها يكتمل. وعاونته في جهاده، وكان ابن تيمية يراسل أمه من سجنه، وقد بعث إليها بكتب تفيض عطفاً، وبراً، ووفاءً، وقد تعرضت أمه للملك الناصر وكان ابن تيمية قد سُجن بأمره أعواماً، فشكت إليه، فأمر بإطلاقه، ثم عادوا فسجنوه ثانية.

جده: شيخ الإسلام مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحرّاني، الفقيه الحنبلى، الإمام المقرئ المحدث المفسر الأصولي النحوي، وأحد الحفاظ الأعلام. ولد بحران سنة ٥٩٠ هـ وحفظ القرآن الكريم بها ورحل في سبيل طلب العلم إلى بغداد سنة ٦٠٣ هـ.

قال ابن تيمية عن جده: «كان جداً عجباً في حفظ الأحاديث وسردها، وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة».

وقال الشيخ جمال الدين بن مالك عنه: «أُلِين للشيخ المجد: الفقه، كما أُلِين: الحديد لداود، وذكر الذهبي أن الشيخ مجد الدين كان معدوم النظير في زمانه، رأساً في الفقه وأصوله، بارعاً في الحديث وما فيه، له اليد الطولى في معرفة القراءات والتفسير، صنف التصانيف واشتهر اسمه وبعُدَ صيته، وكان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي، مفرط الذكاء، متين الديانة، كبير الشأن. وقد ذكروا عنه أنه كان لا يمل القراءة حتى إذا دخل الخلاء قال لحفيده عبد الرحمن -أخي ابن تيمية- أقرأ في هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع.

رابعاً: كنيته واسمه ولقبه:

كنيته أبو العباس، واسمه أحمد، ولقبه تقي الدين، فهو أبو العباس أحمد تقي الدين، وإذا ذكر «ابن تيمية» فحسب فالمقصود أحمد.

وقد قيل في سبب شهرته بابن تيمية أن جده محمد بن الخضر حج وله امرأة حامل ومر في طريقه على درب تيماء، فرأي هناك جارية طفلة قد خرجت من خبائها، فلما رجع إلي حران وجد امرأته قد ولدت بنتاً، فلما رآها قال: يا تيمية، فلقب بذلك. وقيل: إن جده محمداً هذا كانت أمه تسمى تيمية، وكانت امرأة

واعظة، فنسب إليها وعرف هو والأسرة بها.

خامساً: موطنه:

ينسب ابن تيمية إلى حـران، قال عنه ابن جبير: «كفى بهذا البلد شـرفاً وفخراً أنها البـلاد العتيـقة المنسوبـة لأبينا إبراهيم عليه السلام»، والجـوهران أثرها في ابن تيمـية رحـمه الله من حيث صـفاء الطبع ونقـاؤه، وصلاح السلوك واسـتقامـته، بالإضافـة إلى حرارة الدفاع عن الدين، ولـما انتقلت الأسرة من حـران إلى دمشق سنة ٦٦٨هـ، ساعـد ذلك ابن تيميـة على أن ينهل من العلوم والمعارف، فـدمشق يومئذ هي بلد العلم، وفي ذلك يقول ابن جبير: «فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البـلاد، ويتغرب في طلب العـلم فيجد الأمـور المعينات كثـيرة، فأولها فراغ البـال من أمر المعيشة»، ثم يقول: «ولو لم يكن بهذه الجهـات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء، وإيثار الفقراء... كفى بذلك شرفاً».

سادساً: الوضع العلمي وأثره في ابن تيمية:

وجدت في مصر والشام مدارس كبـيرة ودور للحديث يؤمها الطلاب من أنحاء العالم، وكانت المكتبة التابعة للمدرسـة الكاملية التي أسسها الكامل محمد الأيوبي سنة ٦٢٤هـ تحتوي وحـدها على مائة ألف كتاب، وقد نهض في هذه الفـترة أئمة كبار كأبي عمرو بن الصلاح، والعـز بن عبد السلام، والإمام النووي، وابن دقيق العيد، وعلاء الدين الباجي، وكان العـلامة جمال الدين أبي الحجاج المزي، وعلم الدين البرزالي، وشمس الدين الذهبي، من معاصري شيخ الإسلام ابن تيمية.

كما وجدت كفاءات علمية خالفت شيخ الإسلام رغم ثنائها عليه، وكان بعضها سبباً في محنته، ومن جملة هذه الكفـاءات التي طار صيتها العلمي الآفاق، جمال الدين بن الزملكاني، وتقي الدين السبكي، وأبو حيان النحوي.

ولا يبعد أن يكون ابن تيمية قد استفاء من كبار الشيوخ الذين عاصروه أو سبقوه بقليل من الزمان، أمثال الحافظ بن عساكر وابن الأثير في التاريخ، كما افاد من ابن قدامة وابن الصلاح والعز والنووي وابن دقيق العيد... وساعده على تحصيل هذه المكانة ما حباه الله به من نفس طلعة، وقلب مشغوف بحب المعرفة والعلم، وعقل نافذ لما فات غيره، وحافظة لا تضيع، وذاكرة قوية لا تنسى.

سابعاً: تلامذته:

عُرِفَ شيخ الإسلام ابن تيـمية بكثرة تلاميذه والمستفـيدين منه، وقد تميز من بين هؤلاء التلاميذ :

١ - تلميذه النجيب الحافظ ابن القيم

قال عنه الحافظ ابن حـجر العسقلاني: «لو لم يكن لابن تيـمية من المناقب إلا تلميذه ابن القيم صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف، لكان غاية في الدلالة على عظمة منزلته»أ. هـ.

وقد يكفي ابن القيم أن يقول: «هذا إختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية» لتعرف أنه إختـيار ابن القيم أيضـاً. فإذا قال: «شيـخنا أو شيخ الإسلام قـدس الله سره» فالمقـصود ابن تيميـة مما يدل على أثره المكين في تكوينه العلمي، وفي كتـاباته بعد وفاة ابن تيـمية سنة٧٢٨هـ مثل: الطرق الحـكمية، وبدائع الفوائد. . . يتـبع ذكره بالدعاء له والترحم عليه.

وينقل ابن القيم أن خصـوم ابن تيمية كانوا يقـولون عنه أنه إذا سُئِلَ عن طريق مصـر مثلاً ذكر لـلسائل معهـا طريق مكة وخراسان والـهند ذلك أنه إذا سئل عن المسألة أجاب بآراء الفقـهاء أصحاب المذاهب الأربعة مرجـحاً لما يراه منها، ويذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون للسائل أنفع من مسألته.

وكمـا ظل ابن تيميـة يدافع عن عقيـدة السلف، وأنها لم تكن إيماناً بلا فـقه، فكذلك فعل ابن القيم.

٢ - الحافظ ابن عبد الهادى

عاش أقل من أربعين سنة، وقال عنه الصفدي: «لو عاش لكان آية».

وقال عنه الذهبي: «هو الـفقيه، البـارع، المقرئ، المجود، المحـدث، الحافظ، النحوي، الحاذق، ذو الفنون، كتب عني، واستفدت منه».

وقال أبو الحجاج المزي: «ما ألتقيت به إلا واستفدت منه».

وقال الصـفدي: « حصل من الـعلوم مالا يبلغه الشـيوخ الكبـار وتفنن في الحديث والنحو والتصريف والفـقه والتفسير والأصولية والتاريخ والقـراءات وله مجاميع وتأليف

مفيده كثيرة كنت إذا لقيته سألته عن مسائل أدبية وفوائد عربية فينحدر كالسيل».

وقال عنه ابن كثير: «وكان حافظاً جيداً لأسماء الرجال وطرق الحديث، عارفاً بالجرح والتعديل، بصيراً بعلل الحديث، حسن الفهم، جيد الذاكرة، صحيح الذهن، مستقيماً على طريقة السلف، واتباع الكتاب والسنة مثابراً على فعل الخيرات».

٣- الحافظ ابن كثير

هو عماد الدين إسماعيل ابن عمر، يكنى أبا الفداء، قال عنه الذهبي: «هو فقيه متقن، ومحدث محقق، ومفسر نقاد، وله تصانيف مفيدة».

وقال عنه الحافظ ابن حجر: «كان كثير الاستحضار، وسارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع به الناس بعد وفاته».

وابن كثير شافعي المذهب ورغم هذا فقد تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية واشتد إعجابه به، ولذلك قال ابن حجر: «أخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه، وامتحن بسببه» ومن أهم كتبه، كتابه في تفسير القرآن وكتاب «البداية والنهاية».

٤- الحافظ ابن رجب

وقد اشتغل بالحديث وأكثر روايته، حتى برع في فن الحديث كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني، وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفضل تقي الدين بن فهد المكي في «لحظ الألحاظ»: «الإمام، الحافظ، الحجه والفقيه، العمدة، أحد العلماء، الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين، واعظ المسلمين».

وقال عنه أيضاً: «كان إماماً، ورعاً، زاهداً، وضع الله حبه في القلوب، أجمع الناس كلهم على صلاحه وفضله، مجالس وعظه عامة، وذات فائدة، ، وتأثير كبيرين».

وقال عنه الشهاب بن الجحصي: «كان محققاً ذا بصيرة فائقة في فن الحديث، وكان أكثر معاصريه اطلاعاً على علل الحديث وطرقه، وأن أكثر علماء الحنابلة في عصرنا من تلاميذه».

ويُعتبر ابن رجب التلميذ المباشر لابن قيم الجوزية، فقد ولد بعد وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية بثماني سنوات.

ويبقى أن نقول: لقد تأثر بحياة شيخ الإسلام ومنهجه وفتاواه الكثير من العلماء

والدعاة في عصرنا والعصور التي تلت شيخ الإسلام ابن تيمية كالشاطبي، والشيخ محمد ابن عبد الوهاب، والشيخ ابن باز. . .

تبحره العلمي وذكائه ونباهته

ذكر ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» ما يدل على سعة علم شيخ الإسلام وسيلان ذهنه، وبعد نظره، فقال: «لما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السُّنَّة وأعلامها، أظهر طائفة منهم كتاباً قد عنقوه وزوروه، وفيه أن النبي ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية، وفيه شهادة علي بن أبي طالب، وسعد ابن معاذ، وجماعة من الصحابة، فراج ذلك على من جهل سُنَّة رسول الله ﷺ، ومغازيه، وسيره، وتوهموا بل ظنوا صحته، فأجيزوا على حكم هذا الكتاب المزور حتى ألقي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، وطلب منه أن يعين على تنفيذه والعمل عليه، فبصق عليه واستدل على كذبه بعشرة أوجه:

منها أن فيه شهادة سعد ابن معاذ وسعد توفي قبل خيبر.

ومنها أن في الكتاب أنه أسقط عنهم الجزية، والجزية لم تكن نزلت بعد، ولا يعرفها الصحابة حينئذٍ فإن نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثةِ أعوام.

ومنها: أنه أسقط عنهم الكلف والسخرية، وهذا محال فلم يكن في زمانه كلف ولا سخر توجد منهم ولا من غيرهم، وقد أعاذه الله وأعاذ أصحابه من أخذ الكلف والسخر، وإنما هي من وضع الملوك الظلمة، واستمر الأمر عليها.

ومنها: أن هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم على إختلاف أصنافهم فلم يذكره أحد من أهل المغازي والسير، ولا أحد من أهل الحديث والسنة، ولا أحد من أهل الفقه والإفتاء، ولا أحد من أهل التفسير، ولا أظهروه في زمان السلف لعلمهم أنهم إن زوروا مثل ذلك عرفوا كذبه وبطلانه.

ويذكر الشيخ صالح تاج الدين قال: «حضرت مجلس الشيخ -يعني: ابن تيمية- رضي الله عنه، وقد سأله يهودي عن مسألة في القدر، وقد نظمها شعراً في ثمانية، فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة وأنشأ يكتب جوابها، وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثراً، فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه فإذا هو منظم من بحر أبيات السؤال، وقافيتها، تقرب من مائة وأربع وثمانين بيتاً، وقد أبدى فيها

من العلم ما لو شــرح لبلغ مجلدين كبــيرين». وقريب مما ذكره الشـيخ صالح تاج الدين إجابته على من سأله في الحج شعراً، وختم الإجابة بقوله: «وليس صاحبك معدود من جملة الشعراء».

لهذا وغيره قال عنه ابن سيد الناس:

«لم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه»

وقــال عنه الذهبي: «لو حلفت بين الركن والمـقام لحلفت أني مـا رأيت بعــيني مثله، ولا والله رأى هو مثل نفسه في العلم».

وقــال عنه الحــافظ ابن ناصر الديــن: «حدث عنه خلـق كثـيـر منهم الذهبي، والبرزالي، وأبو الفتح ابن سيد الناس، وحدثنا عنه جـماعة من شيوخنا الأكياس، وقال الذهبي في عد مصنفــاته المجودة، وما أبعد تصانيفه إلى الآن تبلغ خـمسمائة مجلدة».

وقال الحافظ المزي: «مـا رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفســه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه».

عبادته وزهده وورعه وطرف من أحواله:

روي أنه كان رحــمه الله إذا أشكلت عليه مــسألة أو صعب فهم آية ألتــجأ إلى مسجــد مهجور، ووضع جبــهته على التراب، وردد قوله «يا مــعلم إبراهيم الخير علمني، ويا مفهم سليمان فهمني».

وقال الذهبي: «لم أر مثله في ابتهاله، واستغاثاته، وكثرة توجهه».

وكان ابن تيــمية يقــول: «إنه ليقف خاطري في المســألة أو الشئ أو الحالة التي تشكل علي فاســتغفر الله تعــالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتي يــنشرح الصدر، وينجلي إشكال ما أشكل».

ويقول: «وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدروب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والإستغفار إلى أن أنال مطلوبي».

ويقول ابن القــيم: «أنني لم أشاهد هذه الحالة عند أي شخص بمثل مــا شاهدته في شيخ الإســلام ابن تيمــية، فقــد كان يقول مــالي شئ، ولا مني شئ، ولا فيَّ

شئ، وطالما كان ينشد البيت التالي:

أنا المكدى وابن المكـــــدى وهكـذا كــــان أبي وجــــدى

وجاء في «الكواكب الدرية» : «وكـان في ليلة منفرداً عن الناس كلهم، خـالياً بربه عـز وجل ضـارعاً إليـه، مـواظبـاً على تلاوة القـرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية، وكان إذا دخل في الصـلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة».

وقال ابن القـيم «وكان إذا صلى الفجـر يجلس في مكانه، حتى يتعـالى النهار جداً، يقول هذه غدوتي لو لم أتغد هذه الغدوة سقطت قواى».

ويقول الذهبي: «له وأوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية».

ثامناً: زهده:

يقول الشيخ علم الدين البـرزالي: «وجرى على طريقة واحدة من اختـيار الفقر والتقلل من الدنيا ورد ما يفتح به عليه».

وقال له الملك الناصـر ذات مرة: «سمعت بـأن الناس أطاعوك، وأنت تفكر في الحصول على الملـك، فرد عليه الشيخ قائلاً بصـوت عال سمعـه الناس الحاضرون كلهم: أنا أفعل ذلك؟ والله إن مُلكك ومُلك المغول لا يساوي عندي فلساً».

تاسعاً: سخاؤه وإيثاره:

جاء في «الكواكـب الدرية»: «وهو أحد الأجواد الأسـخياء الذيـن يضرب بهم المثل».

ويقول الحافظ بن فضل الله العمـري: «كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل الموسـمة والأنعام والحرث، فيهب ذلك بأجمـعه، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليهبه، ولا يحفظه إلا ليذهبه».

ويقول أيضاً عنه: « وكان يتـصدق حتي إذار لم يجد شيئاً نزع بـعض ثيابه به فيصل به الفقراء » وقال البعض عنه: «وكان يتفـضل من قوته الرغيف والرغيفين، فيؤثر بذلك على نفسه».

عاشراً: عفوه وصفحه عمن آذاه:

قال ابن القيم: «كان يدعوا لأعدائه، ما رأيته يدعوا على واحد منهم، وقد نعيت إليه يوماً أحد معارضيه الذي كان يفوق الناس في إيذائه وعدائه، فزجرني، وأعرض عني، وقرأ: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وذهب لساعته إلى منزله، فعزى أهله، وقال: «اعتبروني خليفة له، ونائباً عنه، وأساعدكم في كل ما تحتاجون إليه». وتحدث معهم بلطف وإكرام بعث فيهم السرور فبالغ في الدعاء لهم حتى تعجبوا منه».

ومدحه القاضى ابن مخلوف المالكي الذي كان من أشد معارضى شيخ الإسلام بقوله: «ما رأيت كريماً وسع الصدر مثل ابن تيمية، فقد أثرنا الدولة ضده،ولكنه عفا عنا بعد المقدرة حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا».

وعندما أطلق سراح شيخ الإسلام سنة٧٠٩ هـ خلا به السلطان واستفتاه في قتل أولئك القضاة الذين قاموا بحماية «جاشنكير» وأفتوا بعزل السلطان، وقال له السلطان: «إنهم أثاروا عليك الضجة والأقاويل ، وأذوك» فما وسع ابن تيمية إلا أن مدحهم وأثنى عليهم أمام السلطان، وشفع لهم بالعفو والصفح عنهم ومنعه من قتلهم.

ثالث عشر: تواضعه:

يقول ابن القيم: «إنه كثيراً ما يقول: «مالي شئ، ولا مني شئ، ولافيَّ شئ»، وإن مدحه أحد في وجهه قال: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً».

وكان يقول لمن مدحه: «أنا رجل ملة لا رجل دولة».

ويقول ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب». وكان هو الحاكي والمحكي عنه كما ذكر المطلعون على أحواله.

حادى عشر: سكينته وانشراح صدره وهو فى سجنه:

كان رحمه الله يقول: «المحبوس من حُبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه».

وقال: «ما يصنع أعدائي بي؟ إن جنتي وبستاني في صدري، إن رحتُ فهي

معي لا تفارقني، أنا سجني خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة».

وقال ابن القيم: «إن شيخ الإسلام قال مرة: «إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة».

وقال: «زرته ذات ليلة في الرؤيا، فذكرت له بعض الأعمال القلبية، فقال: أما أنا فطريقي الفرح والسرور به» وقال: «هكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره وينادي به عليه حاله».

ثاني عشر: حرصه على متابعة السنة:

قال الحافظ سراج الدين البزار: «لا والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله ﷺ ولا أحرص على إتباعه، ونصر ما جاء به منه».

وقال عماد الدين الواسطي: «ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح، إن هذا هو الإتباع حقيقة». ويدل على هذا الحرص قول شيخ الإسلام: «وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة».

وقال رحمه الله: «فإن السلوك هو الطريق التي أمر الله بها ورسوله من الإعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة، فإن هذه منزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه».

وجاء في «الكواكب الدرية»: «قالوا ومن أمعن النظر ببصيرته، لم ير عالماً من أهل بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أتبع علماء بلده للكتاب والسنة، واشتغالهم بطلب الآخرة والرغبة فيها، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا، والإهمال لها، ولا يرى عاماً مخالفاً له منحرفاً عنه، إلا وهو من أكبرهم تهمة في جمع الدنيا، وأكثرهم رياء وسمعة والله أعلم.

وقال الذهبي: «وأخيف في نصر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له».

ثالث عشر: فراسته وكرامته:

قال العلامة بدر الدين العيني في تقريظ «الرد الوافر»: «وهذا الإمام مع جلالة قدره في العلوم نقلت عنه على لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس».

وقال ابن القيم: «ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبة، وما لم نشاهده منها أعظم، ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً».

وقال العلامة علي بن سلطان محمد القاري الهروي: «ومن طالع «شرح منازل السائرين» تبين له أنهما -ابن تيمية وابن القيم- كانا من أكابر أهل السنة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة».

وقال المحدث أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي: «مثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما أعطاه الله تعالى».

رابع عشر: جهاده التتار:

قال القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله: «جلس الشيخ إلى السلطان غازان حيث تُجم الأسود في آجامها، وتسقط القلوب داخل أجسامها، خوفاً من ذلك السبع المختال والنمروذ المحتال، والأجل الذي لا يدفع بحيلة محتال، جلس إليه وأومأ بيديه إلى صدره، وواجهه ودرأ في نحره، وطلب منه الدعاء، فرفع يديه ودعا له دعاء منصف أكثره عليه، وغازان يؤمن على دعاؤه».

وهذه المقابلة كانت سنة٦٩٩هـ وذكروا أن شجاعته كانت تضرب بها الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال، وقد أقامه الله في نوبة غازان، وقام بأعباء الأمر بنفسه، واجتمع بالملك مرتين، وكان «سيف الدين كيجق المنصوري» يتعجب من إقدامه على المغول (التتار).

ويقول ابن رجب الحنبلي: «وقد سافر الشيخ على البريد سنة من السنين، وتلا عليهم آيات الجهاد وقال: «إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله والذب عنهم، فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم ويستبدل بكم سواكم، وتلا عليهم

قوله تعـــالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله تـعالى: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[التوبة: ٣٩]، وبلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العـيد، وكان هو القاضي حينئـذ، فاستـحسن ذلك وأعجبـه هذا الإستنباط، وتعـجب من مواجهـه الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام» .

وكان خروج الشـيخ إلى نائب الشام في مستـهل جمادى الأولى فثبـتهم وقوى جئشهم ووعـدهم بالنصر على الأعداء إن صبروا وأعدوا العـدة للقائه، وتلا قوله تعـالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[الحج: ٦٠]، وبات عند العسكر.

وقد خرج ابن تيمية بنفسه في واقعـة شقحب سنة ٧٠٢ هـ، بعد أن جمع فيها التتـار جمـوعهم وكـان سبب ذلك أن بلغت القلوب الحناجـر وزلزل الناس زلزالاً شديداً، وقاتل ابن تيمـية هو وجماعة من أصحابه، وانتـهت بنصر الله للمسلمين نصراً مؤزراً، وقُتل فيها من التتار خلق كثير لا يعلم عدتهم إلا الله بحيث لم يسلم منهم إلا القليل، وكـانت هذه الواقعـة في رمضـان ويذكر ابن كـثير أن المعـسكر الشامي ندبه إلى السـير إلى السلطان يستحثه على السـير إلى دمشق بعـد أن كاد يرجع إلى مـصر، ففـعل ذلك وجاء هو وإياه إلى المدينة، ثم سـأله السلطان، أن يقف معـه في المعركة، فـقال: «السنة أن يقف الرجل تحت راية قـومه، ونحن من جيش الشـام لا نقف إلا معـهم، ثم أخذ يحـرض السلطان على القتـال، وبشره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم لمنصـورون عليهم، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً».

ومن مواقفه التي يذكرها ابن كثير في تاريخه: «أن الشيخ تقي الدين أرسل إلى نائب القلعة يقـول له: «ذلك لولم يبقى فيهـا إلا حجراً واحد فـلا تسلمه ذلك إن استطعت، وكـان في ذلك مصلحة عظيـمة لأهل الشام، فـإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لهم، وكـان سيف الدين قيجق قد طلب من نائب القلعـة تسليمهـا لهم فأبى، ثم تكلم مـعه أعـيان البلد في ذلك فـأبى أيضاً وصمم على ترك تسليمها إليهم وفيها عين تطرف».

ويذكر الذهبي ويقول: «وقصارى القول: أن الله أحيا به الشام، بل والإسلام بعد أن كاد ينسلم بتثبيت أولي الأمر لما أقبل حزب التتار والبغي في خيلائهم، فظُنّت بالله الظنون، وزُلزِلَ المؤمنون، واشرأب النفاق وأبدى صفحته».

خامس عشر: شجاعته في مواجهة المنكرات:

يذكر ابن شاكر الكتبي: «أن رجلاً من الناس شكا إليه من ظلم نزل به من قطلو بك الكبير وكان هذا فيه جبروت ويأخذ أموال الناس غصباً، فدخل عليه الشيخ غير هياب، ولا وجل وتكلم معه فيما جاء به إليه، فقال له قطلو بك: «أنا كنت أريد أن أجئ إليك لأنك عالم زاهد يعني الإستهزاء به فقال له الشيخ: موسى كان خيراً مني، وفرعون كان شراً منك، وكان موسى يجئ إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الإيمان».

ويذكر ابن كثير في حوادث سنة٦٩٩هـ، «أنه في السابع عشر من رجب دار الشيخ تقي الدين رحمه الله وأصحابه على الخمارات والخانات، فكسروا أواني الخمور وأراقوها وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش.

وفي شوال سنة ٧٠٠ هـ خرج ومعه خلق كثير لقتال ناحية جبال الجرد وكسروان بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وضلالهم، لممالأتهم التتار حين كانوا ينتصرون، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إليه معتذرين، فاستتابهم وبين لهم الحق، فحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين».

ويذكر ابن كثير: «أن الشيخ كان شديد الإنكار للتوسل بغير الله الواحد الأحد، وشديد الإنكار أيضاً لتقديم شيئاً من شعائر العبادة والتقديس لغير الله تعالى، ولهذا نراه في شهر رجب سنة ٧٠٤هـ يروح إلى مسجد التاريخ، ويأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر «قلوط» تزار وينذر الناس لها، فقطعها وأراح الله المسلمين منها ومن الشرك بها».

ويذكر أيضاً: «أنه في تلك السنة نفسها، أحضر إليه شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر بحلق شعره وتقليم أظافره، وكان ذلك طويلاً جداً، وحفّ شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، وقد فعل به ذلك كله، ثم استتابه من فاحش القول الذي كان يصدر عنه، ومن أكل ما يغير العقل

من الحشيشة، ومن كل ما لا يجوز من سائر المحرمات».

وفي أوائل شهر المحرم من سنة ٧٠٥هـ، خرج الشيخ إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة، وتبعه نائب السلطنة جمال الدين الأفرم بنفسه، فنصرهم الله عليهم، وأبادوا كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة، ثم عاد نائب السلطنة في صحبة الشيخ إلى دمشق، وقد كان لحضور الشيخ بنفسه أثراً فعال في النصر، وأبان فيه ما هو معروف عنه من العلم والشجاعة وكان منها خيراً كثير، كما يذكر ابن كثير.

إزالة اللبس فى خروج شيخ الإسلام لتغيير المنكرات

لقد وردت نصوص الشريعة تستحث الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه، ولا ريب أن ذلك يتطلب إعمالاً للضوابط الشرعية حتى تتحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة، وينبغي على الآمر الناهي أن يكون فقيهاً فيما يأمر به وينهى عنه، حتى لا يتهجم في موضع يحرم فيه الإنكار[١].

وقد ذكر العلماء حرمة الإنكار إذا كان الإنسان سيثبت هذا المنكر ويأتي بمنكر آخر، أو سينكر المنكر بمنكر أعظم، أو سيتلف نفسه في غير مصلحة شرعية، أو سيتعدى بإنكاره بالمضرة والأذى على أهله والإخوان والأصدقاء كما ذكروا ضمن صور الإنكار، أن يرى الإنسان المنكر ويكون عنده المقدره على تغييره، ولم يقم أحد بذلك فيلزمه وفق الضوابط الشرعية ولا شك أن شيخ الإسلام كان عالماً بالشرع والواقع، وعلى الرغم من ذلك فإن إنكاره لبعض المنكرات التي ذكرناها وتكرر ذلك منه قد أثار ضده جماعة من شانئيه، فثار بعضهم وشكو منه بأنه يقيم الحدود ويعزر الناس على ما يرى، ولكن الأمر سكن بعد أن تكلم هو أيضاً في شكاتهم وبين لهم أنه محق وأنهم مخطئون على نحو ما بين ابن كثير في البداية والنهاية.

يقول ابن تيمية «(٢٨/ ١٠٩) مجموع الفتاوي»: فلهذا ذهب مالك وطائفة من أصحاب أحمد إلى جواز قتل الجاسوس، وذهب مالك ومن وافقه من أصحاب

١- راجع كتابي «تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد».

الشافعي إلى قتل الداعية إلى البدع، وليست هذه القاعدة المختصرة موضع ذلك، فإن المحتسب ليس له القتل ولا القطع».

وقال رحمه الله: «... فتدبر هذا فإن هذا مقام خطر، فإن الناس هنا ثلاثة أقسام: قسم يأمرون وينهون ويقاتلون طلباً لإزالة الفتنة التي زعموا ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة، كالمقاتلين في الفتنة الواقعة بين الأمة، وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا وهم قد سقطوا في الفتنة...» إلى أن قال: «وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور، وهما متلازمان، وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً أو تركهما جميعاً، مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال وشهوات الغى، فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلابد من أن يفعل شيئاً من المحظورات، فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين، فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه في المفسدة، وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً، لم يفت ذلك برجاء ثواب بفعل واجب دون ذلك، فذلك يكون بما تجمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات، فهذا هذا وتفصيل ذلك يطول...».

وذكر رحمه الله أن عقوبة الظالم وتعزيره مشروطاً بالقدرة... وقال: «وإذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة بل تكون سيئة وإن كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة»[1] أ.هـ.

ولا يخفى أن شيخ الإسلام كان يخرج للإنكار ومعه الأمراء، وبعلمهم وإذنهم، وكلمته يومئذ مسموعة وسط العامة والخاصة، ناهيك عن حالة الهرج التي كانت تحدث بسبب دخول التتار، وتخلف ولاة الأمور عن كثير من صور الإنكار، وفي مقدوره القيام بذلك مع غلبة الظن بتحقيق المصلحة وإندفاع المضرة والمفسدة، وقد تكلم الجويني في «غياث الأمم» في مسألة شغور الزمان عن الإمام فقال: «وإذا لم يصادف الناس قواماً بأمورهم يلوذون به، فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن عمَّ الفساد

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١١، ٢١٢)

البلاد والعباد» وقد قال بعض العلماء: «لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قُطَّان كل بلدة وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوي الأحلام والنهى وذوي العقول والحجا من يلتزمون إمتثال إشارته وأوامره وينتهون عن مناهيه ومزاجره، فإنهم لو لم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهمات وتبلدوا عند إطلال الواقعات»، وقال أيضاً: «فإذا شغر الزمان عن الإمام وخلا عن سلطان ذي خبرة وكفاية ودراية فالأمور موكولة إلى العلماء وحق على الخلائق على إختلاف طبقاتهم أن يرجعوا إلى علمائهم ويصدروا في جميع قضايا الولايات عن رأيهم فإن فعلوا ذلك فقد هُدوُ إلى سواء السبيل، وصار علماء البلاد ولاة العباد، فإن عسر جمعهم على واحد استبد أهل كل صقع وتاحية باتباع عالم وإن كثر العلماء في الناحية فالمتبع أعلمهم، وإن فرض أستوائهم ففرضهم نادر لا يكاد يقع، فإن اتفق، فإصدار الرأي عن جميعهم مع تناقض المطالب والمذاهب محال، فالوجه أن يتفقوا على تقديم واحد منهم، فإن تنازعوا وتمانعوا وأفضى الأمر إلى شجار وخصام فالوجه عندي في قطع النزاع الإقراع فمن خرجت له القرعة قُدِّم»أ.هـ.

وهذا الذي ذكرناه من فعل شيخ الإسلام وقوله، وما نقلناه عن الجويني يفترق افتراقاً عظيماً عن قيام بعض الأغرار الجهال بتحريق الخمارات وإزهاق الأرواح البريئة، وبحيث يخلف المنكر من الشر والفساد والمنكرات وتعطيل الدعوات ما هو أعظم بكثير من المنكر المزال.

ويبقى أن يقال: إن الفتوى تُقدر زماناً ومكاناً وشخصاً، وان الحكم على شئ فرع عن تصوره ولابد من تطبيق الحكم على الواقع المساوي، حتى لا تكون مجافاة بين الحكم والفتوى ويُساء إستخدام النصوص وتطبيق أقوال وأفعال العلماء على غير واقعها.

سادس عشر: خصومه:

قال ابن رجب وهو يتحدث عن الشيخ عماد الدين الواسطي وإجلاله وتعظيمه لابن تيمية: «ولكن كان هو وجماعة من خواص أصحابه، ربما أنكروا من الشيخ كلامه في بعض الأئمة الكبار الأعيان، وفي أهل التخلي والإنقطاع -يريد الزهاد والمتصوفة- ونحو ذلك، وكان الشيخ رحمه الله لا يقصد بذلك إلا الخير

والإنتصار للحق، وطوائف من أئمة أهل الحديث وحفاظهم وفقهائهم كانوا يحبون الشيخ ويعظمونه، ولم يكونوا يحبون له التوغل مع أهل الكلام ولا الفلاسفة، كما هو طريق أئمة أهل الحديث المتقدمين كالشافعي وأحمد... وكذلك كثير من العلماء، ومن الفقهاء والمحدثين والصالحين، كرهوا له التفرد ببعض شذوذ المسائل التي أنكرها السلف على من شذ بها، حتى أن بعض قضاة العدل من أصحابنا -يريد الفقهاء الحنابلة- منعه من الإفتاء ببعض ذلك»

ثم يذكر ابن رجب بعد هذا وهو ينقل عن الذهبي بعض ما قاله فيه: «ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون و الآخرون وهابوا، وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدَّعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يماري، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه إجتهاده، فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقعات شامية مصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله، فإنه دائم الإبتهال، كثير الاستغاثة والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش...»أ.هـ.

إن من الغلو أن نصوب شيخ الإسلام في كل ما خولف فيه، ولكن العدل والإنصاف يقتضينا إحقاق الحق وأبطال الباطل ورد ما تنازعنا فيه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن نذب عن أعراض المسلمين بصفة عامة، والعلماء بصفة خاصة، فبعض هذا التشنيع كان بسبب المعاصرة أو المخالفة في العقيدة أو بسبب التقليد أو حباً في ابن عربي وغيره من غلاة الصوفية، أو لمسائل اجتهادية كان لشيخ الإسلام فيها سلف، لقد حسدوه وعادوه، ومع هذا لا تأخذه في الله لومة لائم، بل كان يصدع بالحق الذي أداه إليه إجتهاده وإن كان مراً. متوقع الأذى ويقبله راضياً محتسباً ولسان حاله يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

لقد وقفوا دونه في بعض المسائل التي رآها، ونالوه بالأذى من أجلها، وظاهرهم في بعض مواقفهم رجال من ذوي الجاه والسلطان، وقد مر بك كيف عفا وصفح -رحمه الله- عن خصومه وإلا فعند الله غداً تجتمع الخصوم...

ابن تيمية السلفي

السلف هم الصحابة ومن تابعهم بإحسان من سائر قرون الخيرية وأئمة الدين العدول كأبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وابن المبارك وسفيان الثوري وابن عيينة... والسلفيون من تابعوهم على هذا الفهم إلى يومنا هذا من أهل السنة والجماعة، فبعد أن ظهر الإنحراف في فهم العقيدة وذلك بترجمة الفلسفة اليونانية، حيث ظهر بسبب ذلك تأويل كلام الله، وصرفه عن ظاهره ومعناه صرفاً بعيداً، ويومها انقسم المسلمون في مسائل العقيدة إلى فرق ومذاهب: سلف وخلف، وقد حاول الجميع الإنتساب للسلف فأصبح مدلول السلفية إصطلاحاً خاصاً جامعاً مانعاً يطلق على طريقة السلف في فهم الإسلام وتطبيقه، دون المبتدعين كالشيعة والخوارج والقدرية والمعتزلة والمرجئة.

فكل من أراد أن يكون من الطائفة الظاهرة الناجية المنصورة فعليه بالرجوع للكتاب و السنة بفهم سلف الأمة، وحينئذ سيكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام. قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وصح الحديث: **«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**، ولما وصف ابن مسعود رضي الله عنه الصحابة قال: «كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً».

فكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

وما لم يكن يومئذٍ ديناً فليس اليوم ديناً، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُحَ به أولها، فالسلفية إذن ليست بديلاً عن الإسلام، بل هي منهج فهم الإسلام والعمل به بالرجوع إلى سيرة السلف الصالح، فطريقتهم هي الأعلم والأحكم والأهدى والأسلم، وهي طريقة لا تقبل المساومة، ولا المفاصلة ولا عمل قنطرة مع الخلف الذين درسوا الفلسفة والمنطق اليوناني وتأثروا به.

وبالتالي فالإسلام الذي نعنيه ليس هو إسلام الشيعة أو المعتزلة أو الصوفية...

وإنما هو الإسلام الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وهو الكتاب والسنة بفهم أعلم الناس بالكتاب والسنة بعيداً عن مناهج المستشرقين والمستغربين الدخيلة، وبعيداً عن التفسيرات المادية الإلحادية.

والناظر في دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ومنهجه سيجد سمات الدعوة السلفية التجديدية التصحيحية، وأن لسان حال صاحبها كان يقول: إنما أنا متبع ولست بمبتدع. يدلك على ذلك قوله الفذ: «إني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي أو غير حنبلي ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وقد قلت لهم غير مرة: أنا أمهل من خالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة بألفظهم وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف. . .أ.هـ.

وقد بين ابن تيمية مناهج العلماء في العقيدة وأخطاءها، وقسم طرائق العلماء في فهم العقيدة في أصوله إلى أربعة أقسام ونقدها، وهذه المناهج الأربعة هى مناهج الفلاسفة والمتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية.

فالمعتزلة نهجوا في دراسة العقيدة الإسلامية منهجاً فلسفياً قبسوه من منطق اليونان، ومن طرائق الفلاسفة في الجدل والمناظرة وجاراهم في ذلك المنهج الفلسفي الأشاعرة والماتريدية.

لقد جاءت السلفية وابن تيمية فخالفت ذلك المنهاج، بمحاولة إعادة الإسلام إلى عهده الأول، وإزالة ما علق به من غبار، لقد وُجد الصراع بين المناهج وهو ما يعبر عنه البعض بالصراع الأيديولوجي، وسبيلنا اليوم في مواجهة الديانات المنحرفة والنظم الوضعية والفلسفات المادية والنزعات العقلانية وفرق الضلالة، أن نعود لمثل ما كان عليه سلفنا الصالح علماً وعملاً واعتقاداً، فالانحراف والضلال الذي وُجد يوماً مازال يتكرر، حتى وإن اختلفت الكلمات والعبارات واختلفت الصور والأشخاص، وما كان يرد به شيخ الإسلام على هؤلاء يصلح رداً على أولئك.

بعض سمات وملامح

المنهجية الإصلاحية عند ابن تيمية

هناك ملامح عامة ومنطلقات لابد من معرفتها لفهم ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كل ما كتب في التفسير، والعقائد، والفقه، والسياسة، والتصوف، وما دونه من أراء استحق بها أن يكون من عداد المجددين المصلحين، والمنهج السلفي الذي سلكه ابن تيمية يعتمد على عناصر أربعة:

١ - عدم الثقة المطلقة بالعقل:

يعتمد ابن تيمية في نهجه في الدين كله عقائده، وفروعه على الكتاب والسنة، ويرى أن طلب العقائد من العقل كحاطب بليل، وأن الفلسفة عندما خاضت في الإلهيات صلت ولذلك كانت له مآخذه على الفلاسفة ومن نهج نهجهم وسلك طريقهم في التفكير كالمتكلمين، ويعزو خلافه معهم في النتائج إلى إختلاف الطريقة واختلاف المنهج.

فهو يرى أن القرآن والسنة أشارا إلى المقدمات العقلية التي تهدي إلى سواء السبيل، وأن متاهات العقل هى فيما يخترعه أولئك المتفلسفة ومن نهج نهجهم من علماء الكلام في استخراج العقائد والحكم عليها، ويقول في ذلك في أصوله صـ١٠: «وبينا أن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر، كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم، بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين وهؤلاء الغالطون أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية، والبراهين اليقنية».

ويبين ابن تيمية خطأ منهج الفلاسفة والمتكلمين فيقول: «والمتفلسفة يقولون: القرآن جاء بالطرق الخطابية، والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور. ويقولون: إن المتكلمين جاءوا بالطرق الجدلية المنطقية، ويدعون أنهم هم أهل البرهان اليقيني، وهم أبعد عن البرهان في الإلهيات من المتكلمين، والمتكلمون أعلم، ولكن المتفلسفة من أجهل الناس بها، وأبعدهم عن معرفة الحق فيها، وكلام أرسطوا معلمهم فيها قليل، كثير الخطأ».

وقال رحمه الله في سبب ضلال الفلاسفة وخطأ نهجهم أنهم يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم، ويذكرون أن النظر يوجب العلم، وأن النظر واجب، ويتكلمون في النظر، وجنس الدليل، وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للدين، استدلوا بحديث الأعراض على حدوث الأجسام، وهو دليل مبتدع في الشرع، وباطل في العقل».

فالعقل عند ابن تيمية لا يستقل ولا ينفرد في الوصول إلى حقائق الدين، وذكر أنه لا تعارض بين نقل صحيح وعقل صريح، وأنه يجب أن يكون العقل تبعاً للنقل لا متبوعاً كالمتكلمين، ومحكوماً بالقرآن ومقدماته في الإستدلال، لا حاكماً على القرآن ومنهجه المعتزلة، وبالتالي فلا يجوز تأويل القرآن لمخالفته لأقوال المتفلسفة والمتكلمين وأمثالهم.

ولهذا تجد ابن تيمية قد خطّأ منهج الغزالى وألحقه في بعض جوانبه بالفلاسفة كما خطأ فلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة والمتكلمين كأصحاب وحدة الوجود الصوفية والاتحادية كابن عربي وابن سبعين والحلاج وابن الفارض . .

لقد كان الرازي ممن خاض في الفلسفة، وانتهى به الأمر إلى أن يقول: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما وجدتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن في الإثبات».

إن ابن تيمية لا يهمل العقل في مجاله وحدوده التي إن تجاوزها ضل، ولم يصل إلى غاية ولم ينته إلى نهاية ولذلك تحير الفلاسفة الأقدمون، ومن نهجوا نهجهم، ولم يصلوا بالعقل المجرد إلى ما وراء المادة، لأنها غيب لا يشاهد ولا يدرك بالعقل، حتى قال قائلهم:

نهاية إقدام العقول عقال ... ومعظم سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وما جنينا طول العمر إلا قيل وقال

وقال الآخر: «ها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو عقيدة العجائز».

فعلم الدين والهداية لا تأخذ إلا من الوحي المُنزل، لأن منزله هو عالم الغيب

الصناعة والزراعة والهندسة والطب فلا بأس بأخذها من كل من أفلح فيها.

٢- عدم اتباع الرجال علي أسمائهم وشهرتهم ومقامهم

نعى ابن تيميـة على الذين يتبعون الأقوال من غـير معرفة أدلتـها، ووجه الحق فيـها، وحكى عن الأئمة الأربعة أنهم نـهوا تلاميذهم عن اتبـاع آرائهم، إن كانت مخالفة لنصوص الكتاب والسنة فالإمام مالك يقول: اعرضوا قولي على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والشافعي يقول: «إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط».

وأحمد يقول: «لا تقلد دينك الرجال». ولهـذا كان حريصاً رحمه الله على رد الأقوال إلى أصولها ومتابعـة الدليل من الكتاب والسنة وآثار السلف، وذلك لمعرفة الرجال بالحق، وبيَّن أنه لم يأت ببدع جديدة بل كان متبعاً وليس مبتدعاً.

٣- أن الشريعة أصلها القرآن وقد فسره محمد ﷺ بالسنة

قال تعـالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]، وقال تعـالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾[2]، فكان ابن تيمـية يرجع إلى الكتاب والسنة ويدعـوا إلى التحاكم إلى أهل القـرون الثلاثة الأولى كما ناظر في العقيدة الواسطية رداً على مـخالفيه: «وقد أمهلت من خالفني ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحد عن القرون الـثلاثة يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك، وعلى أن آتي بقول جميع الطوائف من القـرون الثلاثة يوافق ما ذكرته» والقرون الثلاثة أي الصحابة والتابعون وتابع التابعين لهم بإحسان، فالصحابة أعلم الناس بمرامي الشـريعة وقد عـاصروا نزول الوحي وحـفظوه وفهـموه ونقلوه كـما سمعوه إلى التابعين لهم إلى يوم الدين.

٤- عدم التعصب فى تفكيره والبعد عن الغلو والجمود

لقد خـلع ابن تيميـة نفســه من كل ما يقـيده إلا الكتـاب والسنة وآثار السلف الصالح، وكان عنده أهليـة النظر المباشر في الكتاب والسنة، فـقد حصّل الأدوات والأسباب التي تؤهله لأن يكون مـجتهداً إجتهـاداً مطلقاً، ودرس المذاهب والفرق

(١) النحل: ٤٤ (٢) الأحزاب: ٣٤.

والآراء، وتعرف على مصدر كل رأي، وخـالف المذاهب الأربعة في بعض المسائل الفقهية لاجتهاده وغلبة ظنه أن هذا هو حكم الله فيها، واعتذر عن كل من خالف الكتـاب والسنة الصحـيحـة بأعذار قـوية ترفع الملام عنهم، وتدعوا إلى تقـديرهم وتوقيرهم فقال: «يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله، موالاة المؤمنين كما نطق القرآن، وخصوصاً العلماء ورثة الأنـبياء، وكل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ».

وإذا كـان هذا هو مسلكه مـع علماء الأمـة، نراه رحـمه الله قـد ضاق ذرعـاً بالهدامين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين كاليهود والمجوس والباطنية.

الأصل هو الذي تدور حوله نصوص الشريعة، ولا يحل للإنسان أن يؤصل أصلاً يطوع نصوص الشريعة لموافقته ولا حرج في اعتبارنا أصول الدعوة السلفية ثلاثة أو أكثر أو أقل فالمهم ان تكون صحيحة موافقة لنصوص الكتاب والسنة، وقد تكلم الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه «الأصول العلمية للدعوة السلفية» عن التوحيد، والإتباع، والتزكية، ولا ريب أن التزكية لا تتم إلا بالتوحيد والإتباع، والإتباع الحق يتضمن توحيد الله عز وجل وتزكية النفوس، فهذه الأصول التي يجملها البعض ويفصلها آخرون، هي مندرجة تحت كلمة الشهادة: لا إله إلا الله محمداً رسول الله، وهي الكلمة التي ندخل بها في دين الله.

وقد ذكر الدكتور مصطفى حلمي ثلاث قواعد واضحة عند ابن تيمية في المنهج السلفي المتميز وهي:

١- تقديم الشرع (النقل) على العقل:

ففي الصفات الألهية اثباتها بلا كيفية، وفي المسائل الكلامية الأخرى، اتخاذ الأوائل قدوة في النظر والعمل، فالقرآن والحديث ثم الإقتداء بالصحابة لأن الوحي كان ينزل بين أظهرهم، فكانوا أعلم بتأويله من أهل العصور التالية، وكانوا مؤتلفين في أصول الدين ولم يفترقوا فيه ولم يظهر فيهم البدع والأهواء فيتميزون عن المتكلمين بأنهم يبدؤون بالشرع ثم يخضعون العقل له، بما يتفق مع الشرع، وأن الأوائل كانوا أكثر فهماً للشرع من غيرهم.

قال ابن تيمية في «نقض المنطق (صـ: ٣٠٩)»: «المعقول عندنا ما وافق هديهم، والمجهول ما خالفهم ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم إلا هذه الآثار».

فطريقتهم في إخضاع العقل للنص، لا العكس مخالفين بذلك قواعد المتكلمين من المعتزلة والأشعرية الذين قدموا العقل وأولوا النصوص تبعاً له، مستدلين بما استدل به ابن تيمية من قوله تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الأحقاف: ٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء: ٦١]، فالأثارة هي الرواية، وفي الآية الثانية

دليل على نفاق من يحاكم إلى غير الكتاب والسنة، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسمية هو عقليات من الأمور المأخوذة من بعض طواغيت المشركين والكتابيين.

وهذا الإعوجاج في التفكير الذي قومه ابن تيمية هو الذي يتخذه أصحاب المنهج العقلي المعتزلي المعاصرون، الذين يحاولون إخضاع الدين والشريعة لمتطلبات العصر المتجددة، ومن جملة هؤلاء محمد عبده وتلاميذ مدرسته العقلانية[1] ومن تأثر بمنهجه من اتباعه كعلي عبد الرزاق، وطه حسين، وقاسم أمين، والكواكبي.

ولقد حاول أصحاب الإتجاه التغريبي اخضاع النصوص لأهوائهم وعقولهم، وفسروا الدين في ضوء ما يذهب إليه مفكروا الشرق والغرب وفلاسفته، ولذا وجب الحذر والتحذير، وخصوصاً مع اشتداد هذا التيار في أيامنا هذه بزعم الحداثة والتطوير والتنوير!! إن الإسلام جاء ليقوم عوج الحياة لا ليزر بها عوجها .

٢- رفض التأويل الكلامي

لا يجوز إتخاذ العقل أصلاً في التفسير مقدماً على الشرع، وتأويل النصوص إلى ما يوافق مقتضى العقل، فالسلف كانوا على العكس، احتكموا إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، فطوعوا المفاهيم العقلية لها، لأن العقل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو أمر يقوم بالعاقل ليس هو عيناً قائمة بنفسها كما يعتبره بعض الفلاسفة، والعقل يعجز عن الإحاطة بحقائق الدين، لأنه قاصر، أما الدين فهو دين الله خالق ومالك الملك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤]، وهذا الدين شامل لكل ناحية من نواحي الحياة، وصالح لكل زمان ومكان، ويتناسب مع جميع الخلق في الماضي والحاضر والمستقبل.

أما العلم الإنساني الذي يحيط بكل شئ فلن يوجد أبداً قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه: ١١٠]، وقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، وما زالت الإكتشافات العلمية تمضي في طريقها لتبرهن على أنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد إحساساً بجهله وشعوراً بقصوره وعجزه.

١- بعض الكتاب المعاصرين كالغزالي ومصطفي محمود، رغم دفاعهم عن الإسلام العام المجمل إلا أن نزعتهم العقلانية ورد نصوص الشريعة ، والهزيمة النفسية عندهم تجاه بعض الأحكام توجب الحذر من كلامهم.

يقـول ابن تيمـية: «وكـان من أعظم ما أنعم الـله به على السلف اعتـصامـهم بالكتاب والسنة، فكان من الإصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم، أنه لا يقبل من أحـد قط معارضة القـرآن برأيه، ولا ذوقه كالمتـصوفة، ولا معـقوله ولا قياسه كـالفلاسفة، والمتكلمين، والمناطقة، ولا وجده كالبـاطنية، فإن السلف ثبت عنهم بالبراهين القـاطعة، والآيات البينات أن الرسول جاء بالهـدى، والقرآن يهدي للتى هي أقوم.

وقد رد الإمام أحـمد على الجهمـية والمعتزلة، فبين أن السلف كـانوا ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانـتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وأن منهج السلف فيمن أراد مـعرفة شئ من الدين أن ينظر فيـما قال الله والرسول، فـمنه يتعلم وبه يتكلم وفـيه ينظر ويتـفكر، وبه يستـدل، وعلي العكس من ذلك أصحـاب المنهج الكلامي الذين اعـتمـدوا على مـا رأوه ثم نظروا في الكتـاب والسنة فإن وجـدوا النصوص.توافقه أخذوا بها، وإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها.

٣- الإستدلال بالآيات القرآنية

يرى ابن تيمية في «الفرقان (صـ: ٤٧)» أن: «ما من مسألة من المسائل الكلامية والفلسفية التي خاض فيها الخائضون في العصور التالية إلا وكانت قد أوضحت في القرآن، فقـد أمد المسلمين بتقريرات وبينات عن الذات الإلـهية وصفاتهـا ومسائل التوحيد والنبـوات واليوم الآخر، والإنسان وبداية خلقه ونهاية مصيـره وموقفه من الكون، والأمم السابقة وتاريخهم الماضي، وحقائق عالم الغيب كالملائكة والجن.

والآيات القـرآنية كـثيرة منـها: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠، ٢١]، ومنها: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾[الطور: ٣٥، ٣٦]، وجاء الرسـول ﷺ مؤيداً بالحـجج العـقليـة كـما قـال تعـالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]، فأخبـر أن الكفار لا يأتونه بقياس عقـلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق والبـيان والدليل والمثـل بما هو أحسن تفسـيراً للحق من قيـاسهم وقـد تضمنـت الآيات القرآنية الأدلة والبـراهين المبينة للـحق بأسلوب مقنع قـال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾[الفرقان: ٣٣].

فـهي عـلامـات ودلالة من أدلة الله على الـله وعلى مـا أراد، وتدل على أن الرسـول ﷺ صـادق لأنه لا يستطيع الإنس والجن الإتيـان بمثلها وعجـزهم أمام التحـدي، فالبينات هي الأدلة والبـراهين والهدى هو بيان مـا ينتفع به الناس ومن الأدلة القـرآنية الإسـتدلال على الخـالق بخلق الإنسان، لأن كـون الإنسان حـادثاً ومخلوقاً من علقـة، دليل عقلي ملموس يعلمه البشر بعـقوله، ودليل شرعي لأن الشارع اسـتدل به وأمـر بالإستدلال به علـى البعث وإعادة الخلق بقـدرة الله على الخلق ابتداء.

بهذه القـاعدة وقف السلف في وجـه المتكلمين والفلاسفـة واستعـاضوا بالأدلة القرآنية عن التأويلات الكلامية لدى شيوخ المعـتزلة والأشعرية، وكان ابن تيمية من أدق المستـخدمين لهذه القـاعدة، ثم امتـدت طريقته السـلفية حـتى وقتنا، وهكذا اجتـمع دليل الفطرة مع دليل النظر لكل من طلب الحق بالقدر المشـترك بين الناس من العقل والفطرة.

وبهذه القـاعدة المنهجـية التي يدعمهـا ابن تيميـة شرعاً وعـقلاً، والتي تتلخص في الإعتقاد بأن السلف الصالح من الصحابة كـانوا هم الأعلم بلغة القرآن ومرامية والأحكم في فهم محكمه ومتشابهه، فلم تظهر في عصرهـم خلافات في أصول العقيدة.

التركيز علي دعوة التوحيد والإبتلاء بسبب ذلك

المتتبع لسيرة شيخ الإسلام وترجمته، ولمؤلفاته وكتبه، يرى تركيزاً على دعوة التوحيد وحرصاً على تفنيد شبهات المخالفين، ومن ذلك ردوده على النصارى واليهود والباطنية، والشيعة، والصوفية، والمعتزلة... واهتمامه بمعاني التوحيد يدل على متابعة صادقة إذ ما من نبي إلا وقال لقومه أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وكان التوحيد أول ما دعا إليه رسول الله ﷺ في مكة، واستمر هذا الاهتمام في المدينة، والقارئ لكتاب الله من أوله إلى آخره لابد وأن ينتبه لهذا المعنى، والتوحيد هو أول ركن من أركان الإسلام كما ورد في حديث «بني الإسلام على خمس» رواه مسلم، ولما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل لأهل اليمن قال له: **«إنك تقدم علي قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله فإذا هم عرفوا الله فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة...»** الحديث رواه البخاري.

فتقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلي الله تعالى، ولا أهم من التركيز على دعوة التوحيد خصوصاً إذا عمت الجهالة واشتدت الغربة، وانحرف الناس عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وكما ترتب الأذى قديماً على الأنبياء والصالحين بسبب ذلك، نجد أن ابن تيمية قد ناله حظ ونصيب وحُبس مرات بسبب عقيدته السلفية، ومن ذلك ما ذكره صاحب «فوات الوفيات»: «أن شيخ الإسلام أملى سنة ٦٩٨هـ المسألة المعروفة بالحموية في قعدة بين الظهر والعصر، وهي رسالة أجاب بها عن سؤال ورد من «حماه» في الصفات، وجري له بسببها محنة ولكن الله نصره وأذل أعداءه»، وقد اتهم بلا حق بأنه يرى رأي المجسمة والمشبهة، وأثار خصومه الناس وبعض السلاطين والأمراء عليه بسبب آرائه على الرغم من أنه كان سلفياً فيما ذهب إليه، وقد ذكر ابن كثير القصة بشئ من التفصيل في «البداية والنهاية»، ولم يتركه خصومه كما يذكر ابن رجب، قال: «ثم امتحن سنة ٧٠٥هـ بالسؤال عن معتقده بأمر السلطان، فجمع

نائبه والقضاة والعلماء بالقصر، وأحـضر الشيخ وسأله عن ذلك، فبعث الشيخ من أحضر من داره «العـقيدة الواسطية» فقـرؤها في ثلاثة مجالس، وحققـوها وبحثوا معه، ووقع الاتفـاق بعد ذلك على أن هذه العقيـدة سنية سلفية، فـمنهم من قال ذلك طوعاً ومـنهم من قاله كـرهاً، وورد بعد ذلك كتـاب من السلطان فـيه: «إنما قصدنا براءة ساحة الشيخ، وتبين لنا أنه على عقيدة السلف».

ويذكر ابن كثـير في «البداية والنهاية»: «أنه في جـمادى الأولى من هذا العام، حضر جماعة من رجال الطائفة الأحمدية من أهل الطرق الذين يموهون على الناس بما يزعمون كرامات لهم، ومن هذه الكرامات أنهم يدخلون النار ولا تمسهم بأذى، وكانوا قـد طلبوا مـن نائب السلطنة بحضـرة الأمراء، أن يكف الشـيخ عنهم وأن يتركهم وحـالهم فقال الشيخ: «هذا مـا لا يمكن، ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه، ومن أراد منهم أن يدخل النار منهم فليدخل أولاً الحمام ويغـسل جسده جيداً، ثم يدخل إلى النار بعد ذلـك إن كان صادقـاً، ولو فرض أن أحـداً من أهل البدع دخل النـار بعد أن يغتـسل، فإن ذلك لا يـدل على صلاحـه ولا على كرامـته، بل حالـه من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة فما الظن بخلاف ذلك.

فقـال رجل منهم نحن أحـوالنا إنما تنفق عند التتـار وليست تنفق عنـد الشرع، فضبط الحاضـرون عليه تلك الكلمة، وكثر الإنكار عليـهم من كل أحد، ثم انتهى الحال على أن يخلعوا أطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وكان من أجل ذلك أن كتب الشـيخ جزءاً في هذه الطريقة وبين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخـيلاتهم، وما فيها من مقبـول ومردود بالكتاب، وأظهر الله السنة على يديه، وأخمد بدعتهم وبطل ما كانوا يعملون.

وتوالت عليه المحن كما يذكر ابن كثـير، ففي نفس السنة ورد إلى دمشق كتاب من السلطان بحمل ابن تيمية إلى القاهـرة، وكان نائب السلطنة قد أشار عليه بعدم الذهاب إلى مصر، ولكن ابن تيمـية رأى أن المصلحة في الذهاب، وازدحم الناس لوداعه وهم بين باك وحزين من أجله ومـتفرج وتنزه، ومزاحم متغـال فيه، ويذكر ابن وجب أن المصـريين هم الذين دبروا الحـيلة في أمـر الشـيخ ورأوا أنه لا يمكن

البحث والجدل معه، وأجمعوا أمرهم على أن يعقد له مجلس ويُدعى عليه فيه وتقام عليه الشهدات، وكان القائمون في ذلك بيبرس الجاشنكير، ونصر المنبجي، وكان خصماً للشيخ، وابن مخلوف قاضي المالكية، ثم تم حبس شيخ الإسلام ونقل إلى السجن المعروف بالجب، ولبث في السجن عاماً وبضعة أشهر، ورفض الإفراج عنه على أن يرجع عن بعض عقيدته، ولم يكد يخرج من السجن حتى عاد إليه في العام نفسه بسبب شكاية تقدم بها الصوفية وذكروا في شكايتهم أنه يحمل على ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود... وغيره من أعلام التصوف، ثم في سنة ٧١٨هـ ورد كتاب من السلطان بمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير، أي لزوم كفارة اليمين عند الحنث لا وقوع الطلاق، إذا قال الرجل الطلاق يلزمني أو علقه على شرط وقصد به اليمين، وفي سنة ٧٢٦ هـ صدر مرسوم بإعتقاله لفتواه بمنع شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة الحرام والأقصى ومسجد النبي ﷺ بالمدينة، وحين أُخبر ابن تيمية بالمرسوم قال: «أنا كنت منتظراً لذلك، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة» ولم ينته هذا الإعتقال إلا بوفاته.

موقفه من الملل ورده على من بدل دين المسيح

ما دخل ابن تيمية في علم إلا وفاق أهله فيه، وكان رحمه الله على معرفة كبيرة بالملل والنحل والمذاهب والفرق والعقائد والطرق، مما يسر له الرد وتفنيد الشبهات والزيف ومن الأمثلة التي توضح لك ذلك كتابه القيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وهو يقع في مجلدين كبيرين، وقد أسسه على ست قواعد جامعة صالحة للرد عليهم وعلى« شبهاتهم هنا وهناك، ومن جملة ما قاله في بيان تبديلهم وتغيرهم وتحريفهم: «وكان الروم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العلوية والأصنام الأرضية، فبعث المسيح عليه السلام رسله يدعونهم إلى دين الله تعالى فذهب بعضهم في حياته في الأرض وبعضهم بعد رفعه إلى السماء، فدعوهم إلى دين الله تعالى فدخل من دخل في دين الله وأقاموا على ذلك مدة ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح فابتدعوا ديناً مركباً من دين الله ورسله، دين المسيح عليه السلام ودين المشركين». وقال: «كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم وهي ألفاظ لا توجد في شئ من كلام الأنبياء، وكما أحدثوا الأصنام

المرقومة بدل الأصنام المجسدة...». وقال: «لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد في كلام الأنبياء فليس في كلام الأنبياء ولا المسيح ولا غيره ذكر أقانيم لله ثلاثة ولا أكثر ولا إثبات ثلاث صفات ولا تسمية شئ من صفات الله ابناً له ولا رباً، ولا تسمية حياته روحاً، ولا أن لله ابناً هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه، و أنه خالق كما أنه الله خالق، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر، لم تنقل عن نبي من الأنبياء».

وبين كيف وضع لهم الأحبار والرهبان الشرائع والعقائد، فقال: «النصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح، كما وضع لهم الثلاثمائة وثمانية عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك الأمانة التي اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتاباً بل تخالف ما أنزل الله من الكتب مع مخالفتا للعقل الصريح».

وقال عن الأناجيل: «إن هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الأناجيل وقد يسمون كل واحداً إنجيلاً، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله وأن المسيح بلغها عن الله بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبيﷺ من أقواله وأفعاله التي ليست قرآناً، فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتب السيرة وكتب الحديث»، وقال: «وأما الأنجيل الذي بأيديهم فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه على من كتبه وإنما أملوه بعد رفع المسيح ومتى، ويوحنا، وكانا قد صحبا المسيح عليه السلام ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر، ومرقس، ولوقا، وهما لم يريا المسيح عليه السلام، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله، ونقل اثنين وثلاثة وأربعة يجوز عليهم الغلط لا سيما وقد غلطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب».

وقد شهد بوقوع التحريف في الأناجيل فقال: «وإذا عرف أن جميع الطوائف من المسلمين والنصارى يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف وتبديل في معانيها وتفاسيرها وشرائعها، فهذا القدر كاف»، وقال: «ولكن علماء المسلمين

وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعاني والتفاسير».

وتكلم عن التوراة وهي الكتاب المعتمد عند اليهود والعهد القديم عند النصارى فقال: «أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خربت بيت المقدس أولاً وأجلى منه بنو اسرائيل ثم ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عازر وزعموا أنه نبي ومن الناس من يقول أنه لم يكن نبياً وأنها قوبلت بنسخة وجدوها عتيقة، وقيل أنه احضرت نسخة كانت في المغرب وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها كما يجرى مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخها ومقابلتها وحفظها القليل الإثنان والثلاثة»، وقد بين رحمه الله أن أهل الكتاب لم يفهموا كثيراً من ألفاظ الأنبياء كما قد حرفوا مفاهيم ألفاظ كثيرة مثل ابن، وروح القدس، ولذلك ظهرت فيهم عقيدة التثليث»، وأورد في كتابه من قال من علمائهم بالتوحيد وأن المسيح عبد الله ورسوله، وذكر البشائر عن النبي محمد ﷺ في التوراة والكتب السابقة ونقل الكثير من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته، وأنه لا يسع أي مؤمن بنبي من الأنبياء انكار النبوة المحمدية[1]، إذ الأنبياء السابقين لا تعرف نبوتهم إلا من خلال الإيمان بنبوته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكما قال ابن تيمية: «فإن معجزات النبي ﷺ أعظم وتواترها أبلغ، والكتاب الذي جاء به أكمل وأمتة أفضل، وشرائع دينه أحسن، فيبطل بتكذيب نبوته جميع ما مع الناس من النبوات»، وبين بعثته العامة ﷺ فقال: «فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب، وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام فإن المسلمين لا يجوز لأحد بعد محمد ﷺ أن يغير شيئاً من شريعته، فلا يحلل ما حرم ويحرم ما حلل، ولا يوجب ما أسقط ولا يسقط ما أوجب، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله».

١- راجع كتابي «دعوة أهل الكتاب إلي دين رب العباد» لتعلم كفر أهل الكتاب الذين سمعوا بنبوته ﷺ ولم يسلموا وجوههم لله، وأنهم وإن أقروا بوجود الله فليسوا بمؤمنين، وأنه لا يجوز التلبيس ولا التدليس أو إطلاق اسم «أهل الإيمان» على اليهود والنصارى، كما أن الدين الذى يجب أن تعود إليه البشرية هو دين الإسلام وليس ديناً سواه، فلا داعى للتعمية إذ التوضيح مطلوب وخصوصاً وقت الغربة، واختلاط المفاهيم وكثرة المزيفين.

معنى الفلسفة وأقسام الفلاسفة:

قال أبو الفتح الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»: «الفلسفة باليونانية: محب الحكمة، والفيلسوف هو فيلا سوفاً، وفيلا هو المحب، وسوفاً هي الحكمة، أي هو محب الحكمة، والحكمة قولية وفعلية»، وقال الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال»: «اعلم أنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ثلاثة أقسام:

الدهريون، والطبيعيون، والألهيون:

فأما الدهريون: فهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر للعالم، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، وكذلك يكون أبداً، وهؤلاء الزنادقة.

وأما الطبيعيون: فهم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وعجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح الأعضاء فرأوا فيها العجائب، فاضطروا إلى الاعتراف بقادر حكيم، لكنهم جحدوا الآخرة، وهؤلاء أيضاً الزنادقة.

وأما الألهيون: وهم المتأخرون منهم سقراط وهو أستاذ أفلاطون، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس، وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق وهذب العلوم، وهؤلاء ردوا على الصنفين الأولين، ثم رد إرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط، ومن قبله من الألهيين، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم». قال الغزالي: «فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما».

المتفلسفة المسلمين وأنبهارهم بأرسطوا وأفلاطون:

يقول أبو نصر الفارابي عن أرسطو وأفلاطون «وكان هذان الحكيمان هما المبدعان للفلسفة والمنشئان لأوائلها وأصولها، والمتممان لأواخرها وفروعها، وعليهما المعول في قليلها وكثيرها».

وقال أبو علي ابن سينا في كتابه الشفاء: «إن أرسطوا مضى عليه أمد طويل إلا أن القضايا والتحقيقات التي أدلى بها لم تحتج إلى زيادة».

وذكروا عن ابن رشد[١] وانبهاره وتعظيمه لأرسطوا فقالوا: «أما تمجيد ابن

---

١ – حاز فيلم «المصير» عن حياة ابن رشد الجائزة فى فرنسا، وتقلد سلمان رشدى أعلي جائزة فى إنجلترا عن كتابه «آيات شيطانية» وتوجوا نجيب محفوظ بجائزة نوبل عن كتابه «أولاد حارتنا» لأمور لا تخفى عليك.

الكمال الإنساني عقلاً وفضلاً، ولو كان ابن رشد يقول بتعدد الألهة لجعله ابن رشد رب الأرباب».

ويعتبر نصير الدين الطوسي حامل لواء العلم والفلسفة اليونانية، وكان مقرباً لهولاكو زعيم التتار، وسبباً من أسباب انتشار الدمار في البلاد والعباد، وكان يعتبر أرسطوا العقل الكامل، ويرى في نظراته وتحقيقاته المرجع الأخير، وهو الذي أحل المنطق والفلسفة محلاً رئيسياً في التعليم السائد في إيران.

وقد ولد شيخ الإسلام ابن تيمية قبل وفاة نصير الدين الطوسي بعشر سنين وكان الفلسفة والمنطق اليونانيين في غلبة وازدهار بتأثير الطوسي وتلامذته.

إنصاف شيخ الإسلام فى نقد خصومه:

الميزان له كفتان، والعدل أساس الملك وبه قامت السموات قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]، والظلم ظلمات، ولا يحل ذلك حتى مع الكافر ولذلك كان لابد من اعتدال في التقييم، فالحق مقبول من كل من جاء به والباطل مردود على صاحبه كائناً من كان، وهذا هو الذي صنعه شيخ الإسلام مع الفلاسفة وغيرهم. فهو يعترف بما أجادوا فيه ويرد عليهم فيما جانبوا فيه الحق والصواب، وضابطه في ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يدلك على ذلك كتابه القيم في «نقض المنطق» وغيره.

يقول ابن تيمية: «نعم لهم في الطبيعيات كلام غالبه جيد، وهو كلام كثير واسع، ولهم عقول عرفوا بها ذلك، وهم قد يقصدون الحق لا يظهر عليهم العناد»، وقال: «لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية، وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم»، وقال عن علوم الرياضة: «فهذه الأمور وأمثالها مما يتكلم فيه الحساب أمر معقول مما يشترك فيه ذوو العقول، وما من أحد من الناس إلا يعرف منه شيئاً فإنه ضروري في العلم، ضروري في العمل، ولهذا يمثلون به في قولهم، الواحد نصف الأثنين ولا ريب أن قضاياه كلية واجبة القبول لا تنتقض البتة».

ثم نراه رحمه الله وهو يرد عليهم ويفند كلامهم في الفلسفة الألهية فيقول: «للمتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات، فإنهم أجهل

---

(١) النجم : ٨ .

الناس بها وأبعدهم عن معرفة الحق منها كلام أرسطوا معلمهم فيها قليل كثير الخطأ»، وقال: «وأما معرفة الله تعالى« فحظهم منها منجوس جداً، وأما ملائكته وكتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة، ولم يتكلموا فيه بنفي ولا إثبات، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل»، وقال: «بل قد صرح أساطين الفلسفة، أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين، إنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق، فليس لهم فيها إلا الظن، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[النجم:٨]، وقال: «إذا نظر في كلام معلمهم الأول -أرسطو- وتدبره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنهم كانوا من أجهل الخلق برب العالمين، وصار يتعجب تعجباً لا ينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء، ويرى أن هذا من جنس من يقرن الحدادين بالملائكة...»، وقال: «وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء البتة، وليسوا قريبين منه بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم، بالأمور الإلهية...»، وقال: «أما الغيب الذي تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التي تعم الموجودات كلها وتقسيم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة...»، وقال: «أما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركاً وسحراً، يعبدون الكواكب والأصنام، ولهذا عظمة عنايتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها، وكانوا يبنون لها الهياكل»، وقد فرق شيخ الإسلام بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان فقال: «وسبب ذلك ما ذكره طائفة مما جمع أخبارهم أن أساطين الأوائل كفيثاغورث وسقراط وأفلاطون كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمان وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عنده من العلم بأثار الأنبياء ما عند سلفه، وكان عنده قدر يسير من الصابئية الصحيحة، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية فصارت قانوناً مشى عليه أتباعه»، وقال: «ولكن الفلسفة التي يسلكها الفارابي وابن سينا وابن رشد والسهروردي المقتول ونحوه فلسفة المشائين، وهي المنقولة عن أرسطوا الذي يسمونه بالمعلم الأول»، وقد أوضح شيخ الإسلام أنه لا يمكن إهانة الله بأكثر من هذا وأن فلاسفة الإسلام مقلدون لفلاسفة اليونان، وأن ابن سينا جاهل بحقيقة النبوة ومنصبها.

لم يكن ابن تيمية وحده هو الذى حارب الفلاسفة:

قال ابن تيمية: «ولأرسطوا أقوال يسخر منها العقلاء، منها أن الله تعالى لا يعلم شيئاً من الموجودات لأنه لو علم شيئاً لكمل بمعلوماته كما حكاه عنه أبو البركات البغدادي فيلسوف الإسلام، وحقيقة ما كان عليه من الكفر بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وقد درج علي إثره غير واحد من الملاحدة المتسترين بالإسلام، ويعظمونه فوق تعظيم الأنبياء عليهم السلام، ويسمونه المعلم الأول لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية».

وقد ذكر الغزالي «الفارابي وابن سينا» في كتابه «المنقذ من الضلال» فقال: «إن مجموع ما غلطا فيه من الإلهيات يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهما في ثلاثة منها وتبديعهما في سبعة عشر، أما المسائل الثلاث فقد خالفا فيها كافة الإسلاميين:

الأولى: قالوا بأن الأجساد لا تحشر، وأن المثاب والمعاقب هي الأرواح.

الثانية: قولهم أن الله سبحانه وتعالى يعلم الكليات لا الجزئيات.

الثالثة: قولهم بقدم العالم، واعتقاد هذا كفر صريح. نعوذ بالله تعالى منه.

قال ابن خلكان: ثم إن ابن سينا لما أيس من العافية على ما قيل ترك المداواة واغتسل وتاب، وتصدق بما معه على الفقراء، ورد المظالم على من عرفه، واعتق مماليكه وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة، ثم مات بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان، وقيل مات في السجن.

ما أشبه كثير من المناطقة بالملاحدة والتنويريين:

يعبر شيخ الإسلام عن رأيه في المنطق فيقول: «إني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد»، وقال: «فحقه النافع فطري لا يحتاج إليه، وما يحتاج إليه ليس فيه منفعة إلا معرفة اصطلاحهم وطريقهم أو خطئهم»، وقد بين تأثير المنطق على العقل واللسان وقال: «وما زال نظار المسلمين يعيبون طرق أهل المنطق ويبينون ما فيها من العي واللكنة وقصور العقل وعجز المنطق ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني أقرب منها إلى تقويم ذلك»، وقال: «إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها، وإذا ضاقت العقول

والتصورات بقى صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان كما يصيب أهل المنطق اليوناني، تجده من أضيق الناس علماً وبياناً وأعجزهم تصوراً وتعبيراً، ولهذا من كان منهم ذكياً إذا تصرف في العلوم وسلك مسلك أهل المنطق طول وضيق، وتكلّف وتعسف، وغايته بيان البين وإيضاح الواضح من العي، وقد يوقعه ذلك في أنواع من السفسطة التي عاف الله منها من لم يسلك طريقهم»، فمن سَلِمَ من هؤلاء فلاإستفادته من المسلمين كما يقول ابن تيمية عن ابن سينا: «ومن وجد في بعض كلامه فصاحة وبلاغة كما يوجد في بعض كلام ابن سينا وغيره، فلما استفاده من المسلمين من عقولهم وألسنتهم، وإلا فلو مشى على طريقة سلفه وأعرض عما تعلمه من المسلمين لكان عقله ولسانه يشبه عقولهم وألسنتهم»، وأوضح رحمه الله أن النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدربه ويقويه على العلم، ولكن المنطق لا يصلح أن يكون ميزاناً للحقائق الدينية والعلوم الإلهية، إذ المنطق لابد أن يدور عمله في نطاق محدود وإذا انتقلنا إلى واقعنا اليوم ونظرنا في كلام الملاحدة الشيوعيين، الذين يزعمون العمل من أجل طبقات الشعب الكادح، وكلام المثقفين الذين طُلب منهم توجيه شعب وصفوه بالأمية، لوجدنا كلاماً ومصطلحات، لا يمكن لهذا الشعب فهمها، ولا أدري من الذي أراد تنويره؟!! .

لقد اعوجت ألسنتهم كما انحرفت عقولهم وقلوبهم كنتيجة حتمية لبعدهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والسلوك كما قالوا مرآة الفكر، وكما ورد في الحديث الصحيح: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، ثم ما من نبي إلا وبعثه الله بلسان قومه ليبين لهم، فإذا كان الملاحدة والزنادقة من المثقفين التنويرين بهذه الكيفية من العي وعدم البيان، فهذا من رحمة الله بعباده، وإلا لعظمت البلية بهؤلاء المنحرفين

نقد شيخ الإسلام للصوفية

معني التصوف:

قال الغـزالي: «التصوف هو تجـريد القلب لله تعالى واحتـقار ما سـواه، قال: وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ونقل السخاوي عن السري السقطي أنه سئل عن التصوف فـقال: «هو اسم لثلاثة معان، وهو الذي لا يطفئ نور مـعرفته نور ورعه، ولا يتكلم ببـاطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحـمله الكرامات من الله تعالى على هتك أستار محارم الله تعالى»أ. هـ.

قال ابن تيمية: «إن هذا التعبير عن الزاهد بالصوفي حدث في أثناء المائة الثانية، لأن لباس الصوف كان يكثر في الزهاد، ومن قال: إنه نسبة إلى الصفة التي ينسب إليها كثيرٌ من الصحابة ويقال فيهم أهل الصفة، أو نسبة إلى الصفاء أو الصف الأول، أو صوفة بن مروان بن أدين طانجة، أو صوفة القفا، فهي أقوال ضعيفة»أ. هـ.

ثناؤه علي بعض الصوفية:

أثنى شيخ الإسلام على بعض الصوفية ممن أعتـبر طريقته مقيدة بالكتاب والسنة كالجيلاني والجنيـد، وهذا عدل وانصاف كما حكى سبحـانه عن ذي القرنين عندما بلغ مغرب الشمس فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[الكهف: ٨٦، ٨٧، ٨٨]، وليس من أحسن كمن أساء.

قال عـبد القـادر الجيلاني في كـتابه الفـتح الرباني: «الصوفي من صـفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ».

وقال الجنيد: «الطرق كلـها مسدودة إلا على من اقتـفى الرسول ﷺ، وقال من لم يحـفظ القرآن ولم يكتب الحـديث لا يقتـدى به في هذا العلم، لأن علمنا ومذهبنا مقيد بالكتاب والسنة».

وقال أبو يزيد البسطامي لبعض أصـحابه: «قم حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية»، -وكان رجلاً مشهوراً بالزهد- فمضيا، فلما خرج من بيته ودخل المسجد، رمى ببزاقة تجاه القـبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، فقال:

«هذا الرجل غير مأمون على آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه؟؟»، وقال: «لو نظرتم إلى رجل أعطي الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء فعل الشريعة، وإلا فهي استدراج».

وقال أبو سليمان الداراني: «ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة».

وقال ذو النون المصري: «ومن علامات المحب لله سبحانه متابعة حبيب الله محمد ﷺ في أفعاله أخلاقه وأوامره وسننه».

وقال عبد القادر الجيلاني: «جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله عز وجل، ورسوله ﷺ، ولا يعملون إلا بظاهرهما».

تفنيده لشبهات البعض الآخر من الصوفية:

وصف شيخ الإسلام بعض الصوفية بأنهم موسوية المحمدية وعيسوية المحمدية وذلك لكثرة أوجه الشبه بين اليهود والنصارى[1]، وقد وصف البعض أنهم من ملاحدة الصوفية كابن عربي[2] ولم يمتدح من كتاب الإحياء للغزالي إلا كتاب المهلكات والمنجيات، وهذا من عدله وإنصافه وتمحيصه وتمييزه فيما يتعلق بالأشخاص والدعوات والمقالات والكتب.

ليس ابن تيمية أول من انتقد الغزالي:

دخل الغزالي في بحار الفلسفة، وكاد يهلك مع من هلك لولا أن تداركته رحمة الله، وقال عن نفسه: «بضاعتي في الحديث مزجاة»، وقد انتقد عليه غير واحد من العلماء وشنعوا عليه ما حرره في بعض كتبه، حتى أن القاضي عياض صاحب كتاب «الشفا بمعرفة حقوق المصطفى» أمر بإحراق كتب الغزالي، وصنف البعض «الإملاء في الرد على الإحياء» يقصد كتابه «إحياء علوم الدين»، وهو من أكثر كتب الغزالي شهرة، وقد سماه البعض إماتة علوم الدين، وطالب فريق من

---

١ – كالغلو في الصالحين، واتخاذ الموالد، وصرف العبادة للمقبورين، واتخاذ القبور مساجد، وكعقيدة الحلول والإتحاد الموجودة عند النصارى، وزعمهم أن اللاهوت حل في الناسوت، وكذلك قال بعض الصوفية بحلول الله في مخلوقاته تعالى الله عن قولهم علواً كبير.

٢-(النكرة صاحب الفتوحات المكية، لا ابن العربي الذي هو من أئمة المالكية)

العلماء بإحراقه.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «قد جمعت أغلاط الكتاب وسميته «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»، أشرت إلى بعض ذلك في كتاب «تلبيس إبليس».

وقال سبطه أبو المظفر: «وضعه على مذهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه، فانكروا عليه ما فيه من الأحاديث التي لم تصح»أ. هـ.

فلم يكن ابن تيمية أول من انتقد علي الغزالي وقد روى رحمه الله بعض ما قيل مما كثرت فيه الأقاويل ثم برأه مما نسب إليه، وحكى قول من قال إنها مكذوبة عليه، وأنه توفي وهو لصحيح البخاري ملازم، ونابذ لما صدر منه من تصنيفاته في زمنه المتقادم، قال ابن الألوسي: «على أنه قد جرت عادة العلماء المتقدمين والمتأخرين باعتراض بعضهم على بعض، حتى يتضح الثواب للمنصفين، فاقنع بهذا ولا تكن من المعترضين، وخذه وكن من الشاكرين»أ. هـ.

ولم يكن أول من حمل على منحرفي الصوفية:

لقد تتبع شيخ الإسلام ابن عربي (النكرة) وابن الفارضى وابن سبعين والحلاج وقد أحسن في ذلك ولم يكن أول من حمل على انحرافتهم وإليك بيان ذلك:

١ - ابن عربي (النكرة):

لقد أحسن الأزهر في منعه طبع كتبه كـ: «الفتوحات المكية» بناءً على كلامه المخالف للشريعة المطهرة، وقد نص كثير من العلماء على تكفيره وألفوا في ذلك الرسائل العديدة المطولة والمختصرة، فمنها للعلامة السخاوي، ومنها للتفتازاني، ومنها للملا علي القاري، ومنهم من ذكره في تصنيفاته ولم يؤلف فيه كتاباً مستقلاً كالحافظ ابن حجر العسقلاني، فإنه ذكره في «لسان الميزان»، وحط عليه، ونسب إليه سوء الإعتقاد، وأبي حيان المفسر في تفسيريه «البحر، والنهر»، قال في الشذرات: «ولقد بالغ ابن المقري في «روضه» فحكم بكفر من شك في كفر طائفة ابن عربي»، ونقل الشيخ علي القاري عن ابن دقيق العيد القائل في آخر عمره: «لي أربعون سنة ما تكلمت كلمة إلا وأعددت لها جواباً بين يدي الله تعالى، وقد سألت شيخنا سلطان العلماء العز بن عبد السلام عن ابن عربي فقال: «شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً»»، وقال: «وسُئِل عنه شيخنا العلامة

المحقق الحافظ المفتي المصنف أبو زرعة أحمد ابن شيخنا الحافظ العراقي الشافعي فقال: «لا شك في اشتمال «الفصوص» المشهورة على الكفر الصريح الذي لا يشك فيه، وكذلك «فتوحاته المكية» فإن صح صدور ذلك عنه، واستمر عليه إلى وفاته فهو كافر مخلد في النار بلا شك، وقال: «وكذلك شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، صرح بكفر ابن عربي، وكذا رضى الدين أبو بكر محمد المعروف بابن الخياط، والقاضي شهاب الدين أحمد الناشري الشافعيان، وجملة من العلماء قال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[المائدة: ٧٢]، ما نصه: «ذكر تعالى أن من النصارى من قال: أن المسيح هو الله، ومنهم من قال هو ابن الله، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة، وتقدم أنهم ثلاثة طوائف: ملكانية ويعقوبية ونسطورية، وكل منهم يكفر بعضهم بعضاً، ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تسربل بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية، حلول الله تعالى في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة كالحلاج، والشوزي وابن أحلّي وابن عربي المقيم بدمشق وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سبعين والششتري تلميذه وابن مطرف المقيم بمرسية، والصفار المقتول بغرناطة وابن التاج وابن الحسن المقيم كان بلودقة، ومن رأيناه يرمي بهذا المذهب الملعون العفيف التلمساني وله أشعار كثيرة، وابن عياش المالقي الأسود الأقطع المقيم كان بدمشق وعبد الواحد المؤخر المقيم كان بصعيد مصر والأبلى العجمي الذي كان يتولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر، وأبو يعقوب بن مبشر تلميذ الششتري المقيم كان بحارة زويلة في القاهرة والشريف عبد العزيز المنوفي، وتلميذه عبد الغفار التومي، وإنما سردت أسماء هؤلاء نصحاً لدين الله تعالى يعلم الله تعالى ذلك وشفقة علي ضعفاء المسلمين وليحذروا منهم أشد من الفلاسفة، الذين كذبوا الله ورسوله، ويقولون بقدم العالم، وينكرون البعث، وقد أولع جهلة من ينتمي للتصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله تعالى وأولياؤه، والرد على النصارى والحلولية والقائلين بالوحدة هو من علم أصول الدين»أ. هـ.

فهل يُلام شيخ الإسلام بعد ذلك إذا وصف ابن عربي بأنه من ملاحدة

الصوفية، وأنت ترى كم له سلف في ذلك، وكم له محذر عن تلك المهالك، وهل يتهم أيضاً بأنه من ثالوث التكفير كما فعل أصحاب الطريقة العزمية الصوفية؟! لا أظنهم إن فعلوا سيتهمون المذكورين بذلك؟!.

٢- أبو الحسن الشاذلي:

لما صدر من الشاذلي بعض التعبيرات المخالفة للشرع، وكان الدين لا محاباة فيه، وكل أحد يؤخذ من قوله ويُرد عليه إلا رسول الله ﷺ، وكان العلماء مأمورين برد ما يخالف الشريعة المطهرة، فلعل ابن تيمية تصدى طمعاً بالنصيحة في أثناءتصنيفاته لبيان ما يرد عنده على الشيخ الشاذلي في بعض عبارته، وهو رحمه الله لم ينفرد بذلك، ولو انفرد بذلك فلا عتب عليه في إنكاره المنكرات وردها علي صاحبها كائناً من كان.

قال الذهبي في العبر: «الشاذلي أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي الزاهد شيخ الطائفة الشاذلية، سكن الإسكندرية، وصحبه بها جماعة، وله في التصوف مشكلة توهم ويتكلف له في الإعتذار عنها، وعنه أخذ الشيخ أبو العباس المرسي»أ. هـ.

وقال ابن الوردى في تاريخه: «له عبارات في التصوف مشكلة، رد عليها الشيخ ابن تيمية»، وقد نقل عبد الرؤف المناوي أنه قيل له: من شيخك؟ فقال: «أما فيما مضى فعبد السلام بن مشيش، وأما الآن فإني أسقي من عشرة أبحر: خمسة سماوية وخمسة أرضية»، وقد أخذا على الشاذلي التوسل والأقسام بغير الله وكلمات التصوف في بعض أحزابه.

٣- الحلاج:

قال الذهبي في العبر: «إن الحلاج سافر إلى الهند وتعلم السحر، وحصل له به حال شيطاني وهرب منه الحال الإيماني، ثم بدت منه كفريات أباحت دمه، وكسرت صنمه، واشتبه على الناس السحر بالكرامات، فضل به خلق كثير كدأب من مضى ومن يكون إلى مقتل الدجال، والمعصوم من عصمه الله تعالى»، وقال أيضاً: «قال ناس ساحر، فأصابوا، وقال ناس به مس من جنون، فما أبعدوا، لأن الذي يصدر عن عاقل إذ ذلك موجب حتفه، أو هو كالمصروع أو المصاب الذي

يخبر بالمغيبات، وقال ناس من الأنعام: بل هو رجل عارف ولي الله تعالى، صاحب كرامات فليقل ما شاء، فجهلوا من وجهين: أحدهما أنه ولي، والثاني: أن الولي يقول ما شاء فلن يقول إلا الحق».

وقال السلمي في تاريخ الصوفية: «الحلاج كافر خبيث قُتل في ذي القعدة سنة٣٠٩هـ قد هتك الخطيب حاله في تاريخه، وأوضح أنه كان ساحراً مموهاً سيئ الإعتقاد».

وسُئِل عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني فقال في أثناء إجابته: «... وغالب هؤلاء الصوفية الذين مزجوا التصوف بالفلسفة ومنهم محي الدين بن عربي، وشرف الدين بن الفارض، وكلامهم في الإتحاد ظاهر، ففي كلام ابن عربي في «الفصوص» من ذلك فضائح في «القصيدة التائية» الكبرى لابن الفارض التصريح بالإتحاد والحث عليه، وقد تأول ذلك كثير من أهل العلم وذكروا له وجوهاً من التأويل، ولكن ظاهر كلامهم منابذ لظاهر كلام أهل الشرع»أ.هـ.

ومن أقوال الحلاج: «أنا الحق»، وقوله: «ما في الجبة إلا الله».

ومن أقوال ابن عربي: «العبد رب والرب عبد فإن قلت عبد فذاك رب وإن قلت رب فأنى يكلف!!!».

فهذا بعض ما عناه الحافظ مما يدل على عقيدة الإتحاد عند الصوفية وسقوط التكاليف التي نادى بها بعضهم إلى غير ذلك من تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن وحقيقة وشريعة.

رأى ابن تيمية فى الولاية والأولياء

لما كان ابن تيمية كثير التشدد في سد ذرائع البدع، وثقيل القول على من خالف الشرع المتبع، وغزير الإعتراض على بعض المصنفين المختلط كلامهم بفلسفة المتفلسفين، ظن البعض أنه ينكر كرامات الأولياء، وهذا ظن فاسد، فقد قال في كتابه «الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن» ما نصه:

«فأولياء الله تعالى المتقون هم المهتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما نهِي عنه، ويقتدون به فيما يبين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم الله تعالى بملائكة وروح منه، ويقذف الله تعالى في قلوبهم من أنواره، ولهم

الكرامات التي يكرم الله عز وجل بها أولياؤه المتقين، وخيار أولياء الله تعالى كرامتهم حجة في الدين أو لحاجة في المسلمين مثل ما كانت معجزات نبينا ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله تعالى إنما حصلت ببركة إتباع رسوله ﷺ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ، التي جمعت نحو ألف معجزة، وكرامات أصحابه والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً:

مثل ما كان أسيد بن حُضير يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة، فنزلت تسمع لقراءته وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة وسبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما طرف السوط، فلما افترقا افترق الضوء معهما[1]، وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو برشاء أبيض معلق، فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها، وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد أنه رسول رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله إلى مقصده، وخالد بن الوليد حاصر حصناً فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره، وعمر رضي الله عنه نادى سارية من المنبر والقصة مشهورة.

ومثل ذلك ما جرى لأبي مسلم الخولاني الذي ألقي في النار، فإنه مشى ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال: «هل تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعوا الله تعالى فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال: اتبعني فاتبعه فوجدوها قد تعلقت بشئ فأخذها. . .

وقد ساق رحمه الله الكثير من كرامات الأولياء، وأوضح أن الكرامة ضابطها الإستقامة على كتاب الله وعلى سنة رسوله ﷺ، وأنه لا يغتر بالرجل حتى وإن مشى على الماء أو طار في الهواء، حتى نعرض عمله على السنة، فإن كان موافقاً للشريعة المطهرة فهي كرامة رحمانية وإلا كانت خارقة شيطانية للتلبيس وفتنة الخلق قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

---

(١) رواه البخاري وغيره

رأى ابن تيمية فى التوسل:

قال رحمه الله في كتاب «الإستغاثة» في الرد على ابن السبكي ما نصه:

«وأما قول القائل: إن المتوسـل إنما هو سائل لله تعالى، راج له، عالم أن النفع والضر بيده لا شريك له، وإنما توسل إليه بمن يحبه الله تعالى لشرف منزلته عنده، ليكون أقرب إلى الإجابة، وحصول المراد، كطلب الدعاء من الرجل الصالح.

فيقـال: توسل العبد إلى الله تعالى بما يحب، لفظ مـجمل، فإن أُريد بما يحب الله تعالى أن يتوسـل به إليه فهذا حق، والله تعالى يحب أن يـتوسل إليه بالإيمان والعمل الصـالح، والصلاة والسلام على نبـيه ﷺ ومحـبته وطاعتـه وموالاته، فهذه ونحـوها هي من الأمور التي يحب الله تعالى أن يتـوسل بها إليه، وإن أُريد أنه يتوسل إليـه بما يحب ذاته وإن لم يكن هناك ما يحب الله تعـالى أن يتوسل به فهذا باطل عقلاً وشرعاً. . .

فإن كان منه دعاء لي، أو كـان مني إيمان به وطاعة له فلا ريب أن هذه وسيلة، وأما نفس ذاته المحـبوبة لله تعالـى فأي وسيلة لي فـيها إذا لم يحـصل لي السبب الذي أُمرت به فـيها، ولهـذا لو توسل به من كفر به لـم ينفعه، والمؤمن به ينفـعه الإيمان به وهو أعظم الوسـائل، فتبين أن الوسـيلة بين العبـاد وبين ربهم عز وجل الإيمان بالرسل وطاعتهم، وقول القـائل للرجل: ادع لي، توسل بدعاء الصالحين، وهو من جملة الأسباب النافعة كشفاعة النبي ﷺ.

وأما المشروع فيقال: إن العـبادات مبناها على الاتباع لا الأبتداع وليس لأحد أن يشرع من الدين ما لـم يأذن به الله. . .»، وتكلم على الدعاء وما فيـه من مشروع وغير مشروع إلى أن قال: «فالسعادة والنجاة في الإعتصام بالكتاب والسنة واتباع ما شرع و الدعاء من أجلّ العـبادات فينبغي للإنسان أن يلتـزم الأدعية الشرعيـة، كما يتحرى في سائر عبادته الصورة الشرعية، فإن هذا هو الصراط المستقيم»، وقال في معرض الرد علي ابن السبكى «وأما قوله: إنه يجوز الإستغاثة بالنبيﷺ أو بغيره من الأنبياء والصالحين في كل ما يستغـاث الله عز وجل فيه على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالـى، فهذا قول لم يقله قبله أحـد من علماء المسلمين، ولا من الصحابة والتابعين ولا غيرهم، وقائل هذه العبـارة إما مفتر على الدين، وإما مفتر

على اللغة، ملبس على المسلمين، بل إطلاق القائل القول: بأنه يستغاث بالنبي أو الصالح أو غيرهما في كل ما يستغاث الله تعالى فيه، لا يفهم الناس منه في اللغة التي يعرفونها إلا ما هو كفر صريح، وقوله: على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى، لا يخرج مدلول هذا اللفظ في اللغة المعروفة عن أن يكون كفراً، فإن الإستغاثة بالشخص طلب الغوث منه... وبالجملة فإذا كانت الإستغاثة طلب الإغاثة والتخليص من الكربة والشدة، سواء كان طلب ذلك من المخلوق أو من الخالق، وقد جوز الإسغاثة بمخلوق في كل ما يستغاث الله تعالي فيه، فقد لزم أن يطلب من هذا المخلوق كل ما يطلب من الله عز وجل.

وإن قيل: إنه على معنى الوسيلة، فهذا لا ينجيه فإنه من جوز أن يطلب من المخلوق كل ما يطلب من الله تعالى فهو كافر بإجماع المسلمين، بل ما لا يقدر عليه إلا الله لا يجوز طلبه من المخلوق أصلاً بإجماع المسلمين، ومن طلب من المخلوق غفران الذنوب وهداية القلوب وإنزال المطر وإنبات النبات، والنصر على الأعداء في الدين، فهو كافر برب العالمين، وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[1]

وقد أوضح رحمه الله أنه لا يجوز التوسل بالحرمة والجاه، كما لا يحل الإستغاثة بالمخلوق بأن يطلب منه ما يطلب من الخالق، كما لا يحل أن يطلب من الغائب أو الميت ما يطلب من الحي الحاضر، أما التوسل بأسماء الله وصفاته كقول الرجل يا حي يا قيوم، والتوسل بدعاء الصالحين بمعنى أن يطلب ممن يتوسم فيهم الصلاح أن يدعوا له، والتوسل بالعمل الصالح الذي يتوسم فيه الإخلاص كما في قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وأطبقت عليهم الصخرة فإن هذا يجوز، فراجع كلامه رحمه الله في التوسل والوسيلة حتى تفرق بين ما يحل وما يحرم في هذه المسألة.

(١) الإسراء: ٥٦، ٥٧

قوله في شد الرحال لزيارة القبور

لم يحرم شيخ الإسلام زيارة القبور علـي الوجه المشروع في شئ مما كتبه، ولم ينه عنها ولم يكرهها بل استـحبها وحض عليها، ومصنفـاته ومناسكه طافحة بذكر استحبـاب زيارة قبر النبي ﷺ كما قال ابن الألوسى، قـال شيخ الإسلام: «وقد ذكر بعض المتأخـرين من العلماء أنه لا بأس بالسفر إلا المشاهد واحـتجوا بأن النبي ﷺ كان يأتي قباء كل سـبت راكباً وماشياً، أخرجاه في الصـحيحين، ولا حجة لهم فيه لأن قباء ليس مشهداً بل مسجداً، وهي منهي عن السفر إليها باتفاق الأئمة لأن ذلك ليس بسـفر مشـروع، بل لو سافـر إلى قباء من دويرة أهلـه لم يجز، ولكن لو سافر إلى المـسجد النبوي ثم ذهب منه إلى قبـاء فهذا مسـتحب كزيارة أهل البقيع وشهداء أحد» أ. هـ.

وقال: «وأول من وضع الأحاديث في السفر لزيـارة المشاهد أهل البدع الرافضة ونحوهم الذين يعطلون المسـاجد، ويعظمون المشـاهد، يدعون بيوت الله سبـحانه التي أمر أن يذكر فيها اسمه ويعبد فيها وحده لا شريك له، ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً، فإن الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد لا المشاهـد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف:٢٩]، وغير ذلك من الآيات والله تعالى أعلم» أ. هـ.

وقال رحمه الله: «ومن اعتقد في السفـر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين أنه قربة وطاعة فقد خالف الإجماع، وإذا سافر لاعتقاده أنها طاعة فإن ذلك محرم بإجماع المسلمين فصار التحريم من جهة اتخاذه قربة، ومعلوم أن أحداً لا يسافر إلا لذلك، وأما إذا قدر أن شد الرجال إليها لغرض مباح، فهذا جائز من هذا الباب» أ. هـ.

وقال: «وقد يحتج بعض من لا يعرف الحـديث بالأحاديث المروية في زيارة قبر النبي ﷺ كقوله: **«من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي»** [رواه الدارقطني وابن مـاجه]، وأمـا ما يذكـره بعض الناس من قـوله: «من حج فلم يزرني فقـد جفـاني» فهـذا لم يروه أحدٌ من العلمـاء، وهو مثل قوله: «من زارنـي ضمنت له الجنة»، فإن هذا أيضاً باطل باتفاق العلمـاء، لم يروه أحد ولم يحتج به أحد. . .» إلى أن قال في فتـاواه: «وأما الأولون فإنهم يحتجون بما في الصـحيحين عن النبي

ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلي ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصي، ومسجدى هذا**»، وهذا الحديث اتفقت الأمة على صحته والعمل به، فلو نذر الرجل أن يصلي في مسجد أو مشهد، ويعتكف فيه، أو يسافر إلى غير هذه الثلاثة لم يجب عليه ذلك باتفاق الأئمة، ولو نذر أن يأتي المسجد الحرام لحج أو عمرة وجب عليه ذلك باتفاق العلماء، ولو نذر أن يأتي مسجد النبي ﷺ أو المسجد الأقصى لصلاة أو اعتكاف، وجب عليه الوفاء بهذا النذر عند مالك والشافعي وأحمد، فإنهم يوجبون الوفاء بكل طاعة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه...» الحديث رواه البخاري، وأما السفر إلى بقعة غير المساجد الثلاثة فلم يوجب أحد من العلماء السفر إليها إذا نذره، حتى نص بعض العلماء على أنه لا يسافر إلا مسجد قباء، لأنه ليس من الثلاثة، مع أن مسجد قباء تستحب زيارته لمن كان بالمدينة لأن ذلك ليس بشد رحل كما في الصحيح: «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة» قالوا: ولأن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة والتابعين، ولا أمر بها رسول الله ﷺ، ولا استحبها أحد من أئمة المسلمين فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهذا مخالف للسُّنَّة وإجماع الأمة»أ.هـ.

وهذا النقل يدل على مدى رسوخ قدم شيخ الإسلام، ومدى معرفته بالنصوص وأقوال أهل العلم، ما اتفقوا عليه، وما اختلفوا فيه، كما يدلك على مخالفة عُبَّاد القبور، ومن يشد الرحال إليها، ولذلك ذهب رحمه الله إلى أن زيارة قبر النبي ﷺ، إنما تأتي تبعاً لزيارة مسجده بالمدينة، فشد الرحال للمسجد النبوي مأذون فيه دون القبر، وبالتالي يُسن لمن قدم على مسجده ﷺ أن يصلي فيه أولاً تحية المسجد أو الفريضة إن أدركها ثم يتوجه إلى قبر النبي ﷺ للسلام عليه وعلى صاحبيه رضي الله عنهما إذا كان قادماً من سفره.

رده علي الشيعة والرافضة

ألف شيخ الإسلام كـتابه «منهاج السنة النبوية» رد على كتـاب «منهاج الكرامة» لابن المطهر الحـلي وقد أوضح رحمـه الله أن: «الرافضـة لا تعتني بحـفظ القرآن ومعـرفة مـعانيـه، وتفسيـره، وطلب الأدلة الدالة علي مـعانيه، ولا تعـتني بآثار الصحابة والتـابعين حتى تعرف مآخذهم ومســالكهم بل عدتها آثار تنقل عن بعض آل البيت، فيها صدق وكذب»، وبين غلوهم وتعظيمهم المشاهد وتعطيلهم المساجد فقال في منهـجه: «وكذلك الرافضة غلوا في الرسل بل في الأئمـة حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله، فتركـوا عبادة الله وحده لا شريك لـه التي أمرهم بها الرسل، فتجدهم يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فلا يصلون فيها جمـعة ولا جماعـة، وليس لها عندهم كبـير حرمة، وإن صلوا فـيها صلوا فيـها وحداناً، ويعـظمون المشاهد المـبنية علي القـبور[1]، فيـعكفـون عليهـا مشابـهة للمشركين، ويحجون إليها كما يُحجُ إلى البيت العتيق».

وأشـار إلى اتباع مـتأخـريهم للمعـتزلة فـقـال: «وهم في دينهم لهم عقليـات وشرعيات، فالعقليات متأخروهم فيها أتباع المعتزلة إلا من تفلسف منهم فيكون إما فيلسوفاً وإمـا ممتزجاً من فلسفة وإعتـزال، ويقم إلى ذلك الرفض مثل مصنف هذا الكتاب -أي ابن المطهر الحلي- وتكلم على مـوالاتهم لأعداء الدين فقال: «يوالون أعداء الدين الذين يعرف كل أحد معادتهم من اليهود والنصارى والمشركين، وليس لهم عيش إلا في هدم الإسلام ونقض عراه وإفساد قواعده»، فبداية ظهورهم كانت على يد ابن سبأ اليهـودي مشبوهة، ثم تحالفاتهم مع التتار وغـيرهم معلومة، قال ابن تيمـية: «وكثيـر منهم يواد الكفار من وسط قلبـه أكثر من مـوادته للمسلمين، ولهذا لما أخرج الترك الكفار من جهـة الشرق وقتلوا المسلمين وسفكوا دمائهم ببلاد خُراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهم من الرافضة كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قـتال المسلمـين، وكذلك النصـارى الذين قاتلـوا المسلمين بالشام كـانت الرافضة من أعظم المعاونين لهم، وكذلك لما صار لليهود دولة بالعراق وغيره تكون الرافـضـة من أعظم أعـوانهم فهـم دائماً يوالـون الكفار مـن المشركين واليـهـود

---

١ – لا يخفى عليك أن الشيعة أولاد عم الصوفية في الإعتقاد لا يصلحون لإقامه خلافه على منهاج النبوة وذلك لغلوهم وإنحرافهم عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام .

والنصارى، ويعاونهم على قتال المسلمين ومعادتهم»، وقال رحمه الله: «ومن العجيب أن هذا المصنف الرافضي الكذاب المفتري يذكر أبا بكر وعمر وعثمان وسائر السابقين والتابعين وسائر أئمة المسلمين من أهل العلم والدين بالعظائم التي يفتريها عليهم هو وإخوانه ويجيئ إلى من قد اشتهر عند المسلمين بمحاربته لله ورسوله، يقول عنه: «قال شيخنا الأعظم» ويقول: «قدس الله روحه» مع شهادته عليه بالكفر وعلى أمثاله ومع لعنة طائفة خيار المؤمنين من الأولين والآخرين وهؤلاء داخلون في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]»، وبيّن تناقض الشيعة وعصبيتهم فقال: ثم من جهل الرافضة أنهم يعظمون أنساب الأنبياء، آبائهم وأبنائهم ويقدحون في أزواجهم، كل ذلك عصبية واتباع للهوى، حتى يعظمون فاطمة والحسن والحسين ويقدحون في عائشة أمُ المؤمنين»، وقال: «كلام الرافضة من جنس كلام المشركين في الجاهلية يتعصبون للنسب والآباء لا الدين، ويعيبون الإنسان بما لا ينقص إيمانه وتقواه، وكل هذا من فعل الجاهلية»، أما الآيات والأحاديث التي استدل بها ابن المطهر الحلي على إمامة على رضي الله عنه وفي مناقب أئمة أهل البيت، فقد أوضح ابن تيمية أن معظم هذه الروايات إما لا علاقة لها بآل البيت بتاتاً أو أنها تتناقض مع المعني التي يريد أن يثبتها منها، كما أن أكثرها ضعيفة وموضوعة، وقد نسب ابن المطهر كثيراً من هذه الروايات إلى الصحيحين ومسند الإمام أحمد، وأثبت ابن تيمية أنها لا توجد لا في الصحيحين ولا في المسند بل بعضها موضوع، وقد أثبت تناقضهم في علي رضي الله عنه، حيث جعلوه هو الذي أقام دين الرسول، ثم قهره الصحابة وبغوا عليه واستلبوا الخلافة منه كما يزعمون، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «فمن كان مشركاً لله في إقامة دين محمد ﷺ حتى قهر الكفار وأسلم الناس، وكيف لا يفعل هذا في قهر طائفة بغوا عليه هم أقل من الكفار الموجودين عند بعثة الرسول، وأقل منهم شوكة وأقرب إلى الحق منهم»، أما الأدلة التي يستدلون بها على إثبات الإمامية عقلاً ونقلاً، ولا سيما عقيدة الإمام الغائب فقد استهزأ بها وأثبت أن هذه العقيدة لا تثمر سوى الفساد والخلاف والبطالة والتعطيل وتفسير القرآن عند الشيعة هو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة والباطنية بل هو شر من كثير منه كما قال ابن تيمية.

موقف ابن تيمية من قضية التأويل

التأويل فى كلام السلف له معنيان:

١- التأويل بمعنى التفسير كما في تفسير الطبري وغيره: «القول في تأويل قوله تعالى كذا» أي تفسير الآية.

٢- الحقيقة التى يصير إليها الشئ كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾[١]، أي تحقيقها وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾[٢]، أي تحقيقه ووقوعه.

أما صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى إحتمال مرجوح لقرينة فهو بهذا المعنى تحريف للكلم عن مواضعه كما قرر شيخ الإسلام، وقد نفى ابن تيمية سنداً ومتناً دعوى أن الإمام أحمد استثنى ثلاثة أحاديث وقال لابد من تأويلها، فهي فرية عليه افتراها الغزالي في كتابه «الإحياء، وفيصل التفرقة»، وقد حمل شيخ الرسلام علي الباطنية والرافضة والمعتزلةوالأشاعرة وكل من صرف النصوص عن ظواهرها، واعتقد خلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام فيما يتعلق بمعاني الصفات وغيرها من قضايا الإيمان، فسبيل التلقي في ذلك هو الكتاب والسنة على طريقة السلف، فنؤمن بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تحريف، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وليس العقل وعلم الكلام والفلسفة مصدراً في معرفة ذلك، ولا يجوز تشبيه الله بخلقه ولا تعطيل صفة من صفاته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤]، والكف عن التأويل في هذا الباب[٥]، هو إجماع السلف لا تجوز مخالفته إذ اجماعهم حجة على من بعدهم، وطريقتهم أسلم وأعلم وأحكم، والتأويل بدعة وليس من عقيدة أهل السنة والجماعة والكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات فكما أن إثبات ذات الرب إثبات وجود، لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف، والسلف يثبتون الصفة دالة علي معناها، مع تفويض الكيفية إلى

---

(١) يوسف: ١٠٠ (٢) الأعراف: ١٥٣

(٣) الإخلاص: ٤ (٤) الشورى: ١١

(٥) التأويل فى الصفحات كقول البعض: استوى بمعنى استولى واليد بمعنى القدرة والنزول بمعنى نزول الأمر !!.

الله تعالى، فتفويض السلف، تفويض كيف لا تفويض معنى، ومن نسب إليهم تفويض المعنى وأن آيات الصفات من المتشابه بمعنى أنه لا يُعلم معناها بالكلية، وأن ظاهرها غير مراد فقد جمع بين التعطيل والجهل بعقيدة السلف.

وقد قالت الأشاعرة إن تأويل آيات الصفات واجب يقتضيه التنزيه، أما تأويل آيات الحشر والأحكام فهو كفر يخرج من الملة، واعتبروا من أنكر علو الله على خلقه موحد منزه!! وأن العقل يقدم علي النقل عند التعارض، بل العقل هو الأصل والنقل إن وافقه قُبل وإن خالفه رُد أو أُول، واعتبروا لله سبع صفات يسمونها «صفات المعاني» ولم يكتفوا بهذا التحكم المحض، بل قالوا: إن له سبع صفات أخري يسمونها معنوية، ثم لم يأتوا في التفريق بين المعاني والمعنوية بما يستسيغه عقل، وهذه بعض صور تناقضهم مع أصولهم ومكابرتهم للعقل السليم، ومن أراد الإستزادة والتفصيل فليرجع إلى التسعينية لشيخ الإسلام، وقد نقد الحافظ في الفتح الأشاعرة باسمهم الصريح وخالفهم فيما هو من خصائص مذهبهم كمسألة الإيمان، والمعرفة، وأول واجب. ونقد شيخهم في التأويل «ابن فورك» وذم التأويل والمنطق مرجحاً منهج الثلاثة قرون الأولى... والحافظ أقرب شئ إلى عقيدة مفوضة الحنابلة كأبي يعلى ونحوه ممن ذكرهم شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل» ووصفهم بمحبة الآثار والتمسك بها لكنهم وافقوا بعض أصول المتكلمين وتابعوهم ظانين صحتها عن حسن نية، وقد كان من الحنابل من ذهب إلى أبعد من هذا كابن الجوزي وابن عقيل وابن الزاغوني، ومع ذلك فهؤلاء كانوا أعداء ألداء للأشاعرة، ولا يجوز بحال أن يعتبروا أشاعرة.

وقد يكون المتأول مجتهد مخطئاً فيعذر، وقد يكون متعسفاً فلا يعذر، فلا بد من الكشف عن حاله وتصحيح فهمه قبل الحكم عليه، ولهذا كان من مذهب السلف عدم التأول حتى تقام عليه الحجة، ومثل هذا من أوّل بعض الصفات عن حسن نية متأولاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، فهو مأول متأول ولا يكفر، ولهذا لم يطلق السلف تكفير المخالفين في الصفات أو غيرها لأن بعضهم أو كثيرٌ منهم متأولون، أما الباطنية فلا شك في كفرهم لأن تأويلهم ليس له أي شبهة بل أرادوا هدم الإسلام عمداً بدليل أنهم لم يكتفوا بتأويل الأمور الاعتقادية بل أولوا الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج...

(١) الشورى: ١١

فمـذهب السلف وشيـخ الإسلام ابن تيمـية لا تأويل فـيه لنص من الـنصوص الشرعية إطلاقاً ولا يوجد نص واحـد لا في الصفات ولا غيرها اضطر السلف إلى تأويله، وكل الآيات والأحاديث التي ذكـرها المؤلون تحمل في نفسهـا ما يدل على المعنى الصحـيح الذي فهمـه السلف منها، والذي يدل علي تنـزيه الله تعالى دون أدنى حاجة إلى التأويل.

الموقف من العلماء

الذين قالوا ببعض البدع أو بالأقوال الباطلة

لا يختلف أهل السنة على عدم ذم من اجتهد فأخطأ كائناً ما كان خطؤه، ممن هو معروف بالخير والصلاح كالصحابة رضي الله عنهم، ولأئمة الأعلام كالأربعة، وأئمة أهل الحديث، ومن سار على نهجهم ولهم في الأمة الذكر الجميل، والثناء الحسن، ولا يستوي عندهم من قضى عمره في العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله الحق ونصرة السُّنّة وأهلها وبذل النفوس والأوقات والأموال في سبيل الله، وتحمل المشاق في سبيل الله، لا يستوي هؤلاء ومن قضى عمره في الصد عن سبيل الله ومحاربة السنة ونشر البدعة، والانتداب لنصرة الباطل، والتعصب الممقوت، كالجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، وبشر بن المريسي وغيلان القدري، فهؤلاء عرفوا بالبدعة وكونهم من رؤوسها ودعاتها، ولم يكن لهم في العلم حظو نصيب، بل ما حصلوا ما يؤهلهم أن يكونوا من طلابه، لذا كان وقوعهم في البدعة من جراء تقصيرهم، ولما ناظرهم العلماء وبينوا لهم الحق كان منهم الإعراض بسبب ترأسهم بغير استحقاق وتصديهم بغير تأهيل، فكيف يستوون مع من كانت جُل اقوالهم وأعمالهم مطابقة للحق، فنقول في حق هؤلاء العلماء: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث» فلابد من إعمال ميزان الحسنات والسيئات، ولابد أيضاً من النظرة المتوازنة، التي ترى الحسنات والسيئات معاً وتزن كل الأقوال بميزان الشريعة وتزن أصحابها بما عندهم من الخير والشر معاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأهل السنة متفقون على أن المعروفون بالخير كالصحابة، وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لا يفسق أحد منهم فضلاً عن أن يكفر، وأيضاً فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل واتفقوا على عدم التكفير بذلك مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة، وأنكر بعضهم رؤية محمد ﷺ ربه، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف، وكذلك لبعضهم في قتال بعض، ولعن بعض، وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة وكان القاضي شُريح يُنكِر قراءة

من قرأ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾[1]، ويقول: إن الله لا يعجب فبلغ ذلك ابراهيم النخعي فقال: «إن شُريح شاعر يعجبه علمه، كان عبد الله أفقه منه فكان يقول: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ فهذا قد أنكر قراءة ثابتة، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنة، واتفقت الأمة علي أنه إمام من الأئمة، وكذلك بعض السلف، أنكر بعضهم حروف من القرآن مثل إنكار بعضهم قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، وقال إنما هي «أولم يتبين الذين آمنوا»، وإنكار الآخر قراءة قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[3]، وقال إنما هي: «ووصى ربك»، وبعضهم كان يحذف المعوذتين، وآخر يكتب سورة القنوت، وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر»[4] أ. هـ.

ومن هذا النقل يتضح لك الموقف من علماء السلف الأفاضل الذين وقعت منهم زلات، وأنه لابد أن نعرف لهم فضلهم ومنزلتهم وأن نترحم ونترضى عنهم للخير العظيم، الذي اشتهروا به وعاشوا وماتوا عليه، ونعرف خطأ هذه الأقوال -كالتأويل لآيات الصفات والقول بفناء النار- وبدعيتها دون أن يستلزم ذلك تبديع المعين.

ومن خلال هذا النقل وغيره، تدرك مدي غلو صاحب الطريقة العزمية ومن كان على شاكلته، ممن نسب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والشيخ محمد بن عبد الوهاب، إلى أنهم ثالوث التكفير، فابن القيم وابن عبد الوهاب على قول شيخ الإسلام ابن تيمية في مسائل الأصول والعقائد وعدم نسبة الشخص المعين إلي تفسيق أو تبديع أو تكفير إلا بعد قيام الحجة الرسالية التي يفسق أو يبدع أو يكفر مخالفها، وهذه الحجة يقيمها عالم أو ذو سلطان مطاع، بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير، ويحيى من حيٍّ عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة، واعتذروا عمن واقع ذلك بأنه احتمال أن يكون قد نشأ ببادية بعيدة، أو عُرضت له شبهات يعذره الله بها أو كان عنده تأويل يمنع تكفيره، وأقوالهم كثيرة في هذا المعنى، فخذها وكن من المنصفين، واسلك طريق العلماء العاملين الذين علموا الحق وبه كانوا يعدلون.

---

(١) الصافات : ١٢
(٢) الرعد : ٣١
(٣) الإسراء : ٢٣
(٤) (الفتاوي ١٢/٤٩٢،٤٩٣)

الصراع المنهجى العقائدى

(الأيدلوجى)

الصراع مع اليهود في فلسطين صراع عـقائدي، وكذلك ما يحدث بين المسلمين والهندوس في الهند، وبين المسلمين والملاحدة في الشيـشان، وما يدور في بورما، وكشميـر، هو من جملة الصراع العقائدي، وما يـحدث بين الأفراد والأحزاب في البلد الواحد: ليبرالية، وشيوعيـة، وقومية، ووطنية، تشمله دائرة الصراع المنهجي العقـائدي، حتى وإن ظهـر صورة دوافع مصلحـية وترتب على ذلك اسـتلام المال والبترول، أو السـيطرة علي البلاد والعباد، فنسـيان العقائد المحركـة وهم وخيال، وكما قالوا: «السلوك مرآة الفكر».

قال تعـالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾(١)، وقال: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾(٢)، وقال: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾(٣)، وقال: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾(٤)، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(٥).

والآيات في هذا المعنى كـثيـرة ولا ينبئـك مثل خـبيـر، فإذا انـتقلنا إلي دائرة الإسـلام وجدنا صـورة قريبـة مما يحـدث من صراع بين طوائف اليـهود، وفـرق النصارى -بروتستانت، وكاثوليك، وأرثوزكس-.

---

(١) البقرة: ٢٥١
(٢) الحج: ٤٠
(٣) الأنبياء: ١٨
(٤) الرعد: ١٧
(٥) البقرة: ٢١٤

يقول النبي ﷺ: **«إن أهل الكتاب افترقوا فى دينهم علي اثنتين وسبعين ملة، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة -يعنى الأهواء- كلها فى النار إلا واحدة وهي الجماعة»** (١)ونحن لا نجعل المسلم كالكافر: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٢).

فالكافر يبغض وإن أعطاك ومنحك، والمسلم يُحب وإن ظلمك وجار عليك كما يقول ابن تيمية، والخلاف في النهاية شر كله، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وقد رأينا كيف انجر الشر والأذى على شيخ الإسلام من مخالفيه من الأشاعرة والصوفية، حتى حُبس مراتَ رحمه اللّه بل ومات في سجنه، فالصراع دائر بين الإيمان والكفر، والسنة والبدعة، والحق والباطل، في كل عصر ووقت، والواجب على أهل السُنَّة أن يكونوا يداً واحدة، ولكن لقصور من البعض وعجز من البعض الآخر، كان هذا التفريق فالواجب علينا أن نكون علي مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام، وأن يسعنا ما وسعهم، والناظر في واقع الدعوات المعاصرة، سيجد أنها متفاوتة فيما بينها قرباً، وبعداً من هذا الضابط والميزان، فبعضها قريب من أصول الفرق النارية، وبعضها الآخر أقرب إلى أصول أهل السنة والجماعة، والواجب علينا أن نتعاون مع أقرب الناس إلي الحق وقد بين الشاطبي رحمه الله في الاعتصام ضابط الحكم على تجمع معين أنه من الفرق الضالة فقال: «وذلك أن هذه الفرق إنما تعد فرقاً بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة لا في جزئ من الجزئيات، إذ الجزئي والفرعي الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية... إلى قوله: ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة»(٣).

إن العمل لدين الله ومحاولة استئناف الحياة الإسلامية وفق كتاب الله وسنة

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى. وفى رواية الترمذى: قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «وما أنا وأصحابى»

(٢) القلم: ٣٥، ٣٦.

(٣) «الإعتصام (٢/٢٠٠)»

رسول الله ﷺ يتطلب إيجاد الشخصية الإسلامية، التي تُحَسن الاستنان بسنن الأنبياء والمرسلين، وعندها من علو الهمة والتربية الإيمانية والبصيرة مايجعلهاتناطح السحاب وتحسن المسير إلى ربها، وهي صفات توافرت في قلة من البشر، وشيخ الإسلام ابن تيمية واحد من هؤلاء الأفاضل، فعلينا بمطالعة سيرته ومنهجه، وخصوصاً في وقت نعاني فيه معاني الغربة والضياع، وقد كثرت المستجدات، وصرنا كاليتيم علي موائد اللئام والبعض يشكو غياب القيادة الحكيمة الواعية، فإن لم يكن الأتقياء سادة والفقهاء قادة، فمن يكون سادة وقادة الخلق بعد الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن التطور الذي ننشده لا ينفصل عن العمل بالكتاب والسنة، والتجديد الذي نطلبه ليس معناه الابتداع واستيراد النحل الباطلة والنظم الفاجرة، وليس معنى التقدم والتحضر أن تنسى ماضي هذه الأمة أو أن ننسلخ عما كان عليه سلفنا الصالح من علم نافع وعمل صالح، وأن نعلم أن الرجوع للعلماء العاملين في فهم الدين والعمل به ليس تعصباً على حساب الحق، وليس بديلاً عن دعوة الإسلام ولا أن غيره يصلح بديلاً عنه، فمن أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر وهم أهل البدع كما قال ابن المبارك رحمه الله

أصول ابن تيمية الفقهية

أولاً: مكانة النص في الإستدلال عند ابن تيمية:

يصح أن يقال عن مدرسة ابن تيمية أنها مدرسة النص، فهو يدور مع النصوص حيث دارت، يفتي بموجبها ولا يلتفت إلى ما خالفها، والنص عنده رحمه الله: «يراد به تارة: ألفاظ الكتاب والسنة سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة، وهذا هو المراد من قول من قال: «النصوص تتناول أحكام المكلفين»، ويراد بالنص ما دلالته قطعية لا تحتمل النقيض كقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[1]، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[2]، فالكتاب هو النص، والميزان هو العدل» [3]

وأكد ابن تيمية أن نصوص الكتاب والسنة شاملة لعامة أحكام الأفعال، وأن من طلب ما يفصل في النزاع في عامة مسائل النزاع بين المسلمين من نصوص الكتاب والسنة وجد ذلك.

ثانياً: علاقة النص بالإجماع:

وانعقاد الإجماع على خلاف النص لا يثبت عنده إلا ومع الإجماع نص ناسخ يعلم منه أنه ناسخ للنص الأول، والإجماع لا ينسخ النص، ويقول ابن تيمية: «ولا يجوز نسخ ما شرعه الرسول بإجماع أحد بعده كما يظن طائفة من الغالطين، بل كل ما أجمع عليه المسلمون فلا يكون إلا موافقاً لما جاء به الرسول لا مخالفاً، وكل نص منسوخ بإجماع الأمة فمع الأمة النص الناسخ له، تحفظ الأمة النص الناسخ كما تحفظ النص المنسوخ، وحفظ النص الناسخ أهم عندها وأوجب من حفظ النص المنسوخ».

وقال: «لكن استقرأنا موارد الإجماع فوجدناها كلها منصوصة، وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة».

وقال: «وأما مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلي ولا خفي فهذا ما لا أعرفه».

---

(١) البقرة: ١٩٦

(٢) الشورى: ١٧

(٣) «مجموع الفتاوى (٢٨٨/١٩)».

وهو يقدم النص على الإجماع، فيقول فهذا الإجماع وإن جاز الاحتجاج به فلا يجوز أن تدفع النصوص المعلومة به، لأن هذا حجة ظنية لا يجزم الإنسان بصحتها، فإنه لا يجزم بإنتفاء المخالف، وحيث قطع بانتفاء المخالف فالإجماع قطعي، وأما إذا كان يظن عدمه ولا يقطع به فهو حجة ظنية، والظن هو أقوى منه، فمتى كان الظن لدلالة النص أقوى من ظنه بثبوت الإجماع قدم دلالة النص، ومتى كان ظنه للإجماع أقوى قدم هذا. . . » (1).

وقال رحمه الله: «إن أقوال بعض الأئمة كالفقهاء الأربعة وغيرهم ليست حجةلازمة، ولا إجماعاً باتفاق المسلمين، بل قد ثبت أنهم نهوا الناس عن تقليدهم إذا رأوا قولاً في الكتاب والسُّنَّة أقوى مما قالوا به، بل إنهم أمروا أن يأخذوا بما دل عليه الكتاب والسُّنَّة» (2)

ثالثاً: العلاقة بين النص والقياس:

كل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد عند ابن تيمية، والنص عنده مقدم علي القياس، يقول ابن تيمية: «والقياس الصحيح من باب العدل، فإنه تسوية بين المتماثلين، وتفريق بين المختلفين، ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد، ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً، كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح»(3)

وهو لا يقبل رد النصوص والأحكام المجمع عليها بالقياس كما يرفض استخدام عبارة: «هذا خلاف القياس» في مواجهة النص والإجماع.

قال رحمه الله: «وحيث علمنا أن النص جاء بخلاف القياس، علمنا قطعاً أنه قياس فاسد، بمعنى أن صورة النص امتازت عن تلك الصور التي يظن أنها مثلها بوصف أوجب تخصيص الشارع لها بذلك الحكم، فليس في الشريعة ما يخالف قياساً صحيحاً، لكن فيها ما يخالف القياس الفاسد، وإن كان من الناس من لا يعلم فساده» (4)

(1) «مجموع الفتاوى (١٩/٢٦٨)».
(2) «مجموع الفتاوى (٢٠/١٠)».
(3) «مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٩٩، ٢٨٩)».
(4) «مجموع الفتاوى (٢٠/٥٠٥)».

وهكذا فأنت ترى أن ابن تيمية لا يُسلِّم وجود إجماع أو قياس صحيح على خلاف النص، ولهذا خالف بعض الفقهاء في بعض المسائل كلزوم الطلاق الثلاث. . .

فالنص «قرآناً وسُنَّة» هو الحق الذي لا باطل فيه وذلك بخلاف غيره، ولذلك قدمه على ما سواه في الإستدلال، مع اقراره حجية القياس والإجماع الصحيح.

رأى شيخ الإسلام فى الإستصحاب

يقول شيخ الإسلام في رسالة «المعجزات والكرامات» صـ ٢١ عن الإستصحاب: «وهو: «البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع»، وهو حجة على عدم الإعتقاد بالإتفاق، وهل هو حجة في إعتقاد العدم؟ فيه قولان»أ. هـ.

فالمجتهد إذا عرضت عليه مسألة، ولم يجد نصاً من الكتاب أو السنة أو دليلاً شرعياً آخر يبين حكمها الشرعي بالإباحة أو التحريم، كان عليه أن يحكم بالإباحة بناءً علي أن الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما حرم شرعاً، وهذه الأباحة هي الحال التي خلق الله عليها ما في الأرض جميعاً، فما دام لم يقم لديه دليل على تغيير هذه الحال، يجب أن يكون الحكم باقياً على الإباحة الأصلية، فالأصل بقاء ما كان على ما كان حتي يثبت ما يغيره، والإستصحاب في الواقع هو الإستبقاء لدلالة الدليل الذي ثبت به الحكم، وقد اعترض ابن القيم رحمه الله على من تكلم عن الإستصحاب وحمَّله فوق ما يستحقه، وجزمهم بموجبه لعدم علمهم بتغير الحال، مع أنه ليس عدم العلم علماً بالعدم، ونقل قول الأكثرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، إلى أنه يصلح لإبقاء الأمر علي ما كان عليه لأنه إذا غلب على الظن انتفاء الناقل -أي: المغير للحال الأولى- غلب على الظن بقاء الأمر على ما كان عليه»[1]أ. هـ.

موقفه من المصالح المرسلة:

المقصود بالمصالح المرسلة أي: التي لا يشهد لها أصل من أصول الشريعة لا بالإعتبار ولا بالإلغاء، أو بمعنى آخر:

أنها المصالح التي يرجع معناها إلى اعتبار أمر مناسب لا يشهد له أصل من الشارع معين، وبالتالي فهي غير مقيدة بنص من الشارع يدعوا إلى إعتبارها أو عدم

١- راجع «أعلام الموقعين عن رب العالمين» للإمام ابن قيم الجوزية (٢٩٤/١، ٢٩٥).

إعتبـارها، ويكون في إعتبارها مع ذلك جلب نفع أو دفع ضر، والمالكيـة هم أكثر الفقهاء أخذاً بهذا الأصل المختلف فيه من أصول الأحكام الفقهية.

وقد اشترط من أخذ بهذا الأصل ثلاثة شروط لابد من توافرها للعمل به:

١- أن يكون ذلك في مسـائل المعاملات لا العـبادات، لأن العبـادات توقيفـية تؤخذ دون زيادة أو نقصان، أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة إذا روعيت ضوابطها الكلية مثل لا ضرر ولا ضرار...

٢- ألا تعارض هذه المصالح مـقصداً من مقاصد الشريعـة، ولا دليل من أدلتها المعروفة.

٣- أن تكون المصلحة حقيقية ضرورية للمـجتمع، أو أن يكون فيها تحصيل نفع أو دفع ضر حقيقي.

وقد ذكر شيـخ الإسلام ابن تيمية أن الطريق السابع من طرق الأحكام الـشرعية هي المصالح المـرسلة، وهو أن يرى المجتهـد أن هذا الفعل يجلب منفـعة راجـحة وليس في الشرع ما ينفـيه، فهذا الطريق فيـه خلاف مستهـور، فالفقهاء يسـمونها المصالح المرُسلة، ومنهم من يسميه الرأي، وبعضهم يقرب إليها الإستحسان وقال: «لكن بعض الناس يخص المـصالح المرسلة بحـفظ النفـوس والأموال والأعـراض والعـقـول والأديان، وليس كـذلك، بل المصـالح المرسلة في جلـب المنافع ودفع المضار، ومـا ذكره من دفع المضار عن هذه الأمـور الخمسة فـهو أحد القـسمين»، وقـال: «وجلب المنفـعة يكون في الـدنيا و في الدين، فـفي الدنيـا كـالمعامـلات والأعمال التي يقال فـيها مصلحة للخلق من غير حـظ شرعي، وفي الدين ككثير من المعارف والأحـوال والعبادات والزهديات التي يقال فـيها مصلحـة للإنسان من غير منع شرعي، من قـصر المصالح على العقوبات التي فيـها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم، فقد قصـر»، ودعا إلى التثبت والحيطة في الأخذ بالمصالح فقـال: «وهذا فصل عظيم ينبـغي الإهتمـام به، فإنه من جـهته حـصل في الدين اضطراب عظيم، وكثـير من الأمراء والعلماء العبـاد رأوا مصالح فاستـعملوها بناءً على هذا الأصل، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه...

وكثير منهم من أهمل مصالح يجب إعتبارها شرعاً، بناءً على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات ووقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه.

وحجة الفريق الأول: أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح، بل قد دل الكتاب والسُّنَّة والإجماع علي إعتبارها.

وحجة الفريق الثاني: أن هذا أمر لم يرد به الشرع نصاً ولا قياساً.

وقال: والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة، بل الله تعالى قد أكمل الدين وأتم النعمة، فما من شئ يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك. لكن ما اعتقده العقل مصلحة، إن كان الشرع لم يرد به فأحد أمرين لازم له: إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر، وإما أنه ليس بمصلحة واعتقده مصلحة، لأن المصالح هي المنافع الحاصلة أو الغالبة، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشئ ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة عن المضرة، وكما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وهكذا فانت ترى من تتبع كلام ابن تيمية رحمه الله أن مرجعه الأول والأخير، هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(١) البقرة : ٢١٩

حثه للتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل

قال رحمـه الله في وصف أهل السنة والجماعة: «ويأمرون بالصـبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضـا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخـلاق ومحاسن الأعمال، ويعتـقدون معنى قوله ﷺ **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**[1]، ويندبون إلى أن تصـل من قطعك وتعطي من حـرمك وتـعـفـوا عن من ظلمك، ويأمرون بـبر الوالودين وصلة الأرحـام، وحسن الجـوار، والإحسان إلـي الأيتام، والمساكين، وابن الـسبيل، والرفق بالمملـوك، وينهون عن الفخـر والخيـلاء والبغي والإستطالة علي الخلق بحق أو بغـير حق، ويأمرون بمعالي الأخـلاق، وينهون عن سفاسـفها، وكل ما يقولونه ويفعلونـه من هذا أو غيره، فإنما هم متبـعون الكتاب والسُّنَّة، وطريقـتهم هي دين الإسلام الـذي بعث الله به محمـداً ﷺ، لكن لما أخبر ﷺأن أمته ستفتـرق علي ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجـماعـة وفي حديث عنهﷺ أنه قـال: **«هم من كـان علي مـثل مـا أنا عليـه وأصحابي»** صار المستمسـكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السُّنَّة والجماعة، وفيهم الصديقون والشـهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولوا المناقب المأثورة، والفـضائل المذكـورة، وفيهم الأبدال، ومنـهم الأئمة الذين أجمع المسلمون علي هدايتهم ودرايتهم، وهم الطائفة المنصورة التي قال فيهم النبي ﷺ : **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علي الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتي تقوم الساعة»**[2].

فنسأل الله العظيم، أن يجـعلنا منهم، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، والحمد لله رب العالمين.

---

١ – صحيح رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذى، وابن حبان.
٢ – رواه البخارى ومسلم.

رأيه في تكفير المعين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأهل السُّنَّة متفقون على أن المعروفين بالخير كالصحابة المعروفين وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لا يفسق أحد مكنهم فضلاً عن أن يكفر، وأيضاً فإن السلف أخطأ كثيراً منهم في كثير من هذه المسائل واتفقوا على عدم التكفير بذلك»، وذكر بعض الأخطاء إلى أن قال: «وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر»أ. هـ.[1]، وقال: «قد ثبت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه بل لا يفسق ولا يأثم»[2]

قال ابن تيمية رحمه الله: «ومما ينبغي أن يُعلم في هذا الموضوع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد علي شخص في الدنيا إما بقتل أو جلد أو غير ذلك، ويكون في الآخرة غير معذب مثل قتال البغاة والمتأولين مع بقائهم علي العدالة ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة فإنا نقيم الحد عليه مع ذلك كما أقامه النبي ﷺ على ماعز بن مالك، وعلي الغامدية مع قوله لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ومثل إقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولاً مع العلم بأنه باق على العدالة بخلاف من لا تأويل له»[3]أ. هـ

تنبيه هام جداً يتعلق بتكفير المعين:

قد يكون القول كفراً أو يطلق القول بتكفير قائله، فيقال من فعل كذا فهو كافر ومن قال كذا فهو كافر أما الشخص المعين فلا يكفر حتي تقام عليه الحجة الرسالية، بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير، وهذه الحجة يقيمها عالم أو ذو سلطان مطاع، فلعل هذا الشخص حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة أو عرضت له شبهات يعذره الله بها أو عنده تأويل يمنع تكفيره كما قال النووي، وابن تيمية وغيرهم من العلماء، وإذا كات الحدود تدرأ بالشبهات كما في قصة النوبيه التي زنت مع مرعوش بدرهمين ولم يقم عمر رضي الله عنه الحد عليها لما رآها تستهل بزناها وقال له عثمان رضي الله عنه «ليس الحد إلا على من علم» أقول إذا

(١) «الفتاوى (١٢/ ٤٩٢، ٤٩٣» .
(٢) الفتاوى (١٢/ ٢٩٥) «.
(٣) «الفتاوى (١٢/ ٤٩٨)»

كان الأمر كذلك فأولى ثم أولى أن نحتاط في أمر التكفير وخصوصاً مع غربة الحال وانحراف الأوضاع.

وقد كان الإمام أحمد يقول لقضاة وعلماء الجهمية: «أنا لو قلت قولكم لكفرت ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جهال»، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول: «أنا لو رأيت الرجل يسجد عند قبر عبد القادر الجيلاني أو السيد البدوي لم أكفره حتى تقام عليه الحجة الرسالية، التي يكفر مخالفها» إن الناس قد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قياماً يتأكد معه أن يحيى من حيى عن بينة وأن يهلك من هلك أيضاً عن بينة ثم المعلوم من الدين ضرورة يتفاوت زماناً ومكاناً وشخصاً، ولذلك لابد من حيطة وحذر، فمن قال لأخيه ياكافر فقد باء بها أحدهما إن كان ذلك وإلا حار عليه كما جاء في الحديث الصحيح، وقد كان مالك رحمه الله يقول: «لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهاً واحتمل الإيمان من وجه لحملته علي الإيمان تحسيناً للظن بالمسلم».

التفسير عند شيخ الإسلام ابن تيمية

ذكر الحافظ ابن عبد الهادي في العقود الدرية: أن شيخ الإسلام كتب نقول السلف مجردة عن الإستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالإستدلال، وكان يفسر سور وآيات ويقول في بعضها: «كتبته للتذكرة»، ونحو ذلك، ثم لما طلب منه أن يكتب في جميع القران تفسيراً مرتباً على السور، كتب يقول: «إن القرآن فيه ما هو بيِّن بنفيه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أُشكل تفسيرها علي جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ويفسر غيره بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معنى نظائرها».

وقال: «قد فتح الله عليَّ في هذه المرة -أي: من مرات الحبس- من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثيراً من العلماء يتمنونها، وندمت علي تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن أو نحو هذا»، وقد كتب شيخ الإسلام مقدمة قيمة في أصول التفسير ومن طالع مجموع الفتاوى وغيره من كتبه، وجد الكثير من تفسير الآيات الكريمة ومعانيها.

وقد أوضح شيخ الإسلام مبلغ عناية الصحابة والتابعين بمعاني القرآن وأن الرسول ﷺ بيَّن لهم هذه المعني كما بلغهم ألفاظه ونصه الكريم، فإن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١)، يتناول هذا وهذا، وكانت طريقتهم في تعلم القرآن هي السبب في بلوغهم درجة معرفة معانيه، فقد قال أبو عبد الرحمن السُلَّمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، وأنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وقالوا: فتعلمنا القرآن العلم والعمل جميعاً ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

(١) النحل : ٤٤

أصوله في التفسير:

١- تفسير القرآن بالقرآن، وهي أحسن طرق التفسير وأعلاها مرتبة، فإن ما أُجمِلَ في مكان قد فُسِرَ في موضع آخر، وما أُختصِرَ في مكان قد بُسِطَ في موضع آخر.

٢- تفسير القرآن بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١) ولهذا قال الرسول ﷺ: **«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»** يعني السُنَّة.

٣- المرتبة الثالثة هي تفسير القرآن بأقوال الصحابة، لما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، ومنهم عبد الله بن مسعود والحبر البحر عبد الله بن عباس.

٤- بعد مرتبة تفسير القرآن بالقرآن أو السُنَّة أو أقوال الصحابة، تجيئ مرتبة تفسره بأقوال التابعين، قال ابن تيمية: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست بحجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح، وأما إذا أجمعوا على الشئ فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة علي بعض ولا من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السُنَّة أو عموم لفظ العرب، وأقوال الصحابة في ذلك» (٢)

وقال ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاوس، وغيرهم، وفي الكوفة أصحاب ابن مسعود، وفي المدينة زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس، ومن أصحاب ابن مسعود علقمة، والأسود بن يزيد، وابراهيم النخعي، والشعبي ومن هذه الطبقة: الحسن البصري، وعطاء بن أبي مسلم الخُرساني، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، والضحام بن مزاحم، وعطية بن سعد العوفي، وقتادة بن

(١) النحل: ٤٤

(٢) «مقدمة أصول التفسير (٢٨، ٢٩)».

دعامة السدوسي، والربيع بن أنس، والسدي، فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة، وقد ذكر شيخ الإسلام آثاراً صحيحة تدل علي تحرج أئمة السلف الكرام عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من يتكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه، ولهذا رُوى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد.

وقد حمل حملة شديدة على تفاسير المعتزلة والشيعة والرافضة والفلاسفة ومن إليهم من أهل الفرق الأخرى المبتدعة، وعلى الطرق التي اتبعوها في التفسير.

قال: «فإن من هؤلاء قوماً اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها، ومنهم قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزَّل عليه، والمخاطب به، ومن ثم كان خطؤهم وضلالهم جميعاً في كثير مما ذهبوا إليه».

وقال: «وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك بل مبتدعاً... فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً».

وذكر أن من أعظم أسباب الاختلاف في التفسير البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه، وفسروا كلام الله ورسوله بغير ما أُريد به، وتأولوه على غير تأويله.

تكلم شيخ الإســلام على آية الأمراء في كتاب الله وهي قــوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1]

قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمـوا بين الناس أن يحكموا بالعـدل، ونزلت الثانية في الرعـية من الجيـوش وغيرهم، إلا أن يأمروا بمعـصية الله، فإن أمـروا بمعصية الله فـلا طاعة لمخلوق في معصـية الخالق، فإن تنازعوا في شئ ردوه إلى كـتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك أطيـعوا فيما يـأمرون به من طاعة الله، لإن ذلك من طاعـة الله ورسوله، وأديت حـقوقـهم إليـهم كمـا أمر الله ورسـوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2]

وإذا كانت الآيـة قد أوجبت أذاء الأمـانات إلى أهلهـا، والحكم بالعدل، فـهذا جماع السياسة العادلة، والولاية، وقد ألف شيخ الإسلام رسالته القيمة: «السياسة الشرعية فـي إصلاح الراعي والرعية»، وقال عنها: «فـهذه رسالة مختصـرة، فيها جوامع من السياسـة الألهية والإنابة النبوية، ولا يستغنى عـنها الراعي ولا الرعية، اقتضاها من أوجب الـله نصحه من ولاة الأمور، كما قال النبـي ﷺ فيما ثبت عنه من غير وجه: **«إن الله يرضي لكم ثلاثة: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتـصـموا بحبل الله جـمـيـعاً ولا تفـرقـوا، وأن تناصـحـوا من ولاه الله أمركم»**[3] أ. هـ.

وقد ذكر فـي الرسالة، الحدود والحقـوق، وواجب الولاة نحوها، وتكلم علي أصناف الأموال وصور الظلم الواقع من الولاة والرعية، وبيانه لإستعمال الأصلح،

(١) النساء: ٥٨، ٥٩.
(٢) المائدة: ٢
(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه.

قال: «فيجب على كل من ولي شيئاً من أمر المسلمين، من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع، أصلح من يقدر عليه، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية، أو يسبق في الطلب، بل ذلك سبب المنع... فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريق أو جنس كالعربية والفارسية والرومية والتركية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهي عنه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] أ. هـ.

كما تكلم على اختيار الأمثل فالأمثل، وأظهر قلة إجتماع الأمانة والقوة في الناس فقال رحمه الله: اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول: «اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة»، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلاً أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قُدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها فتقدم في إمارة الحرب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور فيها، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً...» أ. هـ.

وفي بيان معرفة الأصلح قال: «وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية، ومعرفة طريق المقصود، فإذا عرفت المقاصد والوسائل تم الأمر، فلهذا لما غلب على أكثر الملوك قصد الدنيا، دون الدين، قدموا في ولايتهم من يعينوهم علي تلك المقاصد، وكان من يطلب رئاسة نفسه يؤثر تقديم من يقدم رئاسته، وقد كانت السُّنَّة أن الذي يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم، هم أمراء الحرب، الذين هم نواب ذي السلطان على الجند، ولهذا لما قدم النبي ﷺ أبا بكر في الصلاة، قدمه المسلمون في إمارة الحرب وغيرها...»أ. هـ.

وما نقلناه من الرسالة يدلك على قيمة موضوعها، وخصوصاً قد جاءت في موضوع كثُر فيه الخوض والشغب حتى وصل الحال إلى فصل الدين عن الدولة،

(١) الأنفال: ٢٧ .

والأرض عن السماء، والدنيا عن الآخرة، وبعض الرجال عن بعض، فهؤلاء رجال الدين، وأولئك رجال الدولة... مما استحكمت به معاني الغربة، كما تدل الرسالة الأخرى على سعة علم شيخ الإسلام وفقهه ولذلك قال فيه الزملكاني وكان معاصراً له: «واجتمعت فيه شروط الإجتهاد على وجهها»، وقال الحافظ أبو الحجاج المزي: «ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله، ولا أتبع لهما منه»، وقال عنه الذهبي في معجم شيوخه: «وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عنده».

رأيه في اتخاذ الإمارة:

قال ابن تيمية: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالإجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الإجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ : **«إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»** رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم عليهم»**، فأوجب النبي ﷺ تأمير الواحد في الإجتماع العارض القليل في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الإجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة...

فالواجب إتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لإبتغاء الرياسة أو المال بها، وقد روى كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما ذئبان جائعان أُرسِلاَ في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء علي المال والشرف لدينه»** قال الترمذي: حديث حسن صحيح، فأخبر أن حرص المرء علي المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم»[1]

(١) الفتاوى (٢٨/ ٣٠٩، ٣٩٢).

الإجتماع والإئتلاف من أصول هذه الدعوة المباركة

تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية في خلاف الأمة في العبادات ومذاهب أهل السُّنَّة والجماعة، وذكر أنواع الفساد الذي حصل بسبب هذا الخلاف والتنازع كالجهل والظلم واتباع الظن وما تهوى الأنفس إلى أن قال:

«الرابع: التفرق والإختلاف المخالف للإجماع والإجتماع حتى يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعاديه ويحب بعضاً ويواليه، على غير ذات الله تعالى وحتى يقضي الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم إلى الإقتتال بالأيدي والسلاح وببعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض، وهذا كله من أعظم الأمور التي حرمها الله ورسوله، والإجتماع والإئتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(١).

قال ابن عباس: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة»، وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السُّنَّة التي شرعها ورسول الله ﷺ لأمته، ومن أهل الفرقة بالمخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(٢)، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣)

(١) آل عمران: ١٠٢-١٠٦ .
(٢) الأنعام: ١٥٩
(٣) البقرة: ٢١٣

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[4]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[5]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[6].

وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا نتفرق هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة مثل قوله: «**عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة**»، وقوله: «**فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد**»، وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل وفي غيرها هو التفرق بين أمرائها، وعلمائها، من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم، وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لإجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك، لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام، ولهذا كان امتياز أهل الجنة «أهل السُّنَّة والجماعة» عن أهل العذاب من هذه الأمة ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره، وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقدم العمل به هو الإجماع فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة.

وقال رحمه الله في توحيد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها: «إذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منا وأمرنا عند التنازع في شئ أن نرده إلى الله والرسول وأمرنا بالإجتماع والإئتلاف ونهانا عن التفرق والإختلاف، وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالإيمان وسمانا المسلمين، وأمرنا أن ندوم عليه إلى الممات، فهذه النصوص وما كان في معناها توجب علينا الاجتماع في الدين، كإجتماع الأنبياء قبلنا في الدين، وولاة الأمور فينا هم خلفاء الرسول...» إلى أن قال: «فالأصول الثابتة بالكتاب والسُّنَّة والاجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض وهم أهل السُّنَّة والجماعة، وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء» أ.هـ.

---

(٤) الأنفال: ١
(٥) الحجرات: ١٠
(٦) النساء: ١١٤

الديمقراطية، والدولة المدنية

وأخذ الآراء لتطبيق الشريعة... سفاهات وتفاهات

لقد خرج الملاحدة والزنادقة، ومن لا عقل عنده ولا بصيرة لديه، ويطعنون في دين الله، ويطالبون المسلمين بإبراز شمولية الدين لجوانب الحياة ومنهجه في الإقتصاد والسياسة، وخصوصاً وقد تطورت الدنيا بزعمهم وتحضرت!!

وصرنا في القرن العشرين، ورددوا المقولات الفاجرة مثل «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين»، و«الدين لله والوطن للجميع» و«دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، ومقولة «الدين علاقة بين المرء وربه» أي: إن كان ولابد من تدين فليكن في إطار محدود داخل حيز المسجد، وسعوا جاهدين في قمع شعائر الدين الظاهرة وكان لابد لهم من بديل لدين الله، فنادوا بالديمقراطية، والتي هي حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه.

وقالوا: «لابد أن تكون صبغة الدولة صبغة مدنية لا دينية، وانتقلوا من مرحلة أخذ الآراء لتطبيق الشرع -وهذا لا يحل في دين الله- إلى وصف المتدينين المطالبين بالرجوع إلى دين الله بأنهم رجعيون متزمتون متطرفون متخلفون أصحاب فكر الظلامي، وبأنهم بحاجة إلى تنوير، ووجدوا فيمن تتلمذ على موائد الشرق والغرب وجحد دينه أو جهله، من يؤدي هذا الدور ويقوم بهذه المهمة، وقد استخدموا في هذه المواجهة كل الوسائل ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]، وقد انتقلوا في حملتهم الشعواء من الإجمال إلى التفصيل فصار البعض ينادي بسفر المرأة بلا محرم وبدون إذن الزوج، وتولية المرأة منصب القاضي، ومنع ختان البنات، وركزوا دعوتهم على المرأة بصفة خاصة لأمر لا يخفى علي أحد، إذ أن هدم المرأة سهل يسير، وخصوصاً ومظاهر التحلل قد أصابتها في مقتل، هذا بالإضافة إلى أن هدمها هدم للأمة بأسرها، والنصوص والواقع يدلك على ذلك ومن طالع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ومنهجه ودعوته سيجد رداً بليغاً علي هذه الإنحرافات التي راجت على ضعاف البصر والبصيرة،

---

(١) الصف: ٨

والتي روج لها أعداء الأمـة، فالإسلام صالح لكل زمـان ومكان، ولا يجوز فصل الدين عن السيـاسة، وإذ أن السيـاسة من دين الأنبيـاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى، وسيكون خلفاء ويكثرون»**، قالوا: فمـا تأمرنا؟ قال: **«أوفوا ببيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم»**[١].

إن السياسة إن لم تقم على أساس من الحق والعدل و إخلاص الأمر لله، كانت صورة من الغش والكذب والنفاق، وفي الحـديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم، . . . وذكر منهم ملكاً كذاباً» [٢]

يقول مقبل بن هادي الوادعي في تقديمه لرسالة «السـياسة الشرعية»: «حقاً أنه لا يصلحنا نحن وحكامنا إلا السيـاسة الشرعية، فـالسياسة الشـرعية تنهى عن الإنقـلابات على الحـاكم المسلم، يقـول رسـول الله ﷺ: **«من آتاكم وأمـركم جـمـيع على رجل واحـد يريد أن يشق عـصـاكم أو يفـرق جـمـاعـتكم فاقتلوه»** [٣]

السـياسة الـشرعـية توجب أن يكون للمـسلمين حاكم واحـد قرشي لحـديث: **«الأئمة من قريش»**.

السياسة الشرعية تحرم علي الحاكم أن يتصرف في مال الفرد سواء كان بضرائب أو جمارك وغيرهما مما أضعفت الشعوب أم بغير ذلك.

السياسـة الشرعية توجـب على الحاكم أن يتفقـد أحوال رعيتـه فرب دعوة من مظلوم تكون سـبباً لـزوال ملكه بل لهلاك شـعب، والرسول ﷺ يقـول لمعاذ: **«واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»** [٤].

يتفـقد أحوال التجار والمـزارعين، أما العلماء فالواجب أن يكونوا جلـساءه فإن المرء على دين خليله كما في الحديث، وبسبب إعراض الراعي والرعية عن السياسة الشرعيـة، أصبحت الرعايا متـربصة بالحاكم والحاكم متـربص ببعض الرعايا الذين

١- رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.
٢- رواه مسلم
٣- رواه مسلم عن عرفجة
٤- متفق عليه

يخاف منهم بل أصبح حكامنا في سجن وأصبحت الرعايا في سجن، أما الحاكم فأصبح مذعوراً من الإنقلابات، وأما الرعية فأصبحوا لا يأمنون مكر الحكومات، ولو رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأمن حكامنا من الرعايا وآمنت الرعايا من الحكام يقول: **«خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»**(1)

هذه الإضطرابات سببها عدم التقيد بالسياسة الشرعية كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(2) أ. هـ.

إن الناس إن لم يجمعهم الحق فرقهم الباطل، وإن لم توحدهم عبادة الله مزقتهم عبادة الشيطان، وإن لم يستهوهم نعيم الآخرة تناطحوا وتقاطعوا بسبب متاع الدنيا الزائلة.

أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ

إن الديمقراطية دين عند أهلها، وهي شئ والإسلام شئ آخر، وكذلك الأمر بالنسبة للإشتراكية وغيرها، وما من نظام إلا وله عقيدة تحرسه وتحميه، وشأن المسلم سواء كان حاكماً أو محكوماً أن يصدر في أقواله وأفعاله وسائر نواحي حياته سياسية أو أقتصادية إجتماعية أو أخلاقية في الحرب أو في السلم، في المنزل أو في السوق، في تعامله مع الأصدقاء والأعداء... أن يصدر في ذلك كله وغيره عن كتاب الله وعن سُنَّة رسوله ﷺ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(3)، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾(4)، وقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾(5)، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

(1) رواه مسلم
(2) المائدة: ١٤
(3) النساء: ٦٥
(4) الأحزاب: ٣٦
(5) المائدة: ٣

الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وقال: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[2]، وقال: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3]، وقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[4]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]، وقد سمى سبحانه المعرضين عن شرعه كافرين فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[6].

ووصمهم بالنفاق فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[7].

ودعاة الديمقراطية وغيرها من النحل المارقة والنظم الوضعية واهمون عندما يظنون أنهم سيتحققون جنة موعودة على ظهر الأرض، وأنهم بذلك سيسعدون، فالحياة بغير الله سراب، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[8].

إن السعادة كل السعادة في الاستقامة علي شرع الله، والاستقامة هي أعظم كرامة كما يقول ابن تيمية، ولذلك اعتمد رحمه الله على النصوص الشرعية، فلم يقدم عليها قياساً ولا ما يتوهمه البعض إجماعاً، فكيف ساغ للبعض أن يقدم أهواء البشر وزبالات الأزهان علي دين الله؟! وهل يجوز أن يعرض شرع الله على آراء البشر، أيقبلونه أم يرفضونه، أيطبقونه أم يضعونه في الأدراج؟! ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[9]، وهل يحل أن نسأل الراقصة والمغنية والممثل والصحفي... في مسألة ختان البنات أو سفر المرأة بدون محرم أو خروجها بدون إذن الزوج؟ هل نحن بذلك نريد أن نخرج بنتيجة جماهيرية، وحتى يكون رأي الأغلبية هو الفيصل في المسائل الشرعية، وتكون الديمقراطية

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.
(٢) الأعراف: ٥٤
(٣) الملك: ١٤
(٤) يوسف: ٤٠
(٥) النور: ٦٣
(٦) المائدة: ٤٤
(٧) النساء: ٦٠، ٦١
(٨) النور: ٣٩
(٩) الحج: ٤٦

حكماً على الدين وسيفاً مسلطاً عليه؟! لقد ذكر العلماء: أن فتوى المفتي وقضاء القاضي وحكم الحاكم لا يجعل الحرام حلالاً ولا الحلال حراماً، فكيف بكلام الراقصة والمغنية والممثل والصحفي...

فيا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به، دعوا الأهواء والآراء وتأدبوا مع دين الله، واستقيموا يرحمكم الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

لأمثال هؤلاء نقول ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[4]، لقد فعلوا وذلك عندما أحلوا النظم الوضعية والقوانين المارقة محل شرع الله، وفعلوا ذلك أيضاً عندما تركوا الرجوع لعلماء الأمة المعتبرين كشيخ الإسلام ابن تيمية، وذهبوا يستقون أحكامهم من الراقصة، والمغنية...

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[5]، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6].

من المقرر عند المسلمين أن نرد موارد النزاع للكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[7]، فيجب أن نرجع للعلماء الربانيين في فهم شرع الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[8]، والعلماء هم ورثة الأنبياء، ومن خيار أولياء الله، وهم أيضاً العدول من هذه الأمة، وينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ومن رحمة الله أن آثار العلماء ما زالت باقية تدل على سعة علمهم بالشرع وبالواقع، ومن جملة هؤلاء العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية.

---

(١) آل عمران: ١٩ — (٢) آل عمران: ٨٥
(٣) الأنبياء: ١٠٨ — (٤) البقرة: ٦١
(٥) الإسراء: ٧٢ — (٦) الملك: ٢٢
(٧) النساء: ٥٩ — (٨) النساء: ٨٣

العمل بالحديث وترك المذهب إذا خالفه

وقد سُئل الشيخ تقي الدين بن تيمية عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب وتبصر فيه واشتغل بعده بالحديث، فوجد أحاديث صحيحة لا يعلم لها ناسخاً ولا مخصصاً، ولا معارضاً، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث، فهل له العمل بالمذهب؟ أو يجب عليه الرجوع إلى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه؟

فأجاب: « الحمد لله رب العالمين، قد ثبت في الكتاب والسنَّة والإجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله ﷺ، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله ﷺ، حتى كان صديق الأمة وأفضلها بعد نبيها ﷺ ورضي عنه يقول: أطيعوني ما أطعت الله تعالى، فإذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم، واتفق كلهم على أنه ليس أحدٌ معصوماً في كل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه إلا رسول الله ﷺ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة: «كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى أجمعين قد نهوا الناس أجمعين عن تقليدهم في كل ما يقولونه وذلك هو الواجب: قال الإمام أبو حنيفة: «هذا رأيي، وهذا أحسن ما رأيت، فمن جاء برأي خير منه قبلناه، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بإمام دار الهجرة مالك بن أنس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضروات، ومسألة الأجناس، فأخبر مالك رحمه الله تعالى بما دلت عليه السنَّة في ذلك، فقال: رجعت لقولك يا أبا عبد الله، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت...

ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ويبقى كل إمام في أتباعه بمنزلة النبي في أمته، وهذا تبديل للدين، وشبيه بما عاب الله به النصارى في قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١)، والله سبحانه أعلم » أ.هـ.

---

(١) التوبة : ٣١

وكان الإمام الشافعي رحمه الله ينهى عـن تقليده وتقليد غيره وكان يقول: «إذا صح الحديث فهو مذهبي».

وقيل للإمام أحمد بن حنبل لما لا تصنع لأصحابك كتاباً في الفقه؟

قال: «أو لأحد كـلام مع كلام الله تعالى ورسوله ﷺ فـلا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمـام ومن فعل ذلك فهو عاصٍ لله ورسوله ﷺ، ومخالف لقول إمامه وصاحب مذهبه، وكان الإمام أحمد يقول: كثرة التقليد عمي في البصيرة».

وقال: «من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجـال»، وقد قال: «لا تقلد دينك الرجال، فإنهم لم يسلموا من أن يغلـطوا، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»** ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله عز وجل في الدين لم يرد به خيراً، فيكون التفقه في الدين فرضاً، والتفقه في الدين: معرفة الإحكام الشرعية بأدلتهـا فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقهاً في الدين لكن من الناس من قد يعجز عنها فيلزمه مـا يقدر عليه، ومن كان قادراً علي الإستدلال فقيل: يحرم عليه التقليد مطلقاً، وقيل يجوز مطلقاً، وقيل يجوز عند الحاجة، كما إذا ضاق عن الإستـدلال، وهذا القول أعدل الأقوال إن شاء الله تعالى والإجـتهاد أمر يقبل التجـزؤ والإنقسام، فقد يكون الرجل مجتـهداً في فن أو باب أو مسألة، دون فن وباب ومسـألة، وكل فاجـتهـاده بحسب وسـعه، ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾(١)، ومن علم مسألة فهو بها عالم، ولا يجوز القول بغلق باب الإجتهاد على من تمهدت له أسبـابه، إذ لا يجوز تحجيـر رحمة الله الواسعة وخـصوصاً مع كثرة متطلبات الأمة وحاجتها المتجددة.

(١) البقرة: ٢٨٦

بعض مظاهر تواصل السلفيين المعاصرين
مع دعوة شيخ الإسلام

لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، ويبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة شبابها وأمر دينها، ولما كان العلم رحم بين أهله، فمن رحمة الله وجود التواصل والتراحم بين السابقين واللاحقين ممن يقتفون أثر رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١)، وقد استفاد السلفيون المعاصرون أيما استفادة من دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية، وتأثروا بها علماً وعملاً واعتقاداً ولِمَ لا وهو ينهج منهج خير القرون، ويتبع ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وقد كان يمهل من خالفه ثلاث سنوات أن يأتي بحرف واحد، خالف فيه شيخ الإسلام ما اتفق عليه أهل القرون المفضلة، وقد جلى ابن تيمية ووضع اعتقاد الطائفة الناجية، وفند شبهات المخالفين لأهل السنَّة والجماعة، مما أنار الطريق لمن جاء بعده، ولذلك لا عجب أن نرى الكثير من مظاهر التواصل بين السلفيين المعاصرين وبين دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وفي حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خزلهم ولا من خالفهم حتي يأتي أمر الله وهم ظاهرون علي الناس»** (٢). وفي لفظ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون علي الحق ظاهرين علي من ناوأهم إلي يوم القيامة»** (٣).

قال البخاري في وصف هذه الطائفة: «هم أهل العلم»، وقال الإمام أحمد: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»، وقال القاضي عياض: «إنما أراد أحمد أهل السنَّة والجماعة»، وذكر ابن تيمية: «أن أهل السنَّة هم الطائفة المنصورة»، وقال النووي: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين...»

(١) الحشر: ١٠
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.

وذكر أنواعــهم فقــال: «إنهم شجـعان مــقاتلون، فـقهـاء، مُحدِّثــون زهاد آمرون بالمعــروف وناهون عن المنـكر، ومنهم أهل أنواع أخـرى من الخـيـر، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونوا متفرقين في أنحاء الأرض»أ. هـ.

بعض مظاهر التواصل الموجودة:

أولاً: الحرص الحقيقى علي وحدة الصف وجمع الكلمة:

يقول الشيخ ابن باز حفظه الله: «ومن المعلوم أنه لا يتم أمـر العباد فيم بينهم، ولا تنظم مصالحهم ولا تجتمع كلمتـهم ولا يهابهم عدوهم إلا بالتضامن الإسلامي الذي حقيـقته التعاون علي الـبر والتقوى والتكافل والتناصر والتـعاطف والتناصح والتـواصي بالحق والصبـر عليه، ولا شك أن هذا من أهم الـواجبـات الإسلامـية والفرائض اللازمة، وقد نصت الآيات القرآنيـة والأحاديث النبوية على أن التضامن الإسلامي بين المسلـمين أفراداً وجمـاعات، حكومات وشـعوباً من أهم المهـمات، ومن الواجبات التي لابد منها لصلاح الجميـع وإقامة دينهم وحل مشاكلهم وتوحيد صفوفهم وجـمع كلمتهم ضد عدوهم المشتـرك، والنصوص الواردة في هذا الباب من الآيات والأحاديـث كثيـرة جداً، وهي وإن لم ترد بلفظ التـضامن فـقد وردت بمعناه وما يـدل عليه عند أهل العلم، والأشـياء بحقـائقهـا ومعانيـها لا بألفـاظها المجردة، فالتضامن معناه التعاون والتكافل والتكاتف والتناصر والتناصح والتواصي ومـا أدى هذا المعنى مـن الألفـاظ، يدخل في ذلك الأمـر بالمعـــروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله سبـحانه، وإرشاد الناس إلى أسباب السعـادة والنجاة وما فيه صلاح أمر الدنيا والآخرة»أ. هـ.

وجاء في فتـوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمـية والإفتاء -بالسـعودية- برئاسة الشيخ ابن باز مـا يلي: «ولا يجوز أن يتفرق المـسلمون في دينهم شيعـاً وأحزاباً، يلعن بعضهم بعــضاً، ويضرب بعضهم رقاب بعض، فـإن هذا التفرق مما نهى الله عنه ونعي على من أحـدثه أو تابع أهله، وتوعـد فاعليـه بالعذاب، وقـد برء الله ورسوله ﷺ منه قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[٢]، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»**[٣]

والآيات والأحاديث في ذم التفرق في الدين كثيرة، أما إذا كان ولي أمر المسلمين هو الذي نظمهم ووزع بينهم أعمال الحياة ومرافقها الدينية والدنيوية ليقوم كلٌ بواجبه في جانب من جوانب الدين والدنيا فهذا مشروع... بل واجب على ولي أمر المسلمين أن يوزع رعيته علي واجبات الدين والدنيا علي إختلاف أنواعها، فيجعل جماعة لخدمة علم الحديث من جهة نقله وتدوينه وتمييز صحيحه من سقيمه... إلخ، وجماعة أخرى لخدمة فقه متونه تدويناً وتعلماً وتعليماً...، وثالثة لخدمة اللغة العربية، ورابعة للجهاد والدفاع عن بلاد الإسلام وفتح الفتوح وتذليل العقبات لنشر الإسلام... وأخرى للإنتاج: صناعة وتجارة وزراعة... إلى آخره... فهذه من ضروريات الحياة التي لا تقوم للأمة قائمة إلا بها ولا يحفظ الإسلام ولا ينشر إلا عن طريقه...

هذا مع إعتصام الجميع بكتاب الله وهدي رسوله ﷺ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون، وسلف الأمة ووحدة الهدف، وتعاون جميع المسلمين على نصرة الإسلام والذود عن حياضه، وتحقيق وسائل الحياة السعيدة، وسير الجميع في ظل الإسلام وتحت لوائه على صراط الله المستقيم وتجنبهم السبل المضلة والفرق الهالكة، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٤] أ.هـ.

---

(١) آل عمران: ١٠٢-١٠٥.	(٢) الأنعام: ١٥٩-١٦٠.

(٣) رواه مسلم

(٤) هذا الكلام فيه رد بليغ علي من يتهم السلفيين بقصور النظر، وأنهم أهملوا جوانب الدين والحياة المختلفة إقتصاراً منهم علي العلم فقط كما أن فيه اقتحام المخالفين الذين يزعمون أن السلفيين مبعث فرقة الأمة!!! رمتنى بدائها وانسلت.
الأنعام: ١٥٣.

لقد أيقن السلفيون أن وحدة الصف وجمع الكلمة لا تتم بالبدع والضلالات، ولا يكتفي فيها بالشعارات والهتافات وأن الفرق الضالة النارية كالمعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة وغلاة الصوفية. . . ، من أعظم أسباب تشتت المسلمين وفرقتهم بسبب إنحرافهم عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ولذلك كان الحرص على وحدة المنهج ومراعاة آداب الخلاف وفقهه، والحذر من البدع والمخالفات والعمل بالطاعات والقربات، والحيطة تجاه وساوس شياطين الإنس والجن، واعذار الناس فيما عذرهم فيه ربهم، وأن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس، وحرص كل مسلم على أن يبدأ بنفسه، وأن نبتهل جميعاً إلى الله بالدعاء أن يجعل بأسنا على عدوه وعدونا، وأن يجمع شملنا ويلم شعثنا ويوحد كلمتنا، والسلفيون في حرصهم هذا لا يفترقون عن حرص شيخ الإسلام ابن تيمية. فالنبع الصافي الذي يلتقي منه الجميع هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم أجمعين[١].

ثانياً: منهجهم فى التعامل مع النصوص واستنباط الأحكام:

يقول الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان»: «فإننا نبين ما في الآيات من الأحكام وأدلتها من السُّنَّة، وأقوال العلماء في ذلك، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بدليل، من غير تعصب لمذهب معين، ولا لقول قائل معين، لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله، لأن كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلامه ﷺ».

وقال الأستاذ محمد المجذوب عن الشيخ عبد العزيز بن باز: «منهجه الذي يعتمد على ظواهر النصوص مع احترامه لكل اجتهاد يكالفه، ما دام قائم على دليل أو شبهة دليل».

وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في «الأصول العلمية للدعوة السلفية ص٢٤، ٢٥»: «والمنهج السلفي لفهم الإسلام والعمل به يضع نصب عينه تذليل هذه العقبات التي حالت بين الناس ومتابعة الرسول ﷺ وذلك بأن ينادي دائماً بالقول بتحريم التقليد، ويوجب على كل مسلم السؤال عن القول بدليله من الكتاب والسُّنَّة، ولا يعني هذا أننا نوجب على كل أحد أن يكون مجتهداً، لا إنما

١ – راجع كتابنا «الضوابط الشرعية لتحقيق الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية» ففيه تفصيل ما أجملناه.

نأمر كل أحد بأن يكون متبعاً للدليل باحثاً عن الحجة من كتاب ربه وسُنَّة نبيه، وبذلك تتوحد صفوف الأمة، وتنموا فيها معرفة الكتاب والسُّنَّة، وتذكوا فيها الروح العلمية والمسامحة الأخوية، ولا يستطيع مضل -وما أكثرهم في أيامنا- أن يضلها بسهولة، وذلك بأن يسند لما يريد من فتوى إلى عالم من اعلماء، وبذلك يعظم عند المسلمين شأن الرسول ﷺ، ويعظم شأن متابعته»أ. هـ.

إننا نرفض ربط الدعوة بأحد بحيث تحيا بحياته وتمرض بمرضه وتموت بموته...

وكما قالوا: «شيخ الإسلام حبيب إلى أنفسنا والحق أحب إلينا منه»

وكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، والحق مقبول من كل من جاء به، والباطل مردود على صاحبه كائناً من كان، واعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطريق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين، وغرضنا من الربط بين الماضي والحاضر أن نبين أن السلفيون ليسوا لقطاء، وأن الدعوة السلفية ليست مبتورة ولا مقطوعة الصلة بالصحابة ومن تابعهم بإحسان، وإذا كان البعض قد صار يقدم دعوته على دعوات الآخرين بسبب قدمها وطول عمرها علي الساحة!!! فعليه أن يعلم أن السبق سبق الفضل والصفات لا سبق الزمان والمكان، وأن العبرة بما وافق الحق، وإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، ومقتضى الإيمان الولاء والبراء لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن هنا كانت محبتنا وموالاتنا واحترامنا للعلماء والصالحين والأئمة المجتهدين، ومن جملتهم ابن تيمية إذ هم ورثة النبي ﷺ، وتوقيرهم دون الغلو فيهم، دين يُدان به لله تعالى وواجب على كل مسلم.

ثالثاً: اهتمامهم بالعقيدة، وقولهم التوحيد أولاً وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة:

القرآن المكي والمدني به الكثير من الآيات والسور التي تحض على توحيد الله، وإخلاص العبودية لله جلا وعلا، ومن أجل ذلك بعث الله سبحانه الرسل وأنزل الكتب وجعل الكلمة التي يدخل بها العباد في دينه هي كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهي الكلمة الطيبة التي تحق عليها الحاقة وتقوم عليه الواقعة، وتنصب لأجلها الموازين، وتكون الجنة والنار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ

اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١]، ومامن نبي إلا قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٢]، وعندما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى أهل اليمن قال له: **«إنك تقدم علي قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله فإذا هم عرفوا الله فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة...»**[٣]، والتوحيد هو أول ركن من أركان الإسلام كما جاء في حديث **«بني الإسلام علي خمس»** [٤]، لهذه النصوص وغيرها، قال السلفيون المعاصرون: «التوحيد أولاً لو كانوا يعلمون»، فهو السبيل لنيل رضى الله عز وجل، والفوز بالجنة والنجاة من النار، كما أنه الطريق لتحقيق وحدة المسلمين، ولذلك نجد الشيخ الألباني حفظه الله يستحث الدعاة دائماً لبذل الوسع في تصحيح عقائد المسلمين بردها إلى أصولها من الكتاب والسنّة، لأن ذلك السبيل الموصلة إلى تحقيق الدولة الإسلامية، خصوصاً وقد عمت الغربة واستشرت البدع وأطلت الشركيات برأسها، وعادا الدين غريباً كما بدأ غريباً، وهذا الإهتمام بالعقيدة لما لها من أهمية وإلا فلا فرق بين اعتقاد وعمل وخلق وسلوك إذ الكل دين، ويبقى التقديم والتأخير وفق الضوابط الشرعية لا وفق أهواء البشر، وكما قالوا: «تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله» .

وقد رأينا النتائج المرة في المجاهدين الأفغان من جراء إهمال دعوة التوحيد، فقد صاروا فتنة للخلق بتناحرهم واقتتالهم، نسأل الله أن يهيئ لنا ولهم من أمرنا رشداً، والناظر في الدعوات الرشيدة سيجد تركيزاً على التوحيد، كدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وحملته الشديدة على القبوريين، والذين صرفوا العبادة لغير الله بزعم محبة الصالحين... ومن قبل كان شيخ الإسلام ابن تيمية يخرج بنفسه لهدم الأوثان التي تعبد من دون الله، وإنكار المنكرات والشركيات، وكم من مرة تعرض للحبس والأذى بسبب غلاة الصوفية، وقد انبرى مدافعاً عن عقيدة سلف الأمة ومفنداً للشبهات والعقائد الباطلة التي خرجت بها فرق الضلالة وانحرفت بها عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وقد رُمي رحمه الله بالتجسيم والتشبيه، ظلماً وزوراً مما دعاه للرد على هذه الغربة حيث

(١) النحل: ٣٦ (٢) الأعراف: ٥٩
(٣) الحديث رواه البخارى (٤) رواه مسلم

قال: «وأما النزول الذي لا يكون جنس نزول أجسام العباد فهذا لا يمتنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثير، ويكون قدره لبعض أقل وأكثر، بل لا يمتنع أن يقرب إلى بعض من خلقه دون بعض، فيقترب إلى الذي دعاه دون الذي لم يدعه، ونزوله وهو على عرشه أبلغ في العظمة وأدل على القدرة وأوفق للعقل والشرع. . .» .

وقال: «ومن ظن من الجهال أنه إذا نزل إلى السماء الدنيا كما جاء الحديث سيكون العرش فوقه ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم فقوله مخالف لإجماع السلف، مخالف للكتاب والسُّنَّة كما بُسِطَ في موضعه» .

وقال رحمه الله: «وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق عرشه وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾[1]، أن السماء تظله أو تقله، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[2]، وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾[3]، وهو: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾[4]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾[5] »أ. هـ.

إن معرفة التوحيد وما ينافيه من لاشرك حتم لازم، وواجب على كل مكلف، وهذا لا يقتصر فيه على المعرفة الإجمالية، ولا تصير العقيدة قويه بمجرد النوايا الطيبة أو الإكتفاء بالمطالبة بذلك، ومما لا خلاف عليه أن صحة الإعتقاد يترتب عليها صحة العمل، والناظر في عقائد الناس وأعمالهم سيعلم يقيناً أهميه التركيز على معاني التوحيد، وأن الدعاة السلفيين قديماً أو حديثاً أصابوا في ذلك، فعقائد الصوفية وصرف العبادة لغير الله، وتأويل الصفات، وتأخير العمل عن العلم والاقتصار على النوايا الطيبة. . . وغيرها كثير بمثابة الآفات التي تنخر في جسد الأمة، بل إننا في أمس الحاجة لإقامة التوحيد العملي السلوكي في حياتنا وحياة

---

(١) الملك : ١٦
(٢) البقرة : ٢٥٥٨
(٣) فاطر : ٤١
(٤) الحج : ٦٥
(٥) الروم : ٢٥

الناس بحيث ننصبغ بصبغة الإسلام في حياتنا الخاصة والعامة وتتعلق قلوبنا بالله حباً وخوفاً ورجاءاً وتوكلاً وإنابة.

رابعاً: التصفية والتربية عند السلفيين المعاصرين:

قال الشيخ الألباني حفظه الله: «وأعني بالتصفية تنقية الإسلام من كل دخيل وشائب، والسبيل إلى ذلك أولاً تصفية السُّنَّة مما داخلها من موضوع وضعيف، ثم تفسير القرآن على ضوء هذه السُّنَّة الصحيحة وما كان عليه السلف الصالح من تصورات ومفهومات، وهذا الأخير لا يمكن التحقيق عنه إلا بدراسة علوم الحديث والجرح والتعديل، وأنا لا أعني بذلك أن نقف بالتفسير عند الحدود التى إنتها إليها السلف، بل إننا علينا أن نلتزم منهج السلف في التفسير، وفي إلتزامه توحيد للإتجاه ومنع للتفرق... وتتناول التصفية التي أريدها ما وصل إلينا من العلوم الإسلامية والأفكار الإسلامية[1] فنستبعد منها كل ما يخالف المنهج السليم، كذلك تتناول التصفية [تنقية] الفكر الإسلامي من الشوائب الدخيلة التي تتسلل إلى أفكار المسلمين المعاصرين عن طريق الدراسات الغربية، وبصورة خاصة الفلسفة وعلوم التربية والفنون مما يتسع فيه المجال لدس كثير من السموم المفسدة للفكر الإسلامي، وأريد بالتربية: تنشئة الجيل على العقيدة الإسلامية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسُّنَّة، وأخص بالذكر تربية الصغار على العبادة... دون الإكثار من الكلام على فائدة العبادة من الناحية المادية كما يفعل البعض، وإن كان لابد من ذكر الفوائد المادية فهي آخر ما ينبغي ذكره، ولا أنسى هنا تدريس التشريع الإسلامي، فالذي أراه أن يكون تدريس هذه المادة على أساس التسليم التام لأمر الله والثقة بحكمه، دون الإهتمام الكثير ببيان فوائده المادية، وفي ذلك تزويد لنفس الطالب بالمناعة عن كل دس وتسميم»[2] أ.هـ.

ويتضح بذلك أن التصفية والتربية معناها تصفية الإسلام مما شيب به من شركيات وبدع وانحرافات، وتربية النفس والناس من حولنا على هذا الإسلام المصفى، وهذا الذي ذكره الشيخ الألباني، هو عين ما فعله شيخ الإسلام ابن

١- هكذا في الأصل ولعلها الأفكار الإنسانية.
٢- نقلاً من كتاب علماء ومفكرون عرفتهم.

تيميـة، إذ أن الأمة افترقت في عهـودها الأخيرة عن مثل ما كـان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فالجيل الأول صار أشبه بظاهرة لم تتكرر، وأرجع البعض ذلك إلى أن النبع الصـافي -الكتـاب ٤٥والسُنَّة- الذي تربى عليـه الصحـابة رغم حفظه وصيـانته، إلا أن الأجيال التـالية قد انحرفت عنه تأويلاً وإنحـرافاً وإهمالاً وإعراضاً، وكان من جراء ذلك ظهور الفرق كالصـوفية والشيعة والمعتزلة والخوارج وتوالى ظهور الشركيات، وكثر الإنحراف عن هدي رسول الله ﷺ فظهرت البدع وانطمـست السُنَنُ عند الـكثيـرين، وأدى وضع الحـديث إلى ظـهور كـثيـر من الإنحرافات، واحـتكر البعض طريق السلوك والتربية بزعمـه فلم يجدوا إلا دخول الخرائب وترك النظافة والعيش على طعام واحد!!!

فلله در ابن تيمية والسلفيين في كل عصر ووقت عندما يبذلون وسعهم في تنقية النفس من كل شائبة شرك أو انحراف في العقيدة، وتربية النفس على صدق الإتباع للنبي ﷺ إذ التوحيد توحيدان توحيد المُرسَل وتوحيد متابعة الرسول وهذا معنى قولنـا: «لا إله إلا الله محمـد رسول الله» فـتزكـية النفـوس لا تتم إلا بالتوحـيد والاتباع، وقد ذكـر الشيخ عبد الرحمن عـبد الخالق أصول الدعـوة السلفية، وهي التوحـيد والإتباع والتزكـية، وأوضح أن الله تعالى قـد أكمل لنبيه مناهج التـربية والسلوك، وأنه لا سبـيل لتزكيـة النفوس إلا بالرجوع للقـرآن وللسُنَّة الصحيـحة، ولابد في ذلك من الرجـوع للعلماء العـاملين المعتـبرين الذين سلمـوا من شوائب الشرك، والتأويلات الباطلة وتراهات السلوك.

خامساً: الحث علي الإتباع وذم الإبتداع:

العبادات توقيفية تؤخذ دون زيادة أو نقصان، أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة إذا روعيت ضوابطها الكلية، وقد عرف الشاطبي البدعة فقال: «طريقة مخترعة في الدين تضاهي الطريق الشرعية، ويقصد بالسلوك عليها مبالغة التعبد لله».

وقـد تواردت نصوص الكتـاب والسُنَّة وآثار سلف الأمـة على الأمر بالإتبـاع والنهي عن الإبتـداع، وشيخ الإسـلام رحمـه الله في علمه وعـمله ودعوتـه كان حريـصاً على ذلك فلسـان حاله يقـول: إنما أنا متـبع ولستُ مبـتدع، وهـذا شأن الموفقين المسددين في كل زمان ومكان، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «الدعاء

عبادة ومبناها على التوقيف ويُعبد الله بما شرع لا بالأهواء والبدع» وقال ابن القيم: «ألا يعبد إلا الله ولا يعبد الله إلا بما شرع».

ومن تتبع حياة الشيخ ابن باز وفتاواه، وجد أنه لا يسكت على أي محدثة من البدع التي تسللت أو تحاول التسلل إلى عبادات المسلمين وعقائدهم كما أن الشيخ الألباني له باع طويل في ذلك، وقد مر بك كلامه في التصفية والتربية، فهذا هو المنهج الذي يراه الشيخ سبيلاً لعودة الأمة لاستئناف حياة إسلامية على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وإليك ما قاله الشيخ الألباني حفظه الله في الأمر بالإتباع وذم الإبتداع:

قال الشيخ الألباني حفظه الله: «فما تركه ﷺ من تلك العبادات، فمن السُّنَّة تركها، ألا ترى مثلاً أن لا الأذان للعيدين أو لدفن الميت مع كونه ذكراً وتعظيماً لله عز وجل، لم يجز التقرب به إلى الله عز وجل، ذلك ليس إلا لكونه سُنَّة تركها رسول الله ﷺ، وقد فهم هذا المعنى أصحابه ﷺ فكثر عنهم التحذير من البدع تحذيراً عاماً كما هو مذكور في موضعه، حتى قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبَّدوها»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق»، فهنيئاً لمن وفقه الله للإخلاص في عبادته واتباع سُنَّة نبيه ﷺ، ولم يخالطها ببدع إذاً فليبشر بتقبل الله عز وجل لطاعته وإدخاله إياه في جنته، جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»، «ثم ليعلم أن هذه البدع ليست خطورتها في نسبة واحدة، بل هي على درجات، فبعضها شرك وكفر صريح كما سترى، وبعضها دون ذلك، ولكن يجب أن يعلم أن أصغر بدعة يأتي الرجل بها في الدين هي محرمة بعد تبيين كونها بدعة، فليس في البدع كما يتوهم بعضهم ما هو في مرتبة المكروه فقط، كيف ورسول الله ﷺ يقول: **«كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»** أي صاحبها، وحسبك دليلاً على خطورة البدعة قوله ﷺ: **«إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة حتي يدع بدعته»** رواه الطبراني والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» وغيرهما بسند صحيح وحسنه المنذري، ثم نقل **قول بعض العلماء في النهي عن البدع الصغيرة فإنها تؤدي حتماً إلى الكبار منها وعدم استحباب البدع فإن في هذا تنقص للدين وناقليه ونقل قول الإمام مالك**

رحمه الله حيث قال: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فما لم يكن يومئذ بدين فليس اليوم دينا» وصلى الله على نبينا القائل: **«ما تركت شيئاً يقربكم إليّ الله إلا وقد أمرتكم به، وما تركت شيئاً يبعدكم عن الله ويقربكم إلي النار إلا وقد نهيتكم عنه»، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات**[1].

سادساً: حيطة سلفية معاصرة تتعلق بالأسماء والصفات:

الواجب على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوه سبحانه بما شرع وليس بشرع أحد سواه، ولذلك احتاط النبي ﷺ لعدم خدش جناب التوحيد ولعدم خدش جناب التشريع، ودلائل ذلك كثيرة متضافرة، وقد سار العلماء على هذا النهج قديماً وحديثاً ونقلنا طرفاً من ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية، ،وإليك أقوال بعض علماء العصر تدلك على مبلغ الحيطة والتدقيق في مسألة الأسماء والصفات.

قال الشنقيطي رحمه الله: «وإن كان بعض العلماء كره وصفه جل وعلا بالقدم كما يأتي فالله عز وجل وصف بعض المخلوقين بالقدم قال: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[2]، ﴿ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾[3]، ﴿وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾[4]، ووصف بعضهم بالبقاء قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[5]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[6]، ولا شك أن ما وصفوا به الله من هذه الصفات [القدم والبقاء] مخالف لما وصف به الخلق نحو ما تقدم، أما الله عز وجل فلم يصف في كتابه نفسه بالقدم وبعض السلف كره وصفه بالقدم لأنه قد يطلق مع سبق العدم نحو: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، ﴿ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، ﴿وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾، وقد جاء فيه حديث قال فيه بعض العلماء: هو يدل على وصفه بهذا وبعضهم يقول: لم يثبت»[7] أ.هـ.

ومن ذلك قولهم عن الله سبحانه أن له ذاتاً أو أنه بائن من خلقه.

قال الشيخ الألباني: «ومن هذا العرض يتبين أن هاتين اللفظتين: بذاته وبائن لم تكونا معروفين في عهد الصحابة رضي الله عنهم، ولكن لما ابتدع الجهم وأتباعه

(١) يس: ٣٩ (٢) يوسف: ٩٦
(٣) الشعراء: ٧٦ (٤) الصافات: ٧٧
(٥) النحل: ٩٦
(٦) مناسك الحج والعمرة في الكتاب والسنّة وآثار السلف وسرد ما ألحق الناس بها من البدع صـ٤٣
(٧) انظر: «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» صـ٨،٩ .

القول بأن الله في كل مكان، اقتضى ضـرورة البيان أن يتلفظ هؤلاء الأئمة الأعلام بلفظ بائن دون أن ينكره أحـد منهم، ومثل هذا تماماً قـولهم في القرآن الكريم أنه غير مخلوق، فإن هذا الكلمة لا تعرفها الصحابة أيضاً وإنما كانوا يقولون فيه: كلام الله تبارك وتعالـى لا يزيدون على ذلك، وكان ينبغي الوقوف فـيه عند هذا الحد، لولا قول الجـهم وأتباعه من المعـتزلة، إنه مخلوق، ولكـن إذا نطق هؤلاء بالباطل وجب على أحد أهل الحق أن ينطقوا بالحق ولو بتعابير وألفاظ لم تكن معروفة من قبل، وإلى هذه الحقيـقة أشار الإمام أحمد رحمه الله تعـالى حين سُئل عن الواقفة الذين لا يقولون في القرآن إنـه مخلوق أو غير مخلوق، هل لهم رخـصة أن يقول الرجل: «كلام الـله» ثم يسكت، قال ولم يسكت؟! لولا مـا وقع فيـه الناس كان يسعه السكوت، ولكن حيث تكلموا فيما تكلموا، لأي شئ يسكتون؟».

قُلتُ: وظاهر كلام الإمام أحمد رحمـه الله أننا نستخدم مثل هذه الألفاظ حين يكون لإستعمالها ضرورة كالرد على بدعة أو تعليم جاهل أو نحو ذلك، أما إذا لم تكن هناك ضرورة فـلا، والله أعلم وبخاصة قـولهم «بائن» لما يروى عن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «فلا إستـعلاؤه باعده عن شئ من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به»، « ولم يـحلل في الأشياء فـيقال: هو كـائن، ولم ينأ عنها فيقال: هو منها بائن»، إلا أنه يقال أن بعض أسانيد هذا الكتاب لا تصح إلى على رضي الله عنه، فالله أعلم إن كان هذا صحيح بالنسبة إليه أو لا» أ. هـ.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: «وأما المعية العامة فمعناها: الإحاطة التامة والعلم وقد بدأ الله سبحانه آيات المعيـة بالعلم وختمها بالعلم ليعلم عباده أن المراد بذلك علمه سبحانه بأحوالهم وسائر شئونهم ومع قرب هذا التأويل ووضوحه إلا أن الذي أحبـه أن نقول مثـلما قال الشـوكاني: «فنقول فـي مثل هذه الآيات: هكذا جاء القرآن أن الله سبحانه مع هؤلاء، ولا نتكلف تأويل ذلك كما لم يتكلف غيرنا بأن المراد بهـذا الكون وهذه المعية هو كون العلم ومـعتبه فإن هذا شـعبة من شعب التـأويل تخالف مـذاهب السلف وتباين مـا كان عليه الصـحابة والتـابعون وتابعوهم، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوزه» أ. هـ.

سابعاً: دعوتهم وجهادهم:

يقول الشيخ ابن باز حـفظه الله: «الجهاد جهادان: جهـاد طلب، وجهاد دفاع، والمقصـود منهمـا جمـيعـاً هو تبليغ دين الله ودعوة النـاس إليه، وإخراجـهم من الظلمات إلى النور، وإعلاء دين الله في أرضه، وأن يكون الدين لله وحده»، ومن هنا تكون الدعـوة إلى الله أعلى درجـات الجهـاد، ويكون القـتال وتكون الحـرب مقدمة بهذا النوع من الجهـاد ووسيلة له، وقد ألقى حفظه الله كلمة سنة ١٤٠٦هـ بمناسبـة الجهاد الأفغـاني للملاحدة الشـيوعيين جـاء فيها: «أمـا بعد بمناسبـة فراغ الحجاج من أداء مناسكهم وتقديم هديهم وضحـاياهم لله سبحانه، يسرني أن أذكر للمسلمين في كل مكان بإخوان لهم يقدمون أنفسهم وأموالهم جهاداً في سبيل الله وإعـلاء لكلمتـه وحمـاية لأوطان المسلمين، وإنقـاذاً لها من مكائد العـدو الظالم الغاشم، وهم إخواننا في الله والمجاهدون في سبيله...

وإن إخوة الإسـلام لها حقـوق وواجبات، ونصـرة المسلمين بعضهم بعـضاً من الفرائض التي افترضها رب العزة من فوق سبع سموات...

فمـساعدة إخـواننا المجاهدين والمهاجـرين الأفغان ومناصـرتهم فرض عين على المسلمين اليـوم بالمال و،النفس أو بأحدهما حـسب الإستطاعـة وخاصة أصـحاب الكفايات والإمكانات من دعاة وأطباء ومهندسين ومعلمين...

وإن صرف الزكاة للمجاهدين عامة من أوجب الواجبات وأعظم القربات كما أن نصرة هذا الجهاد من أعظم الواجبات على المسـلمين ترجيحاً لمصلحة الدين ونصرة المسلمين ومراعاة لمقاصد الشريعة، لأن الجهـاد في أفغانستان يمر بمرحلة حساسة إما أن ينتصـر المسلمون وإما أن تنـتصر الشـيوعية، والـعياذ بالله، التي إن انتـصرت فستعمل على مـسح القرآن والسُنَّة من أفغانستان وستعـمل على اجتثاث الدين من أصـوله، وهذه هي الماحقـة والعـياذ بالله، ولا يمكن للـمسلم أن يتـردد لحظة في اختيار نصرة المسلمين الأفغان على الشيوعية الكافرة المدمرة فكيف يتردد مسلم بعد هذا في مسـاندته ومعاونتـه للمجاهدين الأفـغان؟ كما يـجب على المجاهدين بذل مزيد من الجهد لتوحيد صفوفـهم وجمع كلمتهم وإصلاح ذات بينهم وختاماً أسأل الله العلي العظيم أن يجمع كلـمة المجاهدين على الحق وأن يوحد صـفوفهم، وأن

يوفق المسلمين حكاماً ومحكومين إلى مساندتهم ونصرتهم، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته ويصلح أحوال المسلمين في كل مكان ويمنحهم الفقه في الدين وينصرهم على عدوهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه» أ. هـ.

بإختصار: الجهاد له سبيله وصراطه، ولا يستطيع مخلوق إبطاله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(١)، ومنه جهاد الدفع -أي: دفع الكفار عن ديار المسلمين- وجهاد الطلب -أي: طلب الكفار في عقر دارهم- والسلفيون إذ ينطقون بما نطق به الكتاب والسُّنَّة ويتابعون النبي ﷺ وسلف الأمة لا يسعهم التخلف عن نصرة الدين بالنفس والمال، وما ينكرونه من تهور واندفاع وازهاق لنفوس الأبرياء وانقلابات وصدام مع السلطات. . . وغير ذلك من مظاهر العنف مما يسميه البعض جهاداً!!! إنما يرفضونه وينكرونه لمخالفته للضوابط الشرعية، ولما ينجر بسببه من صد عن سبيل الله(٢) وبلاء وفتن ومفاسد عظيمة، وقد ذهب الشيخ ابن عثيمين إلى تخطئة الإنقلابات، وقال: «على العاقل أن ينظر في عواقب الأمور»، ورأى الشيخ الألباني أن الإنقلابات بدعة عصرية، وأن علينا أن ننهج منهج رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله، وهو في هذا يقول: «وكل دعوة إلى إسلامية الدستور في ظل الفساد القائم لا تعدو كونها لفظاً للزينة، إذ ليس من الحكمة معالجة الأمور الشكلية بل الواجب هو العمل للأهم فالأهم، والأهم هنا هو إصلاح عقائد المسلمين وتزكية التقوى والدعوة على أساس التصفية من البدع والتربية على التوحيد» وينتقد الشيخ حفظه الله بعض الدعاة الذين «لا شغل لهم إلا تثقيف أتباعهم بالسياسة والاقتصاد ونحو ذلك مما يدور عليه كلام أكثر الكتاب اليوم حوله، ونرى فيهم من لا يقيم الصلاة! ومع ذلك فهم جميعاً يسعون إلى إيجاد المجتمع الإسلامي وإقامة الحكم الإسلامي، وهيهات هيهات إن مجتمعاً كهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا بدأ الدعاة إليه بمثل ما بدأ به رسول الله ﷺ من الدعوة إلى الله، حسبما جاء في كتاب الله وبينه رسول الله ﷺ» أ. هـ.

---

(١) الصف: ٨.

(٢) راجع كتابنا: «تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد».

وقول الشيخ الألباني في هذه المسألة يتفق مع قول كثير من أصحاب الدعوات المعاصرين.

يقول المودودي في كتاب «واجب الشباب اليوم - محنة الجماعة الإسلامية»: «أيها الأخوة الكرام وأحب في ختام كلمتي هذه أن أوجه إليكم نصيحة هي أن لا تقوموا أبداً بعمل جمعيات سرية لتحقيق الأهداف ولا تلجأوا إلى استعمال العنف والقوة والسلاح لتغيير الأوضاع لأن هذه أيضاً من الاستعجال ومحاولة الوصول إلى الهدف بأقصر طريق وهذا الأمر أسوأ عاقبة وأكثر ضرراً من كل صورة أخرى إن الإنقلاب الصحيح السليم قد حصل في الماضي وسيحصل في المستقبل بجمعيات علنية، يكون نشاطها واضحاً وضوح الشمس في رائعة النهار لكل إنسان، فعليكم أن تنشروا دعوتكم بطريق علني وتقوموا بإصلاح قلوب الناس وعقولهم في أوسع نطاق وتسخروا الناس لغايتكم بأسلحة من الخلق الكريم والفضيلة وأن تواجهوا كل ما يقابلكم من المحن والشدائد مواجهة الأبطال فهذا هو الطريق الذي سيمكننا من عمل انقلاب عميق الجذور راسخ الأسس قوي الدعائم، كبير النفع في حق هذه الأمة المسكينة ولا يمكن لأي قوى معادية أن تقف في وجهه وأقول إن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها أما إذا استعجلتم وقمتم بانقلاب بوسائل العنف ونجحتم إلى حد ما فسيكون مثله كمثل الهواء الذي يدخل من الباب ليخرج من الشباك هذه هي النصائح التي أوجهها لكل من يقوم بأمر الدعوة» أ. هـ.

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي: «إن المؤمنين لابد أن يعملوا جاهدين لنشر دعوتهم وتبليغ رسالتهم، وتكثير عددهم وتوسيع عدتهم، وإقامة الحجة على مخالفيهم وكسب الرأي حولهم حتى يكون معهم القوة التي يقدرون بها على مواجهة أعدائهم وقال: وهنا يأتي شرط لابد منه لاستحقاق النصر والتمكين، هو الصبر على الأذى وطول الطريق، والثبات في مواجهة الاستفزاز والتحدي».

وجاء في شهادة الأستاذ سيد قطب قوله: «وحدثته أنا عن تفكيرنا الذي انتهينا إليه من ناحية منهج الحركة وضرورة بدئه من شرح حقيقة العقيدة قبل النظام والشريعة، ومن التكوين الفردي قبل التنظيم الجماعي، ومن عدم محاولة فرض النظام الإسلامي عن طريق إحداث إنقلاب من القمة، وبالذات عدم إضاعة الجهد

بالتدخل في الأحداث السياسية الحالية الجارية» أ.هـ.

فالتشريعات وحدها لا تصنع أمة ما لم يتواكب معها تغيير في النفوس بحيث يجعل أبناء الأمة في مستوى هذه التشريعات الرفيعة وهذا يحتاج إلى أساس عريض وعميق، والزمن في هذا يقاس بعمر الدعوات والأمم وليس بعمر الأفراد، ولا شك أن كل مسلم يهمه قيام الدولة الإسلامية التي يكون الحكم والتشريع فيها لله وحده، وعلى كل مسلم بذل جهده لتحقيق هذا المطلب الغالي إلا أن بعض الوسائل أصوب وأنفع من بعض للوصول لهذا المطلب ولنعلم أن إظهار العمل الإسلامي بصورة المنافس علي الحكم الراغب في السيطرة على مقاليد الأمور يسئ إلى الدعوة نفسها فليس الهدف أن نحكم ولكن الهدف أن نُحكم بشرع الله ولابد أن نحمي دعوتنا من شبهة التطلع والرغبة في الحكم وبين العمل لمرضاة الله وتطبيق شرعه فلنبدأ بغرس العقيدة في النفس والتربية علي معاني الإيمان والتحلي بالأخلاق الإسلامية، ونستعين بالله في إيجاد القاعدة الإيمانية ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾(1)، وهذا الطريق الذي يبدو بطيئاً وطويلاً جداً، وهو أقرب الطريق وأسرعها وأصحها بإذن الله، وإذا كان البعض قد حجر واسعاً ورأى أن الجهاد هو دخول البرلمان أو الإنقلابات والاتحادات، وتوهم فريق آخر أن مسالك العنف والقتل والتنفير وترويع الآمنين ستحقق له قيام الدولة الإسلامية فهذا وغيره لا يلزم السلفيين، واتهامهم بالجبن التخاذل لايفت في عضدهم ولا يثنيهم عن التزامهم بالكتاب والسُّنَّة والرجوع لسلف الأمة، والدعوة والجهاد حسب استطاعتهم، وإن أردت شاهداً على ذلك فانظر في حياة الشيخ عبد العزيز بن باز بقية السلف الكرام، والذي يصدق عليه قول القائل: «لم ترا العين مثله ولم يرى هو مثل نفسه»، فدعوته وجهاده بالليل والنهار، لا يمل ولا يكل أطال الله في عمره نصحاً للحكام والمحكومين ونصرة وتوضيحاً وبياناً لمعانى الدين وبذلاً في سبيل رب العالمين، ولا يتبرم بأحد وقد جمع الله القلوب على محبته فعلمه وعمله وعبادته وأخلاقه وسعة إدراكه للشرع والواقع، تؤهله لأن يكون فقيه عصره، وأحد مجددي هذا القرن ورائداً من رواد الإصلاح الحقيقيين وتجعله من أقرب الناس شبهاً بشيخ الإسلام ابن تيمية.

(1) الروم: ٤، ٥

فطنته وحيطته وهمته رحمه الله

كان شيخ الإسلام رحمه الله أثناء علاجه لبعض حالات الصرع لربما سمع الجني يتكلم على لسان المصروع ويقول: «أنا أتركه كرامة لك» فيجيبه ابن تيمية ويقول: «لا ولكن طاعة لله» وذلك لأن الله تعالى نهى عن الظلم، فالإنتهاء عنه يجب أن يكون لوجه الله، لا كرامة للمخلوقين.

وفي إحدى المعارك مع التتار، صاح السلطان: «يا خالد بن الوليد» تفاؤلاً للفتح فصرخ به شيخ الإسلام وقال له: «قل إياك نعبد وإياك نستعين» وقل ما كان يقول رسول الله ﷺ: **«اللهم أنت عضدى، وأنت ناصرى وبك أقاتل»** فصدع السلطان لتوجيه شيخ الإسلام ابن تيمية، كل ذلك وشيخ الإسلام ابن تيمية يقاتل العدو أشد ما يكون القتال حتى يقول تلميذه ابن القيم: «لقد شاهد العسكر يومئذ من قوة شيخ الإسلام أمراً عظيماً». وقال الإمام ابن كثير: «وجرت خطوباً عظيمة وقُتل خلقاً كثيراً من كبار الأمراء وقتل من العدو ما لا يعلم عدده إلا الله وما إن اقترب العصر حتى التوت صفوف العدو وتنزلت من قدس الله ريح النصر، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة فأعز جنده وحفظ أمته»!. هـ.

وقد فهم شيخ الإسلام من قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾[1]، إن النصر آت لابد فأقسم أنهم منصورون أكثر من سبعين يميناً، والأمراء يعجبون من هذه الثقة، فيقولون له: «قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً» مستشهداً بالآية[2].

ومن تتبع فتاواه رحمه الله علم مدى فطنته وحيطته، ولقد صاحب همة عالية، فهو العالم المجاهد الذاكر الصوام، القوام، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، البار بأمه الكاظم لغيظه والعافي عن خصومه... كل ذلك وغيره تجمع فيه، فكان شخصية ذات جوانب متعددة، والأمر الذي يستحثنا على بذل الوسع في تكميل معالم الشخصية الإسلامية التي تستطيع النهوض من كبوتها وإقامة دين الله تعالى، وإلا فالبعض منا إذا برع في الفقه نسى معاني التوحيد، ومن أجاد الحديث في

(١) الحج: ٦٠

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٤٨٩).

في الرقائق لا يستطيع الإجابة عما لا يسع المسلم جـهله، ومن بر أمه أساء معاشرة زوجته، ومن تفـوق في دراسته أهمل الدعوة وتركهـا والعكس، وهذا وغيره يدل على انحطاط الهمم، ولقد صارت التخصصات بعيدة عن الدين من جهة[1]، وما انتسب منها إلى دين الـله أصبح كالجزائر المستـقلة في حياتنا، ومعظمهـا بعيد عن العمل والدعوة إلى الله!!!

وتكفي نظرة عابرة علـى المدارس والمعاهد والكليات الشـرعية لتدرك صـدق ما ذكرناه ولا نقـول ذلك انتقاصـاً لأحد أو تقليلاً من قـدر أحد بعينه، بقـدر ماهي نصيحة عساها تشحذ الهمة حتى ترتفع بإرتفاع دعوة الإسلام علماً وعملاً وجهاداً.

١- راجع كتابنا «صور من الطغيان المادى المعاصر».

الفارق الكبير بين تعظيم ابن تيمية للصحابة ونظرة الشيعة لهم

ذكر شيخ الإسلام معتقده بشأن الصحابة رضى الله عنهم في كتابه العقيدة الوسطية فقال: «ومن أصول أهل السُّنَّة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب محمد رسول الله ﷺ كما وصفهم الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وطاعة النبي ﷺ في قوله: **«لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»**[2]، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسُّنَّة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم فيفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل وهو صلح الحديبية على من أنفق من بعده وقاتل ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بالله تعالى قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشراً «اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم» وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي ﷺ بل رضي الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة ويشهدون بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ كالعشرة وكثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ويقرون بما تواتر بالنقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، أن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر رضي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه ويثلثون بعثمان رضي الله عنه ويربعون بعلي رضي الله عنه كما دلت عليه الآثار وكما أجمع الصحابة رضي الله عنهم على تقديم عثمان رضي الله عنه في البيعة... وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضي الله عنهم، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصاً خديجة أم أكثر أولاده رضي الله عنها، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها...

---

(١) الحشر : ١٠

(٢) رواه مسلم

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ومن طريقة الواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو مكذوب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير من وجهه والصحيح منه هم منه معذورون: إما مجتهدون مصيبون أم مجتهدون مخطئون...» إلى أن قال رحمه الله: «ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما منَّ الله به عليهم من الفضائل عَلِمَ يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى»أ.هـ.

فراجعه وتأمله، وقارن بينه وبين اعتقاد الشيعة وتنقصهم لصحابة رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين ولعنهم وتكفيرهم لبعض من الصحابة، الذين هم خيار أولياء المتقين، وانظر لكلام شيخ الإسلام في «منهاج السنَّة» في معرض رده على ابن المطهر الحلي حيث بيَّن أن البغض للصحابة الكرام دليل على ما في القلب من غل وخبث فقال: «أكبر خبث للقلوب ومرضها أن تنطوي على بغض أولئك الرجال العظام الذين كانوا خيار المؤمنين ورعيل أولياء الله الأول وتاج مفرقهم»، وأوضح أن الطاعن في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إما منافق زنديق عدو للإسلام يتخذ الطعن عليهما زريعة للطعن على شخصية رسول الله ﷺ وعلى الإسلام وفي هذه الحال عاش المعلم الأول للرافضة وتلك هي معاملة أئمة الباطنية، وإما جاهل غال في إتباع هواه وجهله، وهذه هي حال العامة من الشيعة، وذكر تناقضهم في تعظيمهم لمحمد بن أبي بكر بينما يقدحون في شأن والده أبي بكر، وقد وصف مناقب الصحابة ومناقبهم بأنها متواترة قطعية، وإن كانوا ليسوا معصومين من الخطأ، وأنهم لا نظير لهم في التاريخ، قال: «فمن استقرء أخبار العالم في جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقاً على الهدى والرشد، وأبعد عن الفتنة والتفرق والأختلاف من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك إذ يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]، وقد أصاب ابن تيمية في قوله: «كل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن

(١) آل عمران: ١١٠

والعلم والمعارف والعبادات ودخول الجنة والنجاة من النار وانتصارهم على الكفار وعلو كلمة الله فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدين وجاهدوا في سبيل الله، وكل مؤمن آمن بالله فالصحابة رضي الله عنهم لهم عليه فضل إلى يوم القيامة، وكل خير فيه الشيعة وغيرهم فهو ببركة الصحابة، وخير الصحابة تبع لخير الخلفاء الراشدين فهم كانوا أقوم بكل خير في الدين والدنيا من سائر الصحابة»، وأوضح أن خلافة أبي بكر الصديق دليل على النبوة والصدق ومما يظهر أنه رسول حق ليس ملكاً من الملوك فإن عادة الملوك إيثار أقاربهم والموالاة بالولايات أكثر من غيرهم.

ثم انتساب الرافضة إلى ولد الحسين ومدحهم لهم مصيبة عليهم، فالشيعة أصدقاء حمقى لأهل البيت، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «من المصائب التي ابتلي بها ولد الحسين انتساب الرافضة إليهم وتعظيمهم ومدحهم لهم، فإنهم يمدحونهم بما ليس بمدح ويدعون لهم دعاوى لا حجة لها، ويذكرون من الكلام ما لو لم يعرف فضلهم من كلام غير الرافضة لكان ما تذكره الرافضة بالقدح أشبه منه بالمدح».

بقي أن نقول: إذا كان هذا هو مسلك الشيعة مع صحابة رسول الله ﷺ، فإن قوماً أرادوا إبعاد الأمة عن الخلافة الإسلامية وعن دين ربها، فلم يجدوا إلا الحط من شأن الصحابة، والافتراء عليهم بحيث زوروا التاريخ، وصوروا الأفاضل على أنهم طلاب ملك، ودنيا!! ولأمثال هؤلاء نذكر قول أبي أيوب السختياني: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنهم أرادوا أن يجرحوا شهودنا ليعطلوا العمل بالكتاب والجرح بهم أولى وهم زنادقة، فالصحابة رضي الله عنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ويكفيهم ثناء ومدح الله ورسوله الله ﷺ لهم، حتى وإن طعن فيهم الشيعة وأشباه الشيعة».

عقيدة المعتزلة وفرقهم

اعلم أن أول بدعة ظهرت بدعة القدر، وهي أن الإنسان خالق لأفعاله، وبدعة الإرجاء وهي أن المعصية لا تضر مع الإيمان، وبدعة التشيع وفي مقابلهم الخوارج، هؤلاء يؤلهون علياً رضي الله عنه وأولئك يكفرونه، وهذه البدع ظهرت في القرن الثاني والصحابة رضي الله عنهم موجودون، وقد أنكروا على أهلها، ثم ظهرت بدعة الإعتزال، فنفوا الرؤية والصفات وقالوا بخلق القرآن والمنزلة بين المنزلتين، فوافقوا الخوارج مآلاً في تكفير مرتكب الكبيرة، وخالفوهم مقالاً، وكان أول من اعتزل مجلس الحسن البصري واصل بن عطاء رئيس المعتزلة، وقد سموا معتزلة لاعتزالهم حلقة الحسن وأصحابه، وسموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد، لقولهم بوجوب ثواب المطيع وعقاب العاصي على الله تعالى.

ورفيق واصل في الإعتزال وقرينه عمرو بن عبيد، ثم خلفه الجبائي أبو علي، وكان الإمام الأشعري من أصحابه ثم فارقه، والمعتزلة عشرون فرقة، يضلل بعضهم بعضاً، وكثير من أقوال جهم بن صفوان توافق أقوالهم الهزلية، وإن كانت المعتزلة كلهم جهمية، فقد نقل غير واحد من العلماء، أن أول من حفظ عنه أنه قال مقالة التعطيل للصفات في الإسلام الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد القسري، وأخذ عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت إليه.

قال السفاريني نقلاً عن شيخ الإسلام: «وقد قيل أن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر، الذي سحر النبي ﷺ، وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة، بقايا أهل دين النمرود الكنعاني ، والنمرود هو ملك الصابئة المشركين. . . وأخذ عنهم الجهم أيضاً فيم ذكر الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه عن السمنية وبعض فلاسفة الهند، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات»[1]. هـ.

والجهم كان يدعوا الناس إلى مذهبه الباطل وهو أن الله تعالى عالم لا علم له، وقادر لا قدرة له، وكذا في سائر الصفات، والمعتزلة طائفة ضالة منحرفة في

أصولها عن عقيدة أهل السُنَّة والجماعة، وعقائدها ما زالت موجودة يُروج لها في الجامعات والكتب، ولها دعاتها لا كثر الله منهم، وقد فند شيخ الإسلام شبهات المعتزلة ورد عليهم بردود وافرة.

رأى شيخ الإسلام فى المتكلمين:

علم الكلام المنهي عنه هو المشحون بالفلسفة والتأويل، وصرف الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة والأخبار النبوية عن حقائقها الباهرة، وقد ذم السلف الصالح الخوض في علم الكلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه التأويلات التي ذكرها ابن فورك ويذكرها الرازي في «تأسيس التقديس» ويوجد منها في كلام غالب المتكلمة مثل الجبائي وعبد الجبار وأبو الحسن البصري وغيرهم، وهي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي القائل بخلق القرآن في أيام الرشيد وأراد قتله فاختفى... ونقل قول الشافعي: «ما رأيت أحداً ارتدى بالكلام فأفلح، ولما كلمه حفص الفرد من أهل الكلام قال: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله تعالى عنه خلا الشرك بالله عز وجل خير له من أن يبتلى بالكلام»، وقال: «حكمي في أصحاب الكلام أن يصفعوا وينادى بهم في العشائر والقبائل: هذا جزاء من ترك السُنَّة وأخذ الكلام»[1].

وقال الإمام أحمد: «عليكم بالسُنَّة والحديث وما ينفعكم، وإياكم والخوض والمراء فإنه لا يفلح من أحب الكلام» أ.هـ.

وقال ابن تيمية في الفتوى الحموية وغيرها من تصانيفه ما ملخصه: «وقد تدبرت كتب الاختلاف التي فيها المقالات مثل كتاب الأشعري المؤلف أولاً، والشهرستاني والوراق، أو مع انتصار لبعض الأقوال كسائر ما صنف أهل الكلام، فرأيت عامة الاختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم، وأما ما كان عليه السلف فلا يوجد فيها، والحاذق منهم الذي غرضه الحق يصرح بالحيرة في آخر عمره، إذ لم يجد في الاختلافات التي نظر فيها وناظر ما هو حق محض، وكثير منهم ترك الجميع ورجع إلى دين العامة، كما قال أبو المعالى -أي: الجوينى-: «لقد خضت

١- لقد أصبح التوحيد عبارة عن علوم كلامية سفسطية فلسفية تقسى القلب، كما هو مشاهد فى الجوهرة التى تدرس بالأزهر، فأين هذا من التوحيد المبنى علي نصوص الكتاب والسنة، راجع كتاب: «معارج القبول» لتتبين الفارق بين كلايهما.

في البحر الخضم، وخليت الإسلام ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي، وكذلك الشهرستاني مع أنه أخبر من هؤلاء بالمقالات وصنف كتابه المعروف «الملل والنحل» وقال فيه:

لقد طفت فى تلك المعاهد كلها وسرجت طرفى يتلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر علي ذقن أو قارعاً سن نادم

فأخبر أنه لم يجد إلا شاكاً مريباً، أو من اعتقد ثم ندم لما تبين منه خطؤه الأول، وكذلك الأموي الغالب عليه الحيرة، وأما الرازي فهو في الكتاب الواحد بل في الوضع الواحد منه ينصر قولاً وفي موضع آخر منه أو من كتاب آخر ينصر نقيضه، ولهذا استقر الأمر على الحيرة وذكر أبياته:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذي ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول دهرنا سوي أن جمعنا فيه قيل وقال

وقوله: «فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً» وهو صادق فيما أخبر به، إنه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع قيل وقالوا، وأنه لم يجد فيها ما يشفي عليلاً، ولا يروي غليلاً، فإن من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة لمذهب السلف الذي عليه المعقول والمنقول، بل يذكر في المسألة عدة أقوال، وقول السلف الذي هو الحق لا يعرفه ولا يذكره، وكذا غيره من أهل الكلام مختلفون في آرائهم، وكثير منهم من يجعل ما يوافق رأيه هو المحكم الذي يجب اتباعه، وما يخالف رأيه هو المتشابه الذي يجب تأويله وتفويضه، وإذا ذكرت النصوص التي يحتج بها عليه يتأولها تأويلاً لو فعله غيره لأقام القيامة عليه، ويتأول الآيات بما يعلم بالأضطرار أن الرسول ﷺ لم يرده، وبما لا يدل عليه اللفظ أصلاً...» أ.هـ.

نقل العلامة السفاريني عند شرح قوله:

وربنـا يخلـــق باختــيـــار	**من غـيــر حـاجـة ولا اضطرار**
لكنه لا يخلـق الخلـق سـدي	**كـمـا أتي في النص فاتبع الهـدي**

ما نصه: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه: «ونشأ من هذا الاختلاف نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم في مسألة التحسين والتقبيح العقلي، فأثبت ذلك المعتزلة والكرامية وغيرهم، ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم رضي الله تعالى عنهم، ونفى ذلك الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، واتفق الفريقان على أن الحسن والقبح إذا فسر بكون الفعل نافعاً للفاعل ملائماً له، وكونه ضاراً للفاعل منافراً له أنه تمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع وظن من ظن من هؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا، وليس كذلك، بل جميع الأفعال التي أوجبها الله تعالى وندب إليها هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم، وجميع الأفعال التي نهى الله تعالى عنها هي ضارة لفاعليها ومفسدة في حقهم والحمد والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له، والذم والعقاب المترتب على معصيته ضارٌ للفاعل مفسدة له»أ.هـ.

قال شيخ الإسلام: «لأهل السُّنَّة في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه قولان، والأكثرون على التعليل والحكمة»أ.هـ.

وقد أقام شيخ الإسلام البراهين على إثبات الحكمة والعلة في أفعال الباري سبحانه ومنه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[2]، يتضح مما ذكره شيخ الإسلام في مسألة التحسين والتقبيح أن قوله وسط بين الغالي والجافي فبينما أنكر الأشاعرة أن يكون للعقل والفطرة أي دور في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح ويقولون مرد ذلك إلى الشرع وحده، وهذا مع منافاته للنصوص مكابرة للعقول، وهو رد فعال مغال في

(١) القيامة: ٣٦ (٢) المؤمنون: ١١٥

الوقت ذاته لقول البراهمة والمعتزلة أن العقل يوجب حسن الحسن وقبح القبيح وقد ترتب على قول الأشاعرة هذا من الأصول الفاسدة قولهم أن الشرع قد يأتي بما هو قبيح في العقل، فإلغاء دور العقل بالمرة أسلم من نسبة القبح إلى الشرع، وتوهموا أنهم بهذا يدافعون عن الإسلام!!!

وقد ذكرنا أنه لا تعارض بين نص صحيح وعقل صريح وبذلك يصطلح كل فريق على حقه، ويندفع اللبس ويزول الإشكال.

عقيدة الأشعري

نشأ الأشعري في حجر الجبائي -شيخ المعتزلة في عصره- وتلقى علومه على يديه حتى تصدر المعتزلة وتزعمهم ودافع عنهم، ثم أعلن البراءة من الإعتزال وخرج إلى المسجد ونادى بأعلى صوته أيها الناس: «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة، ومخرج لفضائحهم ومعايبهم». ثم انتقل إلى بغداد واتصل فيها بأتباع الإمام أحمد، وفي هذا الطور ألف الأشعري كتابيه الأخيرين: «مقالات الإسلاميين»، و«الإبانة»، الذي أقام فيه الحجة على مذهب السلف، وكل ما يخالف طريقته في هذين الكتابين مما ألفه قبل ذلك في طور مكافحته للإعتزال بمقاييسه قد رجع عنه إلى ما في «الإبانة»، وقد أعلن الأشعري في «الإبانة» منهجه فقال: «قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا، وسُنَّة نبينا وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أحمد بن حنبل قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل الرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين، قال: وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وأن محمداً رسول الله، وأن الله إله أحد لا إله إلا هو فرد صمد، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق والنار حق، ،وأن الساعة

آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله مستو على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١)، وأن له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾(٢)، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(٣)، وأن له عينين بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾(٤)، وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً، وأن لله علماً كما قال: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾(٥)، ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفي ما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج، ونثبت أن لله قوة كما قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾(٦)، ونقول أن كلام الله غير مخلوق، وأن لا يكون في الأرض شئ من خير أو شر إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٧) وأنه لا خالق إلا الله، وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٨)، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون كما قال: ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٩)، وهذا في كتاب الله كثير، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره، ونقول: أن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال بخلق القرآن فهو كافر، وندين بأن الله يُرى في الآخرة بالأبصار كما يُرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ، ونقول: إن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المومنون في الجنة كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(١٠)، وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، ونقول. إن من عمل كبيرة مثل الزنا أو السرقة مستحلاً لها كان كافراً، ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وندين لله بأنه يقلب القلوب بين أصبعين من أصابع الله كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ونسلم بالروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات وبالسمعيات وخبر الآحاد.

---

(١) طه : ٥ — (٢) الرحمن : ٢٧
(٣) ص : ٧٥ — (٤) القمر : ١٤
(٥) النساء : ١٦٦ — (٦) فصلت : ١٥
(٧) النحل : ٤٠ — (٨) الصافات : ٩٦
(٩) النحل : ٢٠ — (١٠) المطففين : ١٥

وندين بحب السلف ونثني عليهم بما أثنى الله به عليهم، ونتولاهم أجمعين، ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ «أبو بكر» وقدمه المسلمون بالإمامة كما قدمه رسول الله ﷺ ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان وأن الذين قاتلوه وقتلوه ظلماً وعدواناً ثم علي بن ابي طالب، فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ وخلافتهم خلافة النبوة... ونكف عما شجر بينهم... ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا خلافاً لمن قال من أهل الزيغ والتضليل...، ونقول: إن الله يجيئ يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[1]، وأن الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2]، ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل بر وفاجر وغيره...، ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان وأن من مات وقتل فبأجله...، وندين لله بأنه يعلم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون وما كان وما لا يكون وبطاعة الأئمة وبصحبة المسلمين ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الهوى» أ.هـ.

الفرق بين عقيدة الأشاعرة والأشعرى:

مذهب الأشاعرة، له وجوده الواقعي الضخم في كتب التفسير وشروح الحديث وكتب البلاغة واللغة والأصول والعقائد كما أن له جامعاته ومعاهده في أكثر بلاد الإسلام، ولم يصدر من شيخ الإسلام مدح مطلق للأشاعرة أبداً وإنما غاية مدحه لهم، أن يصفهم بأنهم أقرب من غيرهم وأن مذهبهم **مركب من الوحي** والفلسفةأو يمدح المشتغلين منهم بالحديث لا لكونهم أشاعرة، ولكن لأشتغالهم بالسُّنَّة مع سؤال المغفرة لهم فيما وافقوا فيه متكلمي مذهبهم، لكن هذا أقل بكثير من المواضع التي صرح فيها بتبديعهم وتضليلهم وفساد منهجهم، ومن جملة ما قاله[3]: «أما من قال منهم بكتاب الإبانة الذي صنفه الأشعري في آخر عمره، ولم يظهر مقالة تناقض ذلك فهذا من أهل السُّنَّة لكن مجرد الإنتساب إلى الأشعري بدعة لا سيما أنه بذلك يوهم حسناً لكل من انتسب هذه النسبة وينفتح بذلك أبواب شر».

---

(١) الفجر: ٢٢ (٢) ق: ١٦

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥٩/٦).

ويرى ابن تيـمية في «نـقض المنطق صـ١٦»: «أن الأشعـري كان أقـرب إلى قول الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السُّنَّة والحديث»، وقـد ذكر ابن تيمية أن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة، سلك طريـق أهل السُّنَّة والحديث وانتسب إلى الإمام أحمد كما ذكر في كتاب «الإبانة بتحقيق أصول الديانة» و«مقالات الإسلاميين».

والثابت تاريخيـاً أن مذهب الأشاعرة لم ينتشر إلا في القـرن الخامس أثر انتشار كتب البـاقلاني ومن المعلـوم أن إمام الأشعـرية المتأخـر الذي ضبط المذهب وقـعد أصوله هو الفخـر الرازي ثم خلفه الآمدي والرموي فنشر فكره في الشـام ومصر، وأعـقبـهم الأرجي صـاحب المواقف الذي يعـتـبر الـتقنين والتـنظيم لفكر الرازي ومدرسته، وهذا الكتاب هو عمدة حيرتهم وتوبتهم ورجوعهم إلى مذهب السلف.

قال الإمام أبو الحسن الكـرجي من علماء القرن الخامس الشافعـية ما نصه: «لم يزل الأئمة الشافـعية يأنفون و يستنـكفون من أن ينسبوا إلى الأشعـري ويتبرأون مما بني الأشـعري مـذهبـه عليه -أي: قـبل رجـوعه إلى مـا في «الإبانة»- وينهـون وأحبابهم عن الحوم حـواليه على ما سمعت من عدة من المـشايخ والأئمة وضرب مثالاً بشيخ الشافـعية في عصره الإمام أبو حامد الإسـفرائيني الملقب بـ: «الشافعي الثالث» قـائلاً: «ومعلوم شدة الشـيخ على أصحاب الكلام حـتى ميز أصول فـقه الشافعية من أصول الأشعري»، وحتى لووافق قـول الأشعري وجهاً لأصحابنا ميزه وقال «هو قـول بعض أصحـابنا وبه قالت به الأشعـرية» ولم يعدهم من أصـحاب الشافعي. استنكفوا منهم ومن مذهبهم في أصول الفقه فضلاً عن أصول الدين»أ.هـ.

وقال ابن خويز منداد: «أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فـهو من أهل الأهواء والبدع أشعـرياً كان أو غير أشعـري ولاتقبل له شهادة في الإسلام أبداً ويهجر ويؤدب على بدعته فإن تمادى عليها استتيب منها».

ويعتبر ابن كـلاب المؤسس الحقيقي للمذهب الأشعري وقد بدعـه الإمام أحمد ولم يزل الحنابلة معهم في معركة طويلة منذ ذلك الوقت، والخلاف بين أهل السُّنَّة والأشاعرة لا يقتـصر على باب الصفات بل يتعدى ذلك إلى مـصدر التلقي، وقد صـرح الجـويني والرازي والبـغـدادي والغـزالي والآمـدي والأرجي وابن فـورك

والسنوسي وشراح الجوهرة وسـائر أئمتهم بتقديم العـقل على النقل عند التعارض مـخالفين بـذلك ما كـان عليـه سلفنا الصـالح من تقـديم النقل على العـقل عند التعارض، والصوفية من الأشاعـرة يقدمون الكشف والذوق على النص، واعتبروا أن السُنَّة لا يثبت بها عقيدة بل المتواتر منها يجب تأويله وآحادها لا يجب الإشتغال بها حتى على سبيل التأويل!!

والأشاعرة في الإيمان مرجئـة جهمية فقد اعتـبروا أن الإيمان هو التصديق القلبي ويعتـبروا التـأويل أصل منهجـي من أصول الأشاعـرة ولذلك حرفـوا الكلام عن مواضعه فيما يتعلق بالصفات والوعد والوعيد والعصمة وزيادة الإيمان ونقصانه. . .

كما خالفوا أهل السُنَّة في مسائل تتعلق بالإيمان والقرآن والقدر(١)، وقد عقدوا لشيخ الإسلام ابن تيميـة محاكمة كبرى بسبب تأليفه «العـقيدة الواسطية» وكان من أهم التهم الموجـهة إليه أنه قـال في أولها: «فهـذا اعتقـاد الفرقة الناجـية. . .» إذ وجدوا هذا مخالفاً لما تقرر لديهم من أن الفرقة الناجية هي الأشاعرة والماتريدية.

فمـا كان من شـيخ الإسلام إلا أنه أحـضر أكثـر من خمـسين كتابـاً من كتب المذاهب الأربعة وأهل الحـديث والصوفيـة والمتكلمين كلها توافق مـا في الواسطية وبعضها ينقل إجماع السلف على مضمـون تلك العقيدة وتحداهم قائلاً: قد أمهلت من خالفني في شئ منهـا ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحـد عن أحد من القرون الثلاثة. . . يخالف ما ذكرت فأنا أرجع عن ذلك».

---

(١) راجع رسالة «منهج الأشاعرة فى العقيدة» د/ سفر الحوالى

قال رحمه الله في «العقيدة الواسطية»: «ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1]، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سميّ له، ولا كفئ له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى، فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه، ثم رسله صادقون مصدقون، بخلاف الذين يقولون ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾[2].

فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات، فلا عدول لأهل السُّنَّة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وساقه رحمه الله بعض الآيات التي اشتملت علي صفات الله ثم قال : فالسنة تفسير القرآن وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه، وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها وساق بعض هذه الأحاديث إلى أن قال: «فإن الفرقة الناجية أهل السُّنَّة والجماعة يؤمنون بذلك، بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة[3]، وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه

(١) الشورى : ١١ (٢) الصافات :
(٣)المشبهة أى: الذين يشبهون الله فى صفاته بصفات خلقه.

وتواتر على رسـول الله ﷺ، وأجمع عليـه سلف الأمة من أنه سـبحـانه فوق سمواته علي عرشـه، عليٌّ على خلقه وهو سبحانه معهـم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون... وهو سبحانه فوق العرش رقـيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع إليهم إلى غـيـر ذلك من مـعـاني ربوبيـته... ودخـل في ذلك الإيمان بأنه قـريب من خلقه... وما ذكـر في الكتاب والسنَّة من قربه ومعيتـه لا ينافي ما ذكره من علوه وفوقيتـه فإنه سبحانه ليس كمثله شئ في جـميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوه قريب في علوه ومن الإيمان به وبكتبه الإيمان بأن القرآن كـلام الله منزل غير مخلوق ومنه بدأ وإليه يعود، وأن الله تعالى تكلم به حقيقة...

وقد ألف ابن تيمية في الصفات كتباً عديدة وأتى بمباحث فريدة أيد فيها مذهب السلف، وصرح بأنه معـتقد بجميع ما قـالوه نابذاً لكلام الخلف، فمن ذلك ما في فتاويه: «الحمد لله اعتقاد الشافعي رحمه الله تعالى هو اعتقاد سلف أئمة الإسلام كمـالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحـمد بن حنبل وإسـحاق بن راهويه، وهو اعتقاد المشائخ المقتدى بهم، كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاع في أصول الدين، وكذلك الإمـام أبو حنيفة رحمه اللـه تعالى، فإن الإعتقـاد الثابت عنه في التوحـيد والقدر ونحو ذلك مـوافق لاعتقاد هؤلاء، واعـتقاد هؤلاء ما كـان عليه الصحابـة والتابعون لهم بإحسـان، وهو ما نطق به الكتاب والسنَّة»، وخـتم فتاواه بقوله: «قال بعض العلماء: المعطل يعبد عدماً، والممثل يعبد صنماً، والمعطل أعمى والممثل أعـشى، ودين الله سبحـانه بين الغالي فيـه والجافي عنه، وقد قـال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1]، والسنَّة في الإسلام كـالإسلام في الملل، وأهل السنَّة وسط في الصفات بين أهل التمثيل وأهل التعطيل، وهذا هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا» أ. هـ.

لقد أخطأ أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» وجانب الحق والصواب عندما تعرض لشيخ الإسلام ابن تيـمية، ولا ندري كيف ساغ لأبي زهرة ولمن كان على شاكلته، أن يخـالف عقيدة هؤلاء الأفاضل المذكـورين، وأن يخالف الكتاب والسنَّة قبل ذلك؟!

---

(١) البقرة: ١٤٣

بعض رسائل شيخ الإسلام التى بعث بها من سجنه[١]

رسالة اعتذار إلي والدته

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقرّ الله عينها بنعمه وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه.

سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته وبعد:

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شئ قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمدٌ عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله.

ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلّت عن التعداد.

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد، إنما هو لأمور ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولوحملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم -ولله الحمد- ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على الإقامة والإستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة من خير وعافية.

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالى، فلا يظن الظان أنّا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولكن ثَمَّ أمور

١ - كتاب «رسائل من السجن» جمعها وعلق عليها محمد العبدة .وقد جاء فى كتاب «العقود الدرية»لابن عبد الهادى الحنبلى الكثير من رسائل شيخ الإسلام لمن أراد أن يطالعها.

كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها[1]، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، وقد قال النبي ﷺ: **«من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما يقسم له»**[2].

والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع بعض ماله، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمرٌ يجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً كثيراً، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار، وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحداً واحداً.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً[3].

رسالة الشيخ ابن تيمية إلي إخوانه في دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه ﷺ:

أما بعد فإن الله وحده وله الحمد قد أنعم عليّ من نعمه العظيمة ومننه الجسيمة، وآلائه الكريمة، ما هو مستوجب لعظيم الشكر، والثبات على الطاعة، واعتياد حسن السير، على فعل المأمور، والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[4]

وتعلمون أن الله سبحانه منّ في هذه القضية[5] من المنن التي فيها من أسباب

١- قال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه «ابن تيمية» صـ:٦٤: «أما الضرر العام، فإنه ضلال الناس، وأما الضرر الخاص فهو تبعة العالم بأمر إذا لم يبينه للناس، ثم هناك ضرر خاص أن ابن تيمية جاء إلى مصر متهماً في دينه، فكان من حق نفسه عليه أن يزيل الأتهام ويخرج بريئاً.

٢- علق الشيخ حامد الفقي علي هذا الحديث: رواه الترمذي وقال حديث غريب، ورواه أحمد وأبو يعلي والحاكم وقال عنه: صحيح الإسناد، وانظر العقود الدرية صـ:٢٥٨ .

٣- انظر مجموع الفتاوى (٤٨/٢٨)، والعقود الدرية (٢٥٧).

٤- هود: ٩، ١٠، ١١ .

٥- أي قضية محاكمته في مصر وسجنه حيث إذا أراد الله نشر فضيلة أتاح لها لسان حسود، فقد استطاع بذلك بث آرائه هناك.

نصر دينه وعلوّ كلمته، ونصر جنده، وعزة أوليائه، وقوة أهل السُّنَّة والجماعة، وذلّ أهل البدعة والفرقة، وتقرير ما قُرر عندكم من السُّنَّة وزيادات على ذلك بانفتاح أبواب من الهدى والنصر، والدلائل، وظهور الحق لأمم لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وإقبال الخلائق إلى سبيل السُّنَّة والجماعة، وغير ذلك من المنن ما لابد معه من عظيم الشكر، ومن الصبر، وإن كان صبراً في سراء.

وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين، تأليف القلوب واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[1]، ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[2]، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والأئتلاف، وتنهى عن الفرقة والإختلاف.

وأهل هذا الأصل: هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة.

وجماع السُّنَّة: طاعة الرسول، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: **«إن الله يرضي لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أموركم»**.

وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود -فقيهي الصحابة- عن النبي ﷺ أنه قال: **«نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه إلي من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلي من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم»**.

وقوله: «لايغل» أي لا يحقد عليهن، فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم بل يحبهن، ويرضاهن[4].

---

(١) الأنفال: ١ — (٢) آل عمران: ١٠٣

(٣) آل عمران: ١٠٥

(٤) واضح من تشديد الشيخ على الألفة والمحبة ما لاقاه من الإختلاف، وتعصب المشايخ ضده... بسبب اجتهاد يرى أنه صحيح... ثم هو يريد من هذا التمهيد الطويل أن لا يتعصب إخوانه ضد الذين آذوه كما سيذكره.

وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي فتعلمون رضي الله عنكم أني لا أحب أن يؤذى أحد من عمـوم المسلمين فضلاً عن أصحـابنا بشئ أصلاً، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا عندي عـتب على أحـد منـهم ولا لوم أصـلاً، بل هم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعـاف أضعاف ما كان كل بحسبه، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهـداً مصيباً أو مخطئاً أو مذنبـاً، فالأول: مأجور مشكور، والثاني: مع أجره على الاجـتهاد فمعفـواً عنه مغفورٌ له، والثالث: فـالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين.

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل[1]، كقول القائل: فلان قصر، فلان عمل، فلان أوذي الشيخ بسببه، فلان كان سبب هذه القضية، فلان كان يتكلم في كـيد فـلان...، ونحـو هذه الكلمـات، التي فيـهـا مذمـة لبـعض الأصحـاب والأخوان[2]، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بل إن مثل هذا يعود على قائله بالملا، إلا أن يكون له حسنة، وممن يغفر الله له إن شاء الله، وقد عفا الله عما سلف، وتعلمون أيضاً: أن ما يجري من تغليظ أو تخشين على بعض الأصـحاب والإخوان مـا كان يجري بدمـشق، ومما جرى الآن بمصر، فليس ذلك غـضاضة ولا نقصـاً في حق صاحبه، ولا حـصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدراً وأنبه ذكراً، وأحب وأعظم...

وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين، التي يصلح الله بـها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كـاليد تغسل أحداهما الأخـرى، وقد لا يتقلع الوسخ إلا بنوى من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين.

وتعلمون: أنَّا جـميعاً مـتعاونون على البـر والتقوى، واجب علينا نصـر بعضنا بعضاً، أعظم مـا كان وأشد، فمن رام أن يؤذي بعض الأصحـاب والأخوان لما قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق أو بمصر الساعة أو غير ذلك فهو الغالط.

---

١ – ليس بعد هذا الصفح وهذا التسامح شئ، وهذا لا يصدر إلا عن عالم هو وريث الأنبياء لا شك.

٢ – ربما يقصد بعض أصحابه وإخوانه في دمشق، الذين ضعفوا في هذه المحنة، ولم يستمروا على منهج شيخهم، ولذلك ينهى أصحابه أن يؤذوهم، ويعتذر لهم ويبين أن ليس في قلبه بغض لهم، بل يقدرهم، ويحبهم في الله.

وكذلك من ظن أن المؤمنين يبكلون عما أمروا به من التعاون والتناصر فقد ظن ظنّ اللوء ﴿إنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِن الْحقِّ شيْئًا﴾[1]، وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا اللاعة أو قبل اللاعة إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانت وأجل وأرفع، وتعلمون رضي الله عنكم، أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها من اجتهاد الآراء، واختلاف الأهواء وتنوع أحوال أهل الإيمان ما لابد منه من نزغات الشيطان ما لا يتصور أن يعري عنه نوع الإنلان وقد قال تعالى: ﴿وحملَها الإنسانُ إنَّهُ كَان ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ليُعذِّب اللَّهُ الْمُنافقين والْمُنافقات والْمُشْركين والْمُشْركات ويَتُوب اللَّهُ على الْمُؤْمنين والْمُؤْمنات وكَان اللَّهُ غفُورًا رَّحيمًا﴾[2]، بل أنا أقول ما هو أبلغ من ذلك تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وبالأقصى على الأدنى فأقول

تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية[3]، من الأكاديب المفتراة والأغاليط المظنونة، والأهواء الفاسدة، وأن ذلك أمر يجل عن الوصف، وكل ما قيل من كذب وزور، فهو في حقنا خير ونعمة قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذين جاءُوا بالإفْك عُصْبَةٌ مّنكُمْ لا تحْسَبُوهُ شرًا لَّكُم بلْ هُو خيْرٌ لَّكُمْ لكُلِّ امْرِئٍ مّنْهُم مَّا اكْتسب من الإثْم والَّذي تولَّىٰ كبْرَهُ منْهُمْ لَهُ عذَابٌ عظيمٌ﴾[4]، وقد أظهر الله من نور الحق وبرهانه، ما ردّ به إفك الكاذب وبهتانه، فلا أحب أن ينتصر من أحد بلبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مللم، وأنا أحب الخير لكل المللمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفلي.

والذين كذبوا وظلموا منهم في حلّ من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله: فإن تابوا تاب الله عليهم، وإلا فحكم الله نافذ فيهم، فلو كان الرجل مشكوراً علي سوء عمله، لكنت أشكر لكل من كان سبباً في هذه القضية[5]، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حلن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له. وأهل القصد الصالح يشكرون على

---

(١) يونس: ٣٦ (٢) الأحزاب ٧٢، ٧٣

(٣) قضية اتهام المشايخ له فى مواضع العقيدة وتحملهم عليه وحسدهم له ثم زجهم له فى السجن مع أن رأيه هو الصحيح.

(٤) النور: ١١

(٥) لأنه حصل بسببها خير كثير لأهل مصر، حيث قمع البدع هناك وأظهر عوارها، وألقى الدروس فى المساجد والمدارس.

قصـدهم، وأهل العمل الصالح يشكرون على عـملهم، وأهل السيئـات نسأل الله تعالى أن يتوب عليهم.

وأنتم تعلمون هذا من خلقـي، والأمر أزيد مما كان وأوكد، لكن حـقوق الناس بعضهم مع بعض، وحقوق الله عليـهم هم فيها تحت حكم الله، وأنتم تعلمون أن الصديق الأكبر في قضية الإفـك التي أنزل الله فيها القرآن، حلف لا يصل مسطح بن أثاثة، لأنه كان من الخائضين في الإفك، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، فلما نزلت قال أبو بكر: «بلى وأني لأحب أن يغفر الله لي»، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق، ومع ما ذكر من العفـو والإحسان، وأمثـاله، وأضعافـه، والجهاد على مـا بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة أمر لا بد منه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
والحمد لله رب العالمين،
وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وسلم تسليماً[3].

(١) النور: ٢٢
(٢) المائدة: ٥٤، ٥٥، ٥٦.
(٣) انظر العقود الدرية: صـ:(٢٥٩).، ومجموع الفتاوى(٢٨/٥٠).

رسالة من أخيه عبد الله يشرح فيها حال شيخ الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله بن تيمية إلى أخيه بدر الدين:

سلام الله ورحمته وبركاته على الشيخ الإمام العالم الجليل بدر الدين، وإلى الله عليه آلاءه وأتبعها، واسبغ عليه نعمه ونوعها، وجمعنا وإياه في هذه الدار على طاعته، وفي دار القرار في دار كرامته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أهل ولايته.

أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل، وهو على كل شئ قدير، وأصلي على سيد ولد آدم، وخير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد. فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة ومننه الشاملة، فمنها نزول الأخ الكريم بالثغر المحروس[1]، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً، يكيدون بها الإسلام وأهله، وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومة، وانعكست من كل الوجوه.

وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ، متقبلين لما يذكره وينشره من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، والحط والوقيعة في أعدائهما من أهل البدع والضلالات.

واتفق أنه وجد بها الفرقة الضالة فكشف أسرارهم وفضحهم واستتاب جماعات منهم، وتوّب رئيسا من رؤسائهم، واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض، وفقيه ومفت، وشيخ وعموم المجاهدين، وعلت كلمة الله به على أعداء الله ورسوله.

فنسأل الله العظيم أن يعجل تمام النقمة عليهم، وأن يقطع دابرهم وأن ينصر دينه وكتابه ورسوله.

نسأل الله العظيم أن يوفقك لما يحبه ويرضاه، وأن يتولاك في جميع الأمور.

---

١ – يقصد الإسكندرية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى السعيدة الكريمة الطيبة رضي الله عنها وأرضاها الوالدة التي منحها الله تعالى في آخر عمرها هذه الكرامة العظيمة والمنزلة الرفيعة والدرجة العلية .

وأكمل السلام وأنماه على جميع الأهل والإخوان، والأصحاب والمعارف والجيران. . .

كتب والخاطر مشغول بأمر المسلمين، والحمد لله رب العالمين، وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً[1].

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه بالإسكندرية إلي أصحابه يحثهم فيها علي التبتل والخشوع إلي الله تعالي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]

والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي الآخرة، وأتم عليه نعمته الظاهرة والباطنة، فإني - والله العظيم الذي لا إله إلا هو - في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال، هذا ويعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيمان، وما هو مطلوب من الأولين والآخرين من العلم والإيمان.

فإن اللذة والفرحة والسرور، وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية، وقد قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها: (إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب)، وقال آخر: «لتمُرُّ على القلب أوقاتٌ يرقص فيها طرباً، وليس في الدنيا يشبه نعيم الآخرة، إلا نعيم الإيمان والمعرفة»، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: **«أرحنا بالصلاة يابلال»**، ولا يقول أرحنا

1- العقود الدرية صـ:٢٧٢ .   2- الضحى : ١١

منهـا كمـا يقول من تثـقل عليه الصـلاة كمـا قال تعـالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(١)، والخشـوع: الخضوع لله تعـالى والسكون والطمأنينة إلـيه بالقلب والجوارح، وكان النبي ﷺ يقول: «**حُبِّبَ إلي من دنياكم النساء والطيب**»، ثم يقول: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»، ولم يقل حُبِّبَ إلَّي من دنياكم ثلاث، كما يرفعه بعض الناس، بل هكذا رواه الإمام أحمد والنسائي، إن المحبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وأما قرة العين فتحصل بحصول المطلوب وذلك في الصلاة.

والقلوب فيهـا وسواس النفس، والشيطان يأمر بالشـهوات والشبهات مـا يفسد عليه طيب عيشها. فمن كان محبـاً لغير الله فهو معذب في الدنيا والآخرة فإن نال مراده عُذِّب به، وإن لم ينله فهو في العذاب والحسرة والحزن.

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه، ولا تكن محـبته إلا بالاعـراض عن كل محبوب سـواه، وهذا حقيـقة لا إله إلا الله، وهي ملة إبراهيم الخليل عليـه السلام وسائر الأنبـياء والمرسلين صلاة الله وسـلامه عليهم أجمعين.

وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «**قولوا أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبـينا محـمـد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفـاً مسلمـاً ومـا كـان من المشركين**».

والخير كله في متابعة النبي ﷺ النبي الأمي الذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وأكثر الناس لا يعرفون حـقائق ما جاء به، إنما عندهم قسط من ذلك: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(٢)، والإنسان ظالم جاهل كـما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(٣) وإنما غاية أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين التـوبة، ولهذا كان الدين مـجموعـاً في التوحيـد والإستغفـار قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾(٤)، ففـعل جميع المأمورات وترك جـميع المحظورات، يدخل في التوحيد في قول لا إله إلا الله.

والعبد إذا أنعم الله عليـه بالتوحيد، فشهد أن لا إله إلا الله مـخلصاً من قلبه،

(١) البقرة: ٤٥ (٢) محمد: ١٧
(٣) الأحزاب: ٧٢ (٤) فصلت: ٦

حلاَّه الله بالأمن والسرور والحبور والرحمة للخلق. والخوف الذي يحصل في قلوب الناس هو الشرك الذي في قلوبهم قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا﴾[1]، وفي الحديث الصحيح: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»**.

ولما خوَّفوا الخليل عليه السلام بما يعبدونه ويشركون به، قال الخليل: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] ولهذا قال الإمام أحمد لبعض الناس: «لو صححت لم تخف أحداً»[3]، وكل من وافق الرسول ﷺ في أمره فله نصيب من قوله: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[4]، فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر، هي لما جاء به إلي يوم القيامة، وهذا قد دل عليه القرآن، وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه، ومن شنأ ما جاء به الرسول ﷺ، فله من ذلك نصيب: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[5]، ولهذا قال أبو بكر بن عياش: «ولكن أهل السُنَّة يبقون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم، وذلك أن أهل البدعة شنؤوا ما جاء به الرسول ﷺ فأبترهم بقدر ذلك، والذين أعلنوا ما جاء به النبي ﷺ فصار لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[6]

وكل من دعا غير الله فهو مشرك، والعيان يصدق هذا، فإن المخلوقين إذا اشتكى إليهم الإنسان فضررهم أقرب من نفعهم، وهذا باب واسع قد كتبت فيه شيئاً كثيراً، وعرفته علماً وذوقاً وتجربة.

وفي الجملة: ما يبين نعم الله التي أنعم بها عليّ وأنا في هذا المكان، وأعظم قدراً وأكثر عدداً مالا يمكن حصره، وأكثر ما ينقص عليّ الجماعة[7]، فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات...

والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير، ونحن بحمد الله في زيادة من نعم الله، وإن لم يمكن خدمة الجماعة باللقاء، فأنا أدع لهم

١- آل عمران: ١٥١   ٢- الأنعام: ٨١
٣- أي: لو صححت إعتقادك.   ٤- التوبة: ٤٠
٥- الكوثر: ٣   ٦- الشرح: ٤
٧- يقصد إخوانه في دمشق.

بالليل والنهار قيـاماً ببعض الواجب من حقهم، وتقرباً إلى الله تعـالى في معاملته فيـهم، والذي آمر به كل شخص منهم: أن يتق الله ويعـمل لله، مستـعيناً بالله، مجاهداً في سبيل الله، ويكون دعاؤه وغيره بحسب ذلك كما أمر الله به رسوله.

اللهم اغفـر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمـات، وألِّف بين قلوبهم، وأصلح ذات بينهم، وانصرهم على عدوك وعدوهم وجنبهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

اللهم انصر كتابك ودينك وعبـادك المؤمنين، اللهم عذِّب الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيلك ويبدِّلون دينك.

اللهم أنزل بأسك الذي لا يردُّ عن القـوم المجرمين، اللهم مـجري السـحاب، ومنزل الكتاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم. . .

ربنا أعنَّا ولا تعن علينا، وانصـرنا ولا تنصر علينـا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، وانصرنا على من بغى علينا. . .

ربنا اجعلنا لك شاكرين مطاوعين مخبتين. . .

ربنا تقبل توبتنا، واغسل حوبتنا، وثبت حـجتنا، وسدد ألسنتنا، واسلل سخائم صدورنا. . .

والحـمد لله ناصـر السُنَّة وخـاذل أهل البدعـة، وصلى الله على مـحمـد وآله وصحبه وسلك تسليماً كثيراً[1].

---

١ – انظر مجموع الفتاوى (٢٨/٣٠).

رسالة إلي أهله من القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعلمون أنَّا بحمد الله في نعم عظيمة، ومنن جسيمة وآلاء متكاثرة وأياد متظاهرة، لم تكن تخطر لأكثر الخلق ببال ولا تدور لهم في خيال، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.

والحق دائماً في انتصار وعلوّ وازدياد، والباطل في انخفاض وسفال ونفاد، وقد أخضع الله رقاب الخصوم، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه.

ونحن والحمد لله، قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسُنَّة وانقماع الباطل والبدعة، وقد دخلوا في ذلك كله، وامتنعنا حتي يظهر ذلك إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولم نجبهم إلى مطلوبهم، حتى يصير المشروط معمولاً، والمذكور مفعولاً، ويظهر من عز الإسلام والسُنَّة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم.

وكذلك جرى من الأسباب التي عز الإسلام وذل المشركين مما هو من أعظم نعم الله على عباده المؤمنين، ووصف هذا يطول.

وقد أرسلت إليكم كتاباً أطلب ما صنفته في أمر الكنائس، وهي كراريس بخطّي، قطع النصف بلدي، فترسلون ذلك إن شاء الله تعالى، وتستعينون على ذلك بالشيخ «جمال الدين المزي»، فإنه يقلب الكتب ويخرج المطلوب، وترسلون أيضاً من تعليق القاضي «أبي يعلى» الذي بخط القاضي «أبي الحسن» إن أمكن الجميع، وهو أحد عشر مجلداً، وإلا فمن أوله مجلداً أو مجلدين أو ثلاثة...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رسالة من سجن القلعة بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

(ونحن ولله الحمد والشكر في نعم عظيمة، تتزايد كل يوم، وخروج الكتب كان من أعظم النعم، فإني كنت حريصاً على خروج شئ منها لتقفوا عليه، وهم كرهوا خروج «الأخنائية» فاستعملهم الله في اخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس، فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله.

وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد ولو كان مبغضاً، والأوراق التي فيها جوابتكم وصلت، وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا، ونحن في نعم عظيمة لا تحصي ولاتعد، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

وكل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]

ثم مُنع عن الشيخ الأقلام والحبر، فبعث بهذه الرسالة إلى إخوانه وقد كتبها بالفحم، وبقى الشيخ بالقلعة حتى أتاه اليقين.

يقول في آخر رسالة له:

(«سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة، وجميع ما يفعله الله في نصر للإسلام: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2]، ومن سنَّة الله أنه إذا أراد إظهار دينه، أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، والذي سعى فيه حزب الشيطان، لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ، بل مخالفة لدين جميع المرسلين إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليهم أجمعين.

وكانوا قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب، وجزعوا من ظهور «الأخنائية» فاستعملهم الله تعالى حتى أظهروا أضعاف ذلك،

١- يوسف : ١٠٠

٢- انظر مجموع الفتاوى: (٤٧/٢٨)، والعقود الدرية: (٣٢٨) - التوبة : ٣٣

ومقـصودهم إظهار عـيوبه، فلم يجدوا إلا مـا هو حجة عليـهم، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا عيباً في الشرع والدين، بل غاية ما عندهم: أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين[1]، والمخلوق كـائناً من كـان، إذا خالف أمـر الله تعـالى ورسـوله لم يجب، بل ولا يجوز طاعته.

وقول القائل: إنه يظهر البدع، كلام يظهر فساده لكل مستبصر، ويعلم أن الأمر بالعكس، وهذه قضية كـبيرة لها شأن ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[2]، وكانوا يطلبون تمام «الأخنائية»، فعندهم ما يطمهم أضعافها وأقوى فقهاً منها، وما فعلوه هو جهل منهم، فقد دخلـوا في شئ ما كانوا يعرفونه، والأمـر أعظم مما ظهر لكم، ونحن ولله الحـمد على عظيم الجـهـاد في سبـيله، بل جهـادنا في هذا مـثل جهـاد يوم «قازان»[3]، والجبلية والجهمية، والاتحادية[4]، وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون...).

---

١ – يقصد مرسوم السلطان قلاوون في منعه بالأفتاء في قضية الطلاق، ومسألة شد الرحال لزيارة القبور، ولكنه رفض هذا لأنه لا يكتم العلم.

٢ – ص : ٨٨ .

٣ – ملك التتار الذى ناقشه ابن تيمية وشدد عليه، ثم قاتلهم بنفسه فى موقعة شقحب.

٤ – أصحاب القول بالإتحاد بين الخالق وبين الخلق وهم كفرة.

حديثه عن الحسد كمرض نفسي

يقول رحمه الله:

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾(١)

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾(٢)

ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وكذلك مرض القلب هو نوع من فساد يحصل له إما بالشبهات أو بالشهوات، كما فسر مجاهد وقتادة قوله: ﴿في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك، وتارة يفسر بشهوة الزنا، كما فسر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ﴾(٣)، ومرض القلب: ألمٌ يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك.

قال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾(٤) وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب، قال النبي ﷺ:

«هلا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء العيّ السؤال».

ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

والقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له، والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، صار القلب يزكوا بها قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(٥)، وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب، قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾(٦)، وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾(٧)، وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب.

ولهذا قال يحيى بن عمار العلوم خمسة: فعلم هو حياة الدنيا وهو علم التوحيد، وعلم هو غذاء الدين وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث، وعلم هو دواء الدين وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها، وعلم هو

---

(١) البقرة : ١٠
(٢) الإسراء : ٨٢
(٣) الأحزاب : ٣٢
(٤) التوبة : ١٤
(٥) التوبة : ١٠٣
(٦) النور : ٢١
(٧) فصلت : ٦، ٧

داء الدين وهو الكلام المحدث، وعلم هو هلاك الدين وهو علم السحر ونحوه.

وقال بعض السلف: «إن للحسنة لنوراً في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسواداً في الوجه. ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق»، وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1] وضرب الله مثلاً لنور الإيمان في قلب المؤمنين: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، وفي الدعاء المأثور: **«اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا»**.

والربيع: هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات، والقلب الحي المنور، فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[3]، والقلب الحي يكون صاحبه فيه حياء يمنعه من القبائح، والحياء مشتق من الحياة. ولهذا قال النبي ﷺ: **«الحياء من الإيمان»**.

والميت الذي لا حياة فيه يسمى وقحاً، والوقاحة: الصلابة وهو اليبس المخالف للرطوبة، فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه، لم يكن في قلبه حياة توجب حياء».

ومن أمراض القلوب الحسد: وهو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود، وهو نوعان:

كراهية للنعمة عليه مطلقاً، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم فيكون ذلك مرضاً في قلبه.

والنوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي ﷺ حسداً في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال:

---

(١) الأنعام: ١٢٢ (٢) النور: ٣٥

(٣) فصلت: ٥

«لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها، ورجلاً آتاه الله مالاً فسلطه علي هلكته فى الحق»، ولفظ ابن عمر: **«رجل آتاه الله القرآن فهو يقـوم به آناء الليل والنهـار، ورجل آتاه الله مـالاً فـهـو ينفق منه فى الحق أناء الليل والنهار»** رواه البخارى، فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

وأما من أحب أن ينعم الله عليـه مع عدم التفاته إلى أحـوال الناس، فهذا ليس عنده من الحسـد شئ، ولهذا يبـتلى غالب الناس بهذا القـسم الثاني، وقـد تسمى المنافسـة كما يكره المستـبقان كل منهـما أن يسبقـه الآخر، والتنافس ليس مذمـوماً مطلقاً، بل هو محمود في الخير قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1]، فـأمر المتنافس أن ينافس فـي هذا النعيم، لا ينافس فـي نعيم الدنيـا الزائل، وهذا موافق لحديث النبي ﷺ فإنه نهى عن الحسـد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلّمه، ومن أوتي المال فهو ينفقه، لم يذكر المجاهد لأن النفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم، وإن كـان المجـاهد في سـبيل الله أفضـل من الذي ينفق المال، وكـذلك لم يذكـر النبي ﷺ المصلي والصـائم والحـاج، لأن هذه الأعمـال لا يحصل منها في العادة نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسوّدونه، ما يحصل بالتعليم والإنفاق.

والحسد في الأصل: إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة، ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع، من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وكذلك فيمن لـه أتباع بسبب إنفاق مـاله، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب، وهذا ينـفعهم بقوة الأبدان، ولهـذا ضرب الله سبـحانه مثلين: مـثلاً بهذا، ومـثلاً بهذا فـقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] والمثلان ضربهمـا الله سبحانه لنفسه المقـدسة ولما يعبُد من دونه، فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينـفع ولا على كلام ينفع، ولهذا كان

(١) المطففين: ٢٦ (٢) النحل: ٧٥، ٧٦

الناس يعظمون دار العباس، فقد كان عبد الله يُعلم الناس وأخوه يطعم الناس[1]، فكانوا يُعظِّمون علي ذلك، ورأى «معاويـة» الناس يسألون «ابن عمر» عن المناسك وهو يفتيهم فقال: «هذا والله الشرف» أو نحو ذلك.

هذا وعـمـر بن الخطاب نافس أبا بكـر رضي الله عنه الإنفـاق كـمـا ثبت في الصحـيح عن عمر بن الخطاب قـال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصـدق فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبـقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك؟»**، قلت: مثله.

وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فـقال له رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك؟»**، فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شئ أبداً».

فكان ما فعله عمر من الحسد والغبطة المباحة، لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً لا ينظر إلى حال غيره.

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيـدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور، فكانوا أرفع درجـة ممن عنده منافسـة وغبطة، وإن كـان ذلك مباحـاً، ولهذا استحق «أبـو عبيدة» رضي الله عنه أن يكون أمين هذه الأمـة، فإن المؤتمن إذ لم يكن في نفسه مزاحمة على شئ مما أؤتمن عليه، كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته.

وفي الحديث الذي رواه الإمـام أحمد في مسـنده عن أنس رضي الله عنه قال: «كنا جلوسٌ عند رسول الله ﷺ فـقال: **«يطلع عليكم الأن من هذا الفج رجلاً من أهل الجنة»** قال: فطلع رجـل من الأنصار تنطف لحيـته من وضـوئه، قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلمـا كان من الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مقالته، فطلع ذلك الرجل على مـثل حاله، فلما قـام النبي ﷺ أتبعه عـبد الله بن عـمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فـعلت، قال: نعم، قال أنس رضي الله عنه: فكان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليـال فلم يره يقوم من الليل شيئاً،

---

١ - هو عبيد الله بن العباس وكان أصغر من أخيه عبد الله بسنه استعمله على اليمن، ومات رضى الله عنه بالمدينة سنة ٨٧هـ وكان سخياً جواداً ينحر كل يوم جزوراً.
انظر كتاب «الأعلام» للزركلى (٣٤٩/٤).

غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر، فقال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً.

فلما فرغنا من الثلاث وكدت أن أحقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فاقتدي بذلك، فلم أراك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق».

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١)، أي مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة: أي حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون.

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك.

وأما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾(٢) ثم هذا الحسد، إن عمل صاحبه بموجبه كان ظالماً متعدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه، وقد ابتلى «يوسف» بحسد إخوته له، ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقائه في الجب وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفار فصار مملوكاً لقوم كفار . . .

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس، ولهذا يقال: «ما خلا جسد من حسد، ولكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه، فمن وجد في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه، وكثير من الناس الذين عندهم دين، لا يعتدون

---

(١) الحشر: ٩ (٢) البقرة: ١٠٩

على المحسود، ولكنهم أيضاً لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمَّه أحد لم يوافقوه عن ذمه ولم يذكروا محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه، مفرطون في ذلك، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضاً في مواضع، ولهذا قيل أول ذنب عصي الله به ثلاثة: الحرص والكبر والحسد...

فالحرص من آدم، والكبر من إبليس، والحسد من قابيل.

وفي السنن عن النبي ﷺ: **«دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء وهي الحالقة: لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»**، فسماه داء، كما سمى البخل داء في قوله: **«وأى داء أدوأ من البخل؟!»**.

فعلم أن هذا مرض، وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء، لأن الحاسد يكره أولاً فضل الله على ذلك الغير، ثم ينتقل إلى بغضه، والحسد يوجب البغي كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا: حيث بغى بعضهم على بعض كما يبغي الحاسد على المحسود فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها، بل وحبها لما يضرها، والقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى، وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده، والرسل صلى الله عليهم بُعِثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها، وإذا كان القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين لم يبتل بالأمراض.

فصحة القلب بالإيمان تحفظ، من العلم النافع والعمل الصالح، فليحرص المؤمن على كمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين، وليكن هجيراه: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بها تُحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، ينال رفيع الأحوال.

والحمد لله رب العالمين... وله الحمد والمنة على الإسلام والسنَّة.

وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً[1].

١- مجموع الفتاوى (٩١/١٠).

رسالة إلي السلطان

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، وولي أمر المؤمنين، ونائب رسول الله ﷺ في أمته، بإقامة فرض الدين وسُنَّته، وأيده الله تأييداً يصلح به له وللمسلمين أمر الدنيا والآخرة، ويقيم به جميع الأمور الباطنة والظاهرة، حتى يدخل في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(١)، وفي قوله ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»**

وقد استجاب الله الدعاء في السلطان، فجعل فيه من الخير الذي شهدت به قلوب الأمة ما فضله به على غيره، والله المسؤول أن يعينه، فإنه أفقر خلق الله إلى معونة الله قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٢)، وصلاح أمر السلطان بتجريد المتابعة لكتاب الله وسُنَّة رسوله ونبيه، وحمل الناس على ذلك، فإنه سبحانه جعل صلاح أهل التمكين في أربعة أشياء: إقام الصلاة، وإتياء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا أقام الصلاة في مواقيتها جماعة هو وحاشيته وأهل طاعته، وأمر بذلك جميع الرعية، وعاقب من تهاون في ذلك العقوبة التي شرعها الله، فقد تم هذا الأصل، ثم إنه مضطر إلى الله تعالي، فإذا ناجى ربه في السحر واستغاث به وقال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»، أعطاه الله من التمكين ما لا يعلمه إلا الله.

ثم كل نفع وخير يوصله إلى الخلق، هو من جنس الزكاة، فمن أعظم العبادات سد الفاقات، وقضاء الحاجات، ونصر المظلوم وإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف، وهو الأمر بما أمر الله به ورسوله من العدل والإحسان، وأمر نواب البلاد وولاة الأمور باتباع حكم الكتاب والسُّنَّة، واجتنابهم حرمات الله، والنهي عن المنكر والنهي عما نهى الله عنه ورسوله.

وإذا تقدم السلطان أيده الله بذلك في عامة بلاد الإسلام، كان فيه من صلاح الدنيا والآخرة له وللمسلمين ما لا يعلمه إلا الله، والله يوفقه لما يحبه ويرضاه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٤١).

---

(١) الحج: ٤١ (٢) النور: ٥٥

رسالة فى أهمية وشروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

يقول رحمه الله تعالي:

الأمر بالمعروف من خصائص هذه الأمة:

(وصف الله سبحانه هذه الأمة بما وصف به نبيها قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة»، وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بمعروف، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك، والذين جاهدوا كبني إسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم، لا لدعوة إلى الهدى والخير، ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة، لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . . .).

المعروف والمنكر:

(ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود، ويجب على أولي الأمر، وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها، أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر، فيأمرونهم بشرائع الإسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها والصدقات المشروعة والصوم المشروع، وحج البيت الحرام، ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ومثل إخلاص الدين لله، والتوكل عليه الرجاء لرحمة الله، والخشية من عذابه، والصبر لحكم الله، والتسليم لأمر الله، ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود، وأداء الأمانات إلى أهلها . . .

وأما المنكرُ الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه: الشرك بالله، وهو أن يدعوا مع الله إلهاً آخر كالشمس والقمر، أو ملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء أو رجل من الصالحين.

ومن المنكر كل ما حرمه الله كقتل النفس بغير الحق وأكل أموال الناس بالباطل والربا والميسر وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين، والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله . . .)

---

(١) آل عمران : ١١٠

أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشروطه:

(وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال، وأفضلها وأحسنها.

وقد قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]، وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه»، فإن كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنَّة.

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شئ».

وإذا كان هذا حد كل عمل صالح، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون هكذا في حق نفسه، ولا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه، وكما قال عمر بن عبد العزيز: «من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»، وكما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «العلم إمام العمل والعمل تابعه»، فلابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولابد من العلم بحال المأمور والمنهي، ولابد في ذلك من الرفق، كما قال النبي ﷺ: **«ما كان الرفق فى شئ إلا زانه وما كان العنف فى شئ إلا شانه»**[2].

ولابد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً علي الأذى، فإنه لابد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وكما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[3] ولهذا أمر الله الرسل -وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- بالصبر، كقوله لخاتم الرسل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[4]، فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالإنذار، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

فلابد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه والصبر بعده، وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، وفقيهاً فيما ينهى عنه،

---

(١) الملك: ٢ (٢) رواه مسلم.
(٣) لقمان: ١٧ (٤) المدثر: ١، ٧

رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه».

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يوجب صعوبة على كثير من النفوس، فيظن أنه بدون هذه الخصال أو أقل، فإن ترك الأمر الواجب معصية، فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه: أن المعاصي سبب المصائب، وأن الطاعة سبب النعمة.

وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون في الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة، كما ذكر ذلك في سور: النازعات، والمزمل، والحاقة، والقمر وغافر... إلخ.

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرق والإختلاف والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً، ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها، ومن تبعهم من العامة من الفتن: هذا أصلها[1])[2].

١- أى إما عدم إنكار أو إنكار فيه أخطاء
٢- مجموع الفتاوى (١٢١/٢٨، ١٧٠) بتصرف.

مسائل الإيمان والكفر[1]

١- الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[2]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، فسمى الصلاة إيماناً، وقال سبحانه: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[3] وقال النبي ﷺ **«الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»** فالإيمان قول باللسان وإقرار بالجنان (القلب) وعمل بالأركان.

٢- من مات على التوحيد دخل الجنة يوماً من الدهر، يصيبه قبل هذا اليوم ما يصيبه لأحاديث الشفاعة وفضل الشهادة.

٣- من مات على الشرك بعد بلوغ الرسالة فهو مخلد في النار أبداً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[4]، وأما من لم تبلغهم الرسالة فهم من أهل الإمتحان في عرصات القيامة كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة.

٤- المسلم الذي يرتكب الكبائر ويصر عليها (أي لا يتوب منها) لا يكفر بفعلها ولا يخلد في النار لو دخلها في الآخرة مالم يستحلها لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[5]، وهذه الآية في غير التائب لأن التائب من الشرك مغفور له فالآية إذن فيمن مات على الشرك، ولكن ينقص إيمان المرء بمعصيته وفسقه لقول النبي ﷺ **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»** رواه مسلم.

٥- من رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة بغير دخول النار إلا تحلة القسم، ومن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أصحاب الأعراف ومآلهم إلى الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته استحق دخول النار.

٦- ومن استحق دخول النار من عصاة الموحدين فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، -فالناس يدورون بين فضل وعدل في الدنيا والآخرة- ومن هذا الصنف من يدخل النار بلا شك ولكن المسلم لا يدخل النار دخول الكفار ولا

(١) راجع كتابي «ضوابط شرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية والوحدة الإسلامية».
(٢) البقرة: ١٤٣ (٣) الفتح: ٤
(٤) النساء: ٤٨ (٥) النساء: ١١٦

يعذب فيها عذاب الكفار ولا يخلد فيها خلود الكفار.

٧- لا يختلف أهل السُّنَّة في أن تارك النطق بالشهادتين مع القدرة عليها كافر مخلد في النار، حتى لو اعتقد صحتها بقلبه دون النطق لقوله ﷺ: **«يخرج من النار من قال لا إله إلا الله»**.

٨- الخلاف فيمن ترك الأركان الأربعة تكاسلاً لا جحوداً -وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج- من مسائل الإجتهاد عند أهل السُّنَّة لا يبدع المخالف فيها ولا يفسق وليست كمسألة مرتكب الكبيرة، فمن كفر مرتكب الكبيرة كالزنا والسرقة أو حكم بخلوده في النار -كالخوارج والمعتزلة- فهو مبتدع.

وأما من كفر تارك الصلاة -وهي أشهرها- فهو مجتهد مأجور على أي حال، وكذا من لم يكفره كفراً ينقل عن الملة فهو مجتهد، وهذه المسألة مما يسوغ فيها الخلاف عند أهل السُّنَّة، وإن كان جمهور فقهائهم يقولون عنه كفر دون كفر، أما تركها جحوداً فكفره معلوم من الدين بالضرورة.

٩- ومثله الخلاف في تكفير بعض طوائف أهل البدع مما ليس فيه إجماع عند أهل السُّنَّة بل هو من مسائل الإجتهاد، كالخوارج ومتأخري القدرية والمعتزلة والروافض والجمهور على عدم تكفيرهم.

١٠- لا يكفر مسلم معين ثبت له حكم الإسلام إلا بعد بلوغ الحجة التي يكفر المخالف لها، نقل الإجماع عليه ابن حزم وأقره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السُّنَّة، سواء كان خلافه في الأصول أو الفروع وهذه الحجة يقيمها عالم ذو سلطان مطاع بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير ويحيٰ من حيّ عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة (نقلناه عن شيخ الإسلام).

١١- يثبت حكم الإسلام بالنطق بالشهدتين بالنص والإجماع، نقله ابن رجب وغيره، وكذا بالولادة لأبوين مسلمين لحديث **«كل مولود يولد على الفطرة»** متفق عليه.

والولد يتبع المسلم من والديه، ومن توقف في الحكم بالإسلام لمن نطق بالشهادتين أو وُلد مسلماً ولم يُعلم عنه شرك ولا ردة، فهو مبتدع لمخالفته إجماع السلف الصالح على ذلك، ولا يستثنى من ذلك إلا من يقولها حال كفره فلابد من نطقها مع البراءة من الكفر.

١٢- استمرار عصمة الدم والمال لمن دخل في الإسلام متوقف على التزامه بالصلاة والزكاة وسائر حق الإسلام كما في الحديث **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...»** الحديث رواه مسلم.

١٣- يجب الحذر في الجملة من تكفير من قد عُلم إسلامه بيقين لقول النبي ﷺ **«من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»** وقال: **«لعن المؤمن كقتله»**.

فثبوت عقد الإسلام بيقين لا يزحزح بشك، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات فأولى ثم أولى أمر التكفير، ولأن يخطئ الحاكم في العفو خيراً من أن يخطئ في القصاص، وكان الإمام مالك يقول: «لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهاً واحتمل الإيمان من وجه لحملته على الإيمان تحسيناً للظن بالمسلم»، وكان الإمام أحمد يقول لعلماء وقضاة الجهمية: «أنا لو قلت قولكم لكفرت، ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جهال»، يقول ابن تيمية: «ونحن نعلم بالضرورة أن رسول الله ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعي أحداً من الأحياء والأموات ولا الأنبياء ولا غيرهم، ولا بلفظ الاستعانة، ولا بلفظ الإستغاثة، ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لهم السجود لحي ولا إلى ميت، ونحو ذلك بل نعلم أنه نهي عن ذلك كله وأنه من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ» أ. هـ. وإذا كان الناس اليوم قد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قياماً يتأكد معه أن يحيى من حي عن بينة، وأن يهلك من هلك عن بينة، فعلينا بدعوتهم والرفق بهم وتعليمهم ما جهلوه من دين الله لا المسارعة في تكفيرهم، وهذه عقيدتنا وعقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي عقيدة أهل السنّة والجماعة.

أنواع الإختلاف الواقع بين المسلمين

ينقسم الخلاف الواقع بين المسلمين إلى اختلاف التنوع واختلاف التضاد كما بينه شيخ الإسلام: «خلاف تضاد، وخلاف تنوع، فالأول مثل أن يوجب هذا شيئاً ويحرمه الآخر، والثاني: مثل القراءات، التي يجوز كل منها، وأنواع التشهدات والاستفتحات، وغير ذلك» أ. هـ.

فتاوي الشيخ بدمشق
وبعض اختياراته التى خالف فيها المذاهب الأربعة أو بعضها

ثم إن الشيخ رحمه الله بعد وصوله من مصر إلى دمشق واستقراره بها، لم يزل ملازماً للإشتغال والأشـغال، ونشر العلم وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس، بالكلام والكتابة، المطولة وغـيرها، ونفع الخلق والإحسـان إليهم، والإجتـهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه إجـتهاده، من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعـضها قد يفتى بخـلافها، أو بخلاف المشـهور من المذاهب، ومن اختيارته التي خالفهم فيها، أو خالف المشهور من أقولهم: القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً، طويلاً كان أو قصـيراً، كما هو مذهب الظاهرية، وقول بعض الصحابة، والقـول بأن البكر لا تستبرأ وإن كانت كـبيرة، كما هو قـول ابن عمر، واختـاره البخـاري صاحب الصـحيح، والقـول بأن سجـود التلاوة لا يشـترط له وضوء، كمـا يشترط للصلاة كما هو مـذهب ابن عمر، واختيار البـخاري أيضاً، والقول بأن من أكل في شهر رمضـان معتقداً أنه ليل فبان نهاراً لا قـضاء عليه كما هو الصـحيح عن عـمر بن الخطاب رضي اللـه عنه، وإليه ذهب بعض التـابعين، وبعض الفقهاء بعـدهم، والقول بإن المتمتع يكفيه سـعي واحد بين الصفا والمروة، كما هو في حق القارن، والمفرد، كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل، رواها عنه ابنه عبد الله وكثير من أصحاب الإمام أحمد لا يعرفـونها، والقـول بجواز المسابقـة بلا محلّل، وإن خرج المـتسابقـان، والقول باستبراء المختلعة بحيضة، وكـذلك الموطوءة بشبهة، والمطلقة آخر ثلاث تطليقات، والقول بإباحة وطء الوثنيات بملك اليمين، والقـول بجواز عقد الرداء في الإحرام، ولا فـدية في ذلك، وجـواز طواف الحائض، ولا شئ عـليهـا، إذا لم يمكنهـا أن تطوف طاهرا، والقول بجواز بيـع الأصل بالعصير، كالزيتـون بالزيت، والسمسم بالشيـرج، والقول بجواز الوضـوء بكل ما يسمى ماء، مـطلقاً أو مقيـداً، والقول بجواز بيع ما يتـخذ من الفضة للتحلي وغيـره، كالخاتم ونحوه، بالفضة مـتفاضلا وجـعل الزائد من الثمن في مـقـابلة الصنعة، والقـول بأن المائع لا ينجس بوقـوع

النجاسة فيه إلا أن يتغير، وقليلاً كان أو كثيراً، والقول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة باستعمال الماء، والقول بجواز التيمم في مواضع معروفة، والجمع بين الصلاتين في أماكن مشهورة، وغير ذلك من الأحكام المعروفة من أقواله، وكان يميل أخيراً لتوريث المسلم من الكافر الذمي، وله في ذلك مصنف وبحث طويل ومن أقواله المعروفة المشهورة التي جرى له بسبب الإفتاء بها محن وقلاقل: قوله بالتكفير في الحلف في الطلاق، وأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة، وأن الطلاق المحرم لا يقع، وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة منها:

قاعدة كبيرة سماها «تحقيق الفرقان بين التطليق والأيمان» نحو أربعين كراسة، وقاعدة سماها «الفرق المبين الطلاق واليمين» بقدر النصف من ذلك وقاعدة أن جميع أيمان المسلمين مفكرة (مجلد لطيف) وقاعدة في تقرير أن الحلف بالطلاق من الأيمان حقيقة، وقاعدة سماها «التفصيل بين التكفير والتحليل»، وقاعدة سماها «اللمعة»، وغير ذلك من القواعد والأجوبة في ذلك لا ينحصر ولا ينضبط، وله في ذلك جواب اعتراض، ورد عليه من الديار المصرية، وهو جواب طويل في ثلاث مجلدات، بقطع نصف البلدي.

بعض أسباب الخلاف بين ابن تيمية وغيره من الفقهاء في التعامل مع النصوص

شيخ الإسلام ابن تيمية، هو أحد العلماء المجتهدين، فقد حصل أدوات النظر وأسباب الإجتهاد وبالتالي فهو لا يقلد غيره، ولا يفتي إلا بما يغلب عليه ظنه، أن هذا هو حكم الله، وشأنه شأن غيره من علماء الأمة المجتهدين، يصيب ويخطئ، والحاكم إذا أجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وقد تختلف أنظار العلماء حول نفس النصوص، ويفرق ابن تيمية بين خلاف وآخر فيقول: «نعم من خالف الكتاب المستبين والسُّنَّة المستفيضة خلافاً لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع»، ويوضح أن أبا بكر وعمر كانا يتناظران في المسألة لا يقصدان إلا الخير»، ويعيب التقاطع والتدابر مع كل مسألة يختلف فيها مسلمان، ويبين أنه لن يبقي بسبب ذلك أخوة إيمانية، وعلى ضوء ذلك لابد من التفريق بين خلاف الصوفية والشيعة والخوارج لأهل السُّنَّة، فهذا خلاف غير منجبر، وبين خلاف العلماء في مسائل قصر الصلاة والطلاق بالثلاثة في المجلس الواحد، وقد خالف ابن تيمية بعض الفقهاء لأسباب منها:

١- مراعاة مقاصد التشريع فيما يذهب إليه من توجيه النصوص، وذلك على نحو يندفع به التعارض بين ظاهر النص وبين ما تقرر من استقراء مجموع النصوص من المقاصد المعتبرة، فقد كان يرى أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنها ترجح خير الخيرين، ودفع شر الشرين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين بتحمل أدناهما، كما كان رحمه الله يتوخى تحقيق معنى التيسير والتوسعة على الناس فيما يذهب إليه من توجيه النصوص وذلك في إطار ما أثبته الشرع ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]، ولقول النبي ﷺ: **«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**، ومن ذلك ذهابه إلى جواز بيع المغيبات في الأرض كالجزر واللفت والقلقاس بالرغم مما في ذلك من الغرر لأحتياج الناس إلى هذه البيوع، ولأن الشرع يبيح للناس ما يحتاجون إليه ولا يحرمه عليهم لأجل نوع من الغرر.

٢- الإعمال أولى من الأهمال، فطالما أن النصوص متكافئة من حيث الثبوت

(١) التغابن: ١٦

والدلالة فيعمل بها كلها من غير إهمال لواحد منها، ولا يكره منه شئ كتنوع صفة الأذان والإقامة والقراءات والتشهدات واستفتاح الصلاة وأنواع الحج -قران وتمتع وإفراد- إذ ليس لأحد أن يكره ما سنَّه رسول الله ﷺ، ويكون من تمام السُنَّة فعل هذا تارة ، وهذا تارة، وهذا في مكان وهذا في مكان، فإذا حدث التعارض بين النصوص يعمل بالأصح والأشهر.

٣- من جملة أسباب الخلاف تعليق الشرع الحكم بما لا حد له في اللغة ولا في الشرع، ويرى ابن تيمية أن الصواب في ذلك هو الرجوع إلى عرف أهل الخطاب، والتعويل عليه في بيان المقصود، وفي ذلك يقول: «الأسماء التي علق الله بها الأحكام في الكتاب والسُنَّة: منها ما يعرف حده ومسماه بالشرع فقد بينه رسول الله ﷺ كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ومنها ما يعرف حده باللغة كالشمس والقمر والسماء والأرض والبر والبحر، ومنها ما يرجع حده إلى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عادتهم: كاسم البيع، والنكاح، والقبض والدرهم والدينار، ونحو ذلك من الأسماء التي لم يحدها الشرع بحد، ولا لها حد واحد، فيشترك فيها جميع أهل اللغة، بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس، فما كان من النوع الأول فقد بينه الله ورسوله، وما كان من النوع الثاني والثالث فالصحابة والتابعون مخاطبون بالكتاب والسُنَّة قد عرفوا المراد منه لمعرفتهم بمسماه المحدود في اللغة أو المطلق في عرف الناس وعادتهم من غير حد شرعي ولا لغوي، وبهذا يحصل التفقه بالكتاب والسُنَّة، ومن ذلك اسم الحيض علق الله به أحكاماً متعددة في الكتاب والسُنَّة ولم يقدر لا أقله ولاأكثره، ولا الطهر بين الحيضتين مع عموم بلوى الأمة بذلك واحتياجهم إليه، واللغة لا تفرق بين قدر وقدر، فمن قدر في ذلك حداً فقد خالف الكتاب والسُنَّة، والعلماء منهم من يحد أكثره وأقله، ثم يختلفون في التحديد، ومنهم من يحد أكثره دون أقله، والقول الثالث أصح أنه لا حد لأكثره ولا لأقله، بل ما رأته المرأة عادة مستمرة فهو حيض وإن قدر أنه أقل من يوم استمر بها دائماً فهذا قد علم أنه ليس بحيض لأنه قد علم من الشرع واللغة أن المرأة تكون طاهرة تارة وتكون حائضاً تارة» (مجموع الفتاوى١٩/ ٢٣٥).

٤- لم يكن شيخ الإسلام يقول بمقتضى النص متغافلاً عن ملابسات وروده

وقرائن الحال المصاحبة له، بل كان يضم إلى النص النصوص التي تكشف عن ملابسات وروده، وتفصح عما اقترن به من الأسباب الباعثة عليه، إذ قد يفهم من النص أنه مطلق في حين أنه مقيد بحال معينة، أو قد يفضي التعامل مع النص مستقلاً إلى تعميم ما تضمنه من حكم في حين أنه حكم خاص. ومن ذلك تجويزه للمزارعة إذا خلت من الأسباب المستوجبة للنهي الوارد في النصوص على عكس ما ذهب إليه الجمهور، وتخطئته لمن منع التسعير مطلقاً محتجاً بالحديث.

٥- منعه رحمه الله من أن يخص النص بأحد أفراد الأمة دون باقيهم، وذلك لاشتراك الجميع في الوصف - المؤثر الذي يدور معه الحكم وجوداً وعدماً، ومثال ذلك اختياره أن إرضاع الكبير يحرم إن احتيج إلى جعله ذا محرم استدلالاً بما رواه مسلم عن عائشة من حديث سالم مولى أبي حذيفة حيث جاءت إمرأة أبي حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يارسول الله إن سالماً يدخل علي وهو رجل وفي نفس أبي حذيفة منه شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أرضعيه حتي يدخل عليك»** وفي رواية في الموطأ قال: **«أرضعيه خمس رضعات»**، وقد ذهب الأئمة الأربعة إلى أن الحديث مخصوص بهذه الواقعة، وأن رضاع الكبير لا تنتفي به الحرمة، بينما رأى ابن تيمية تعميمه إلى جميع الأحوال المماثلة والمشابهة.

٦- تناول النصوص في إطار ما تقتضيه طبيعة المكلف، فابن تيمية يرى أن النفوس إذا اعتادت المعصية لا تنفطم عنها انفطاماً جيداً إلا بتروك ما يقاربها من المباح كما قيل: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وكما أن النفس أحياناً لا تترك المعصية إلا بتدريج لا تتركها جملة، ولهذا يوجد في السنَّة عنه ﷺ لمن خشي منه النفرة عن الطاعة الرخصة له في أشياء يستغني بها عن الحرام، ولمن وثق بإيمانه وصبره النهي عن بعض ما يستحب له تركه مبالغة في فعل الأفضل، كذلك فإنه يستحب له فعل الحسنات البدنية والمالية كالخروج عن جميع ماله، مثل أبي بكر الصديق، وما لا يستحب لمن لم حاله كذلك كالرجل الذي جاء ببيضة من ذهب حذفه النبي ﷺ بها فو أصابته لأوجعته، ثم قال: «يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس، ومسلك شيخ الإسلام هذا يدل على فقهه في دين الله، إذ لكل مقام مقال، والفتوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً، ولابد من مطابقة الحكم مع

الواقع المساوي له، ومراعاة السُنن الشرعيــة والسُنن الكونية، ومراعاة تفاوت الخلق في معاني السلوك ودرجات الإيمان.

٧- يرى ابن تيميــة أن حمد الفعل أو ذمه لا ينبــغي أن يقتصر فيــه على مجرد ظاهر النص دون النظر إلى الحاجة المعارضة له التي يحصل بها من ثواب الحسنة ما يربو على ذلك ومن أمــثلة ذلك الصيــام للمريض والطهــارة بالماء لمن يخاف عــليه الموت، فالمريض الذي يتــضرر بالصيام يــحرم عليه أن يصوم، وكــذلك من يخاف عليه الموت من استخدام الماء عليه أن يتيمم، وضابط هذا المسلك عند ابن تيمية:

١- أن يحصل باعتبار الحاجة المعارضة من ثواب الحسنة ما يربو علي مجرد الاقتصــار على النص، وهذا يتطلب استقــراء مجموع النصــوص ومعرفة مــقاصد الشريعة وغايات الأحكام.

٢- أن يظهر أن إعمال النص بمجرد ظاهره تعارضــه مفسدة راجحة، يثبت باستقراءمــجموع النصوص إما القطع بحرمتــها وإما ترجيح ذلك، وعند ذلك يلزم التحول عن إعمــال ظاهر النص باعتبار تلك الحاجة المعــارضة، وعلي هذا الضابط إعمال النص[١] عند ابن تيمية بعد ثبــوته على أن يكون سالماً عن المعارض المقاوم على نحو ما تقدم، فإن وجد المعارض المقاوم باستقراء مجموع نصوص الشرع بهذا الخصوص، وكان في ذلك من القوة بحيث يفــوق مجرد النص، وجب المصير إليه والقول به، وترك ظاهر النص له والله أعلم.

ثانياً : حجية القياس عنده وضابط ذلك

يقول ابن تيمــية :- «إن لفظ القياس لفظ مــجمل يدخل فيه القيــاس الصحيح والقياس الفــاسد فالقيــاس الصحيح هو الذي وردت به الشريعــة، وهو الجمع بين المتماثلين، والفــرق بين المختلفين، الأول قياس الطرد والثــاني قياس العكس الذي بعث الله به رسوله » [٢]

وهو يقسم القياس الصحيح إلي نوعين:

١- أن يعلم أنه لا فارق بين الفــرع والأصل، إلا فرق غير مــؤثر في الشرع أن ينص علي حكم لمعني من المعــاني ويكون ذلك المعني مــوجوداً في غــيره فــإذا قام

١- راجع مقدمة كتاب «تيسير الفقه الجامع للأختيارات الفقهية» د/أحمد موافي.
٢- مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٠٥ - ٥٠٦ .

دليل من الأدلة علي أن الحكم متعلق بالمعني المشترك بين الأصل والفرع سوي بينهما وكان هذا قياساً صحيحاً . . .

قال رحمه الله فهذان نوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يستعملونهما، وهما من باب فهم مراد الشارع، فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف علي أن يُعرف ثبوت اللفظ عنه، وعلي أن يُعرف مراده باللفظ، وإذا عرفنا مراده فإن علمنا أنه حكم للمعني المشترك لا لمعني يخص الأصل أثبتنا الحكم حيث وجد المعني وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص منعنا القياس كما أن علمنا أن الجمع خص به الكعبة، وأن القيام خص به شهر رمضان . . . ، فإنه يمنع (هنا) أن نقيس علي المنصوص غيره، وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة كتعين الكعبة وشهر رمضام . . فإلحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمني الذين أسقطوا تعيين الأشهر الحرم، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة فقال تعالي: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾(١) وقياس الحلال بالنص علي الحرام بالنص من جنس قياس الذين قالوا ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(٢) فهذه الأمية الفاسدة، وكل قياس دل النص علي فساده فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه فقياسه فاسد، وكل من سوى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد »(٣)

وابن تيمية يطرد حكم الأصل في الفرع بجامع ما بينهما من المعنى المشترك (وصفاً ظاهراً منضبطاً مناسباً يعني الحكمة) وهو بذلك يضيف إلي ما قال به الفقهاء من الوصف المؤثر : الوصف المناسب أو الحكمة التي قصدها الشارع من إثبات الحكم بالطلب أو المنع، فيقيم في بعض الأحيان عللاً يعدي بها الحكم من الأصل إلي الفرع .

ومن أمثلة ذلك : أنه يجيز الفطر لمن يشتغل بما يشق عليه بهما لابد للأمة منه قياساً علي جواز الفطر في السفر باعتبار أن علة الفطر في السفر هي المشقة وليست هي مجرد السفر ولم يسلم ابن تيمية للفقهاء بأنه يوجد حكم جار علي خلاف

---

(١) التوبة : ٣٧ (٢) البقرة : ٢٧٥

(٣) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٦٨ – ٢٨٨ .

القياس وفي رسـالته في معني القياس بين خطأ الفـقهاء في ذلك وأثبت أن الحكم علي وفق القياس .

ثالثاً :– حجية فتاوى الصحابة وضابط ذلك

يقول ابن تيمية : «والذي لا ريب فيه أنه حجة ما كان من سنة الخلفاء الراشدين الذين سنوه للمسلمين ولم ينقل أحـداً من الصحابة خالفهم فيـه، فهذا لا ريب أنه حجـة، بل إجمـاع وقد دل عليـه قول النبي ﷺ: عليكم بسنتي وسنـة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضـوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة »[١]

قال: « وقد تأملت من هذا الباب أي ما أفتي به الصحابة مما أشكل علي الفقهاء ـ ما شاء الله فرأيت الصحابة أفقه الأمـة وأعلمها،واعتبر هذا بمسائل الإيمان بالنذر والعتق والطلاق وغير ذلك ، ومسـائل تعليق الطلاق بالشروط ونحو ذلك، وقد بنيت فيما كتبه أن المنقول فيهـا عن الصحابة هو أصح الأقوال قضاء وقياسٌ وعليه يدل الكتاب والسنة، وعليه يدل القياس العلمي، وكل قول موسى ذلك تناقض فى القياس مخالف للنصوص»[٢]

وقال أيضاً : « وإلى ساعتي هذه ما علمت قولاً قـال الصحابة ولم يختلفوا فيه إلا وكان القياس مـعه، لكن العلم بصحيح القيـاس وفاسده من أجل العلوم، وإنما يعرف ذلك من كـان خبـيراً بأسرار الشـرع ومقاصـده وما اشتـملت عليه شـريعة الإسلام من المحاسن التي تفوق التـعداد وما تضمنته من مصـالح العباد في المعاش والمعاد، ومـا فيها من الحكمـة البالغة والرحـمة السابغة، والعـدل التام والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب »[٣]

فما سنه الخلفاء الراشدين . مما لم ينقل عن أحد الصـحابة أنه خالفهم فيه ولم يعارضه نص أو في معناه فهو حجة عند ابن تيمـية بل إجماعاً وقد استند ابن تيمية في ذلك إلي عدد من النصوص منهـا قوله تعالي ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٧٣ .
(٢) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٨٢ .
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٨٣ .

﴿ وَالأنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [(1)] وهو في هذا يذهب لما ذهب إليه الإمام أحمد من أن قول الصحابي حجة.

ومن أمثلة احتجاج ابن تيمية بما ذهب إليه الصحابة - رضي الله عنهم - اختياره فيما إذا تصرف الرجل في حق الغير بغير إذنه بالبيع أو الشراء أو نحو ذلك أنه يقع هذا التصربف موقوفاً علي الإجـازة لا أنه يكون مردوداً سواء كان ذلك للحاجة أو مطلقاً .

كما اخـتار أيضاً أن امرأة المفقود تـؤجل أربع سنوات ثم تزوج، فإن قدم الزوج المفقود خير بين المرأة . يعني أن تُرد إليه . . وبين مـهرها وذلك لقضاء عمر رضي الله عنه .

فإذا اختلف الصحابة، تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلي الكتاب والسنة، ولم يخرج رحمه الله عن أقوالهم، فإن لم يتـبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

رابعاً : سد الذرائع وحجيته عند ابن تيمية

يقول ابن تيمية « إن الله سبحانه ورسوله سد الذرائع المفضية إلي المحارم بأن حرمـها ونهـا عنها، والذريعـة - يعني في اللغة - مـا كان وسـيلة إلي الشيء لكن صارت في عرف الفقـهاء عبارة عما أفضت إلي فـعل محرم، ولو تجردت عن ذلك الإفضاء لم يكن فيها مفسدة، ولهذا قيل الذريعة: الفعل الذي ظاهره أنه مباح وهو وسيلة إلي فعل المحـرم أما إذا أفضت إلي فسـاد ليس هو فعلاً كإفضـاء الخمر إلي السكر وإفضاء الزنا إلي اختلاط المياة، أو كان الشيء في نفسه فساداً كالقتل والظلم فهـذا ليس من هذا الباب فإنا نعلم أنما حـرمت الأشياء لكونهـا في نفسها فـساداً بحيث تكون ضرراً لا منفعـة فيه أو لكونها مفضيـة إلي فساد بحيث تكون هي في نفسها فـيها منفعة وهي مـفضية إلي ضرراً أكثر مـنها فتحرم فإن كان الـفساد فعل محظور سـميت ذريعـة، وإلا سمـيت سببـاً ومقـتضيـاً ونحو ذلك من الأسـماء المشهورة.

ثم إن هذه الذرائع إذا كانـت تفضي إلي المحرم - غـالباً - فإنه يحـرمهـا مطلقاً

(1) التوبة : ١٠٠

وكذلك إن كانت قد تفضي وقد لا تفضي لكن الطبع متقاض لإفضائها، وأما إن كانت إنما تفضي بأحياناً فإن لم تكن فيها مصلحة راجحة علي هذا الإفضاء القليل وإلا حرمها أيضاً .

ثم هذه الذرائع منها ما يفضي إلي المكروه بدون قصد فاعلها ومنها ما تكون إباحتها مفضية للتوسل بها إلي المحارم فهذا القسم الثاني يجامع الحيل، بحيث يقترن به الاحتيال تارة وقد لا يقترن، كما أن الحيل قد تكون بالذرائع، وقد تكون بأسباب مباحة في الأصل ليست ذرائع فصارت الأقسام ثلاثة .

(الأول) ما هو ذريعة، وهو مما يحتال به كالجمع بين البيع والسلف، وكاشتراء البائع السلعة من مشتريها بأقل من الثمن تارة وبأكثر أخري، وكالاعتياض من ثمن الربوي يربوي لا يباع بالأول نسأ .

(الثاني) ما هو ذريعة لا يحتال بها كسب الأوثان فإنه ذريعة إلي سب الله تعالي وكذلك الرجل والد غيره، فإنه ذريعة إلي أن يسب والده، وإن كان هذا لا يقصدهما مؤمن.

(الثالث) ما يحتال من المباحات في الأصل كبيع النصاب في أثناء الحول فراراً من الزكاة وكإغلاء الثمن لإسقاط الشفعة .

والغرض هنا، أن الذرائع حرمها الشارع، وإن لم يقصد بها المحرم خشية إفضائها إلي المحرم، فإذا قصد بالشيء نفس المحرم كان أولي بالتحريم من الذرائع.

وبهذا التحرير يظهر علة التحريم في مسائل العينة وأمثال وإن لم يقصد البائع الربا لأن هذه المعاملة يغلب فيها فيها قصد الربا فيصير ذريعة، فيسد هذا الباب لئلا يتخذه الناس ذريعة إلي الربا، ويقول القائل: لم أقصد به ذلك، ولئلا يدعوا الإنسان فعله مره إلي أن يقصده مرة أخرى ، ولئلا يعتقد أن جنس هذه المعاملة حلال ولا يميز بين القصد وعدمه، ولئلا يفعلها الإنسان مع قصد يخفي يخفي من نفسه علي نفسه.

وللشريعة أسرار في سد الفساد وحسم مادة الشر لعلم الشارع بما جبلت عليه النفوس وبما يخفى على الناس من خفى هواها الذي لا يزال يسري فيها حتي

يقودها إلي الهلكة، فـمن تحذلق علي الشارع، واعتقـد في بعض المحرمات أنه إنما حُرِّم لعلة كذا، وتلك العلة مقصودة فيه، فاستباحه بهذا التأويل فهو ظلوم لنفسه، جهول بأمر ربه، وهو إن نجا من الكفـر لم ينج غالباً، من بدعة أو فسق أو قلة في الدين وعدم بصيـرة. أما شواهد هذه القاعدة فأكـثر من أن تحصر، فتذكـر منها ما حضر . . .

وقد ذكـر رحمه الله ثلاثين شاهداً علي هـذه القاعدة منها حـرمة سب الأصنام عند من يُعلم من حاله أنه يسب الله عدواً بغـير علم، ومنها كف النبي ﷺ عن قتل المنافقين دفـعاً للنفور عن الإسلام، ومنهـا حرمة الخلوة بالأجنبية والسـفر بها حسماً لمادة الشر والفساد ولم ينفرد شيخ الإسلام في الأخذ بمبدأ سد الذرائع، فهو معمول به عند العلماء وإن لم يعتبره البعض أصلاً وتوسع ابن تيمية في هذا الباب يجعله أقرب ما يكون فيه إلي المالكية .

الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية

ذكر ابن عبد الهادي بعض اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العقود الدرية، ونقلها عنه ابن الألوسي في كتابه «جلاء العينين» وقد رأيت تفصيلاً وتقسيماً لهذه الإختيارات في مقدمة رسالة الجامع للإختيارات الفقهية للدكتور أحمد موافي، أنقله لك:

القسم الأول
الإختيارات المخالفة لما عليه الجمهور
(بالمعني الواسع للجمهور)

ومن أمثلتها:

١- أن تارك الصلاة عمداً إذا تاب لا يشرع له قضاؤها.

٢- أن من تجدد له سبب الصوم -كما إذ قامت البينة بالرؤيا في أثناء النهار- يتم بقية صوم يومه ولا يلزمه قضاء، وإن كان قد أكل.

٣- جواز إقدام الحائض على الطواف عند الضرورة ولا فدية عليها.

٤- أن الطلاق البدعي -الطلاق في الحيض أو في طهر بعد الوطئ قبل أن يتبين حملها- لا يقع.

٥- أن طلاق الثلاث المجموعة -في طهر واحد- محرم، ولا يلزمه منه إلا طلقة واحدة.

٦- أن من علق الطلاق على شرط والتزمه لا يقصد بذلك إلا الحظر أو المنع يجزئه كفارة يمين.

٧- أن الخلع لا ينقص به عدد الطلاق ولو وقع بلفظ الطلاق.

٨- أن المطلقة ثلاثاً «آخر التطليقات الثلاثة» ليس عليها إلا الإستبراء، لا الأعتداد بثلاث حيض.

٩- أن المختلعة يكفيها الإعتداد بحيضة.

١٠- أن ارتضاع الكبير تنتشر به الحرمة إذا احتيج إلى جعله ذا محرم.

١١- أنه يجوز بيع العصير بأصله كالزيتون بالزيت، والسمسم بالشَّيْرَج.

١٢- وأنه تجوز إجارة الحيوان لأخذ لبنه، والشجر لأخذ ثمره.

١٣- وأنه تجوز المسابقة بلا محلل ولو أخرج المتسابقان.

١٤- وأنه تجوز التضحية بما كان أصغر من جذع الضأن كمن ذبح قبل صلاة العيد جاهلاً بالحكم، ولم يكن عنده ما يعتد به في الأضحية.

القسم الثاني

الإختيارات المخالفة لما عليه المذاهب الأربعة

(يعنى المخالفة بالمعني الضيق)

ومن أمثلتها:

١- أن أقل الحيض لا يقدر ولا أكثره، بل كل ما استقر عادة للمرأة فهو حيض وإن نقص عن يوم أو زاد على خمسة عشر.

٢- أنه لا حد لأقل سن تحيض له المرأة ولا لأكثره، ولا لأقل طهر بين الحيضتين.

٣- وأنه يجوز قصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً قل أو كثر.

٤- وأن الجمع لا يختص بالسفر الطويل بل يجوز للحاجة كما في الجمع في المطر، والجمع في المرض، وكما جاءت السُّنَّة في الجمع للمستحاضة.

٥- وأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء.

٦- وأن بني هاشم إذا منعوا من الخمس جاز لهم الأخذ من الزكاة.

٧- وأنه يجوز لهم أيضاً أخذ زكاة الأغنياء من الهاشميين.

٨- وأنه إذا شك هل طلع الفجر أو لم يطلع؟ فاعتقد أنه ليل جاز أن يأكل ويشرب حتى يتبين الطلوع، ولو علم بعد ذلك أنه أكل بعد طلوع الفجر فلا قضاء عليه.

٩- أنه ليس للإحرام صلاة تخصه.

١٠- أن المحرم يجوز له عقد الرداء إذا احتاج إليه.

١١- أنه يجوز لمن احتجم في رأسه وهو محرم حلق بعض شعره -إن احتاج لذلك- ولا شئ عليه.

١٢- أنه يجوز وطئ الوثنيات بملك اليمين.

١٣- أنه يجب على الزوج وطئ المرأة بقدر كفايتها ما لم ينهك بدنه ويشغله عن معيشته.

١٤- أنه إذا استلحق الرجل ولده من الزنَا ولا فرَاشٍ لحقه.

١٥- أن البكر إذا اشتريت لا يجب استبراؤها وإن كانت كبيرة، لإنه لا زرع هناك.

١٦- جواز بيع جميع البستان إذا صلح نوع منه كما يجوز بيع النوع جميعه إذا بدا صلاح بعضه.

١٧- أن جميع المتلفات تضمن بالجنس -بحسب الإمكان- مع مراعاة القيمة حتى الحيوان.

١٨- أن القصاص يكون في اللطمة والضربة والسبة.

القسم الثالث

الأختيارات التى وافق فيها الشيخ أحد المذاهب الأربعة وخالف الثلاثة الأخري (يعنى ما خالف فيه الجمهور بالمعني الضيق)

ومن أمثلتها:

١- استحباب فسخ الحج إلى العمرة بالنسبة للقارن والمفرد.

٢- أن الصواب خدمة المرأة لزوجها بالمعروف.

٣- وجوب الكفارة علي المرأة تظاهر زوجها.

٤- أنه يجوز إبدال الوقف للحاجة أو للمصلحة.

٥- أن الرهن إذا كان حيواناً جاز للمرتهن أن ينتفع به ركوباً أو حلباً -بقدر نفقته عليه- ولو بغير إذن أهله.

٦- جواز أن يكون أجر الوكيل في استيفاء المال جزءاً شائعاً من المال المستوفى

وهي مسألة: «قفيز الطحان».

٧- أنه إذا دخل الرجل علي امـرأته فوجـد عندها رجـلا أجنبيـاً، ووجدهمـا يفعلان الفاحشة فقتله فلا شئ عليه في الباطن، ولا قود عليه في الظاهر.

٨- أن المرأة تحد إذا وجدت حبلى ولم يكن لها زوج ولاسـيد، ولم تدَّع شبهة في الحمل.

ولقد أفردتَ من هذا البابَ مـا وافق فيه ابن تيمية الفقـه الحنفي (مخالفاً بذلك المذاهب الثلاثة الأخرى) بالـرغم من مآخذه على فقه مـدرسة الرأي بوجه عام فمن ذلك:

١- أن مـا ليس في اليد مـثل الدين الذي علي المعـسر أو المماطل أو الجاحـد -وفي معناه زكاة المغصوب- لا تجب فيه الزكاة.

٢- أن الإحرام لا يكون بمجرد ما في القلب بل لابد من قول أو عمل يصير به محرماً.

٣- أن هدي التمتع والقران هدي نسك وليس هدي جبران.

٤- ليس للولي أن يجبر ابنته البكر البالغ علي النكاح.

٥- أنه إذا خالف الرجل بالظهار أو الحرام لا يفعل شيئاً ثم يحنث في يمينه نظر في ذلك فإن قصد مجرد الحلف أجزأته كفارة يمين، وإن قصد الإيقاع لزمته كفارة ظهار.

٦- إن الإخوة يحجبون بالجد.

٧- أن الأقراء الحيض.

٨- أن الفرقة بسبب الدين -كـإسلام إمرأة الكافر- إنما توجب إستبـراء بحيضة واحدة، لا الأعتداد بثلاثة قروء.

٩- جواز بيع الأرض الخراجية.

١٠- ثبوت الشفعة فيما لا يقبل قسمة الإجبار.

١١- ثبوت الشفعة للجار.

١٢- أن ما أشرف علي الموت من المنخنقة والموقـوذة والمتردية والنطيحة... إذا كان حياً فذكي حل أكله، ولا يعتبر في ذلك حركة مذبوح.

القسم الرابع

الأختيارات التى وافق فيها ابن تيمية بعض الفقهاء وخالف البعض الآخر وأحيانا كان يوافق الجمهور

وهي كثيرة جداً ومعلومة مما يغني عن ذكرها.

القسم الخامس

الاختيارات التى كان مذهب ابن تيمية فيها مذهباً وسطاً بين مذهبى العلماء

ومن أمثلتها:

١- جواز إخراج القيمة في الزكاة للحاجة أو المصلحة أو العدل.

٢- وأنه يجوز صيام يوم الغيم احتياطاً (والمقصود بصيام يوم الغيم هو إذا ما حال دون مطلع الهلال غيم، أو قتر ليلة الثلاثين من شعبان).

٣- وأنه يعتبر إختلاف المطالع، وذلك فيما تباعد من البلدان، أما ما تقارب بحيث إن ظهرت الرؤية في واحدة منها أمكن أن يبلغ ذلك من يسكن البلد الأخرى -في الوقت الذي يؤدي بتلك الرؤية الصوم أو الفطر أو النسك- فإنه يجب الأعتبار بتلك الرؤية.

٤- أن الوطء مع النية يكون رجعة.

٥- أن الموطوءة بشبهة والمزنى بها ليس عليهما إلا الإستبراء بحيضة واحدة.

٦- جواز بيع الأعيان الغائبة.

٧- جواز الإستئجار على تلاوة القرآن بشرط الحاجة.

٨- أنه إذا تصرف في المغصوب بما أزال اسمه كان للمالك أن يأخذه مع تضمين النقص، أو أن يطالب بالبدل.

٩- أن حد شرب الخمر أربعون جلدة، وزيادة الأربعين الأخرى يفعلها الإمام عند الحاجة كما لو أدمن الناس الخمر، أو كان الشارب ممن لا يرتدع بدونها.

صفوة القول فيما يتعلق بأصول ابن تيمية واختياراته

كان شيخ الإسلام رحمه الله عالماً مجتهداً، اجتهاداً مطلقاً، فلم يتقيد بمذهب من المذاهب الأربعة في كل فتاويه، بل له اختيارات خالف فيها المذاهب الأربعة، وهو في ذلك لم يصدر عن هواه، بل جاءت وفق الأصول التي قررها بأدلتها، وابن تيمية يلتقي مع الإمام أحمد في الأصول العلمية التي عوّل عليها واستند إليها، أي أنه حنبلي[1] المشرب وهو قد يوافق في بعض اجتهاداته المذهب الظاهري أو الفقه الشيعي، وهو نوع من التوافق في النتائج ليس غير، إذ ليس ذلك منه رحمه الله إقراراً بصحة أصولهم ومن أمثلة ذلك موافقته للمذهب الظاهري في أن تارك الصلاة عمداً لا يشرع له قضاؤها، وعليه أن يتوب إلى الله ويكثر من الحسنات الماحية ولأن تارك الصلاة يستتاب.

وقد يخالف ابن تيمية قول الجمهور، ولكنه لا يخرق الإجماع إذ إجماع الأمة حجة بالمعنى الذي قرره: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[2]، وله سلف في كل ماذهب إليه من اختيارات واجتهادات، وقد راعى في ذلك مقاصد التشريع من تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وترجيح خير الخيرين ودفع شر الشرين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين بتحمل أدناهما.

ويصح أن يقال عن شيخ الإسلام أنه فقيه عصره والعصور التي تلت، فالقول بغلق باب الإجتهاد بعد قرون الخيرية الثلاثة تضييق للواسع، ومصادمة لما هو واقع، ووجود أمثال ابن تيمية خير شاهد على بطلان هذا القول، إذ فتاواه تبرز أهمية العلماء وصلاحية الفقه الإسلامي للحكم على واقع الحياة ومجرياته الأمور من غير أن يختلف ذلك في زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة.

وفي اجتهاداته رحمه الله الحلول الشرعية لعدد من القضايا التي اختلفت فيها

١- لا يجوز استخدام كلمة حنبلى فى معرض التهكم والإنتقاص، إذ الإمام أحمد أحد الأئمة المعتبرين وهو إمام أهل السنّة، ولحوم العلماء مسمومة وعادة الله فى هتك أستار منتقصيهم معلومة وإذ لم يكن العلماء بأولياء لله فليس لله ولى كما قال الشافعى رحمه الله .

٢- النساء : ١١٥

الأنظار مما يدرأ به الخلاف ويرتفع به النزاع وتلتقي عليه الأدلة ومن أمثلة ذلك نظرية العقد في الشريعة الإسلامية، وكلامه في الطلاق الذي ارتفع به الكثير من الحرج الواقع بين الناس ولعل هذا هو الذي دفع لجنة الفتوى بالأزهر والمحاكم بمصر للأخذ بفتوى ابن تيمية في الطلاق المعلق على شرط والطلاق بالثلاثة (المجموع في لفظ واحد).

توضيحه لأصول الإجتماع والإئتلاف

يقول شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية: «ثم من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: **«عليكم بسنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور فإنن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»**[1].

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد ولهذا سموا: «أهل الكتاب والسُّنَّة، وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الإجتماع وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين والإجتماع[2] هو الأصل الثالث، الذي يعتمد عليه في العلم والدين وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة معاملة تعلق بالدين والإجتماع (الإجماع) الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الإختلاف وانتشرت الأمة».

وتحدث شيخ الإسلام في خلاف الأمة في العبادات ومذاهب أهل السنة والجماعة، وذكر أنواع الفساد الذي حصل بسبب هذا الخلاف والتنازع كالجهل والظلم واتباع الظن وما تهوي الأنفس إلي أن قال: «الرابع : التفرق والإختلاف

١- الحديث رواه العرباض بن سارية وأخرجه ابن ماجه وابن حبان وأبو داود وقال الترمذى: حسن صحيح.

٢- الأصول الثلاثة عند ابن تيمية هى: الكتاب والسُّنة والإجماع لاشتمالها علي أصول الدين وفروعه، باطنه وظاهره وعِلمه وعمله، والإجماع هو اتفاق العلماء المعتبرين من الأمة على مسألة فيها نص من الكتاب والسنة.

المخالف للإجماع والإجتماع حتي يصير بعضهم إلي الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم إلي الاقتتال بالأيدي والسلاح وببعضهم إلي المهاجرة والمقاطعة حتي لا يصلي بعضهم خلف بعض، وهذا كله من أعظم الأمور التي حرمها الله ورسوله والإجتماع والإئتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله قال الله تعالي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[(١)] .

قال ابن عباس « تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة » .

وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجة عن السنة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، ومن أهل الفرقة المخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله وقال تعالي ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[(٢)]وقال تعالي ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[(٣)]وقال تعالي ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[(٤)]وقال تعالي ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[(٥)]وقال ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[(٦)] وهذا الأصل العظيم وهو الإعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا نتفرق هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالي به في كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة مثل قوله : عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة وقوله : فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل وفي غيرها

(١) آل عمران : ١٠٢-١٠٦ | (٢) الأنعام : ١٥٩
(٣) البقرة : ٢١٣ | (٤) الأنفال : ١
(٥) الحجرات : ١٠ | (٦) النساء : ١١٤

هو التفرق بين أمـرائها وعلمائها وملوكهـا ومشايخها وغـيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كـان بعض ذلك مغفـوراً لصاحـبه لإجتـهاده الذي يغـفر فـيه خطؤة أو لحـسناته الماحـية أو توبتـه أو لغـير ذلك لـكن يعلم أن رعايتـه من أعظم أصـول الإسلام، ولهذا كان امتياز أهـل النجاة (أهل السنة والجماعة) عن أهل العذاب من هذه الأمة، ويـذكرون في كثـير من السنن والآثـار في ذلك ما يطول ذكـره وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقـدم العمل به هو الإجماع فإن الله لا يجمع هذه الأمة علي ضلالة» أ. هـ

وقال ـ رحمه الله ـ في توحد الملـة وتعدد الشرائع وتنوعها [١] : « إذا كان الله تعالي قد أمـرنا بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمـر منا وأمرنا عند التنازع في شيء أن نرده إلي الله والرسول وأمرنا بالإجتماع والإئتلاف ونهانا عن التفرق والإختلاف وأمرنا أن نسـتغـفر لمن سبـقنا بالإيمان وسمـانا المسلمين وأمرنا أن ندوم عـليه إلي الممـات فهـذه النصـوص وما كـان في معـناها توجب علينا الإجـتمـاع في الدين كاجتمـاع الأنبياء قبلنا في الدين وولاة الأمور فينا هم خـلفاء الرسول إلي أن قال: فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خـروج عنها ومن دخل فيـها كان من أهل الإسـلام المحض وهم أهل السنة والجماعة، وما تنوعوا فيه من الأعمـال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء» أ. هـ

---

(١) راجع كتابي الضوابط الشرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية والوحدة الإسلامية .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضابط ذلك عند ابن تيمية

ذكر شيخ الإسلام أصول أهل السُّنَّة ثم قال في العقيدة الواسطية: «ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف ينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج والجهاد والجُمَع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً، ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1]أ. هـ.

والأمر بالمعروف يشمل النصيحة والجهاد والدعوة وعزل الحاكم إذا استوجب الأمر ذلك والعمل لإقامة المجتمع الإسلامي، وأعلى المعروف الإيمان بالله وهو شامل للواجب والمستحب، والمنكر شامل للمكروه والحرام، وأعلى درجاته الكفر والشرك بالله تعالى.

والأمر بالمعروف فرض على الكفاية، وهو أحياناً يجب وأحياناً يستحب وأحياناً يحرم[2]، ولا يجب إلا في حال الإستطاعة ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾[3]، وفي الحديث: **«من رأي منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** رواه مسلم، ولابد من تحقيق المصلحة ودفع المضرة والمفسدة في ذلك كما بين شيخ الإسلام بقوله وفعله فقد كان بعض أتباعه يطلب منه الإنكار على التتار في شربهم الخمر، فكان يقول: الخمر تصد عن ذكر الله و عن الصلاة، وهؤلاء -يعني التتار- تصدهم الخمر عن قتل المسلمين وانتهاك أعراضهم، وقد أوضح رحمه الله في رسالة الأمر بالمعروف من مجموع الفتاوى أن النبي ﷺ نهى عن قتل ابن سلول المنافق رغم كيده للإسلام ومؤامراته للفتك برسول الله ﷺ وذلك لئلا ترعد له أنف كثيرة بيثرب، وقال النبي ﷺ فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، فقتل ابن سلول كان يتضمن مفسدة تغلب المصلحة، ولذلك ورد النهي وشرع الله مصلحة كله، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله كما بين شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم.

---

(١) حديث صحيح رواه النعمان بن بشير وأخرجة أحمد .

(٢) راجع كتابي تحصيل الزاد التحقيق الجهاد

(٣) البقرة : ٢٨٦

وما زال الشيخ تقي الدين في هذه المدة معظماً مكرماً، يكرمه نقيب القلعة ونائبها إكراماً كثيراً، ويستعرضان حوائجه ويبالغان في قضائها

وكان ما صنفه في هذه المدة قد خرج من عنده، وكتبه بعض أصحابه، واشتهر، وظهر، فلما كان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله، ولم يبق عنده كتاب ولا ورقة، ولا دواة، ولا قلم، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم، وقد رأيت أوراقاً عدة بعثها إلى أصحابه وبعضها مكتوب بفحم.

وفاة الشيخ رحمه الله بالقلعة

وما كتب بها قبل موته

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالى بقي مقيماً بالقلعة سنتين وثلاثة شهور وأياماً، ثم توفي إلى رحمة الله ورضوانه، وما برح في هذه المدة مكباً على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين، وكتب على تفسير القرآن جملة كثيرة، تشتمل نفائس جليلة، ونكتاً دقيقة ومعاني لطيفة، وبين في ذلك: مواضع كثيرة أشكلت على خلقٍ من علماءِ أهل التفسير، وكتب في المسألة التي حبس بسببها عدة مجلدات: منها الرد على ابن الإخنائي قاضي المالكية بمصر، وتعرف بـ: «الإخنائية»، ومنها كتاب كبير حافل في الرد على بعض قضاة الشافعية، وأشياء كثيرة في هذا المعنى أيضاً.

قال ابن عبد الهادي في «العقود الدرية»: قال الشيخ علم الدين: «وفي ليلة الاثنين، لعشرين من ذي القعدة من سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، توفي الشيخ الإمام العلامة الفقيه، الحافظ الزاهد القدوة، شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد، ابن شيخنا الإمام المفتي، شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم، ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي بقلعة دمشق التي كان محبوساً فيها، وحضر جمع إلى القلعة، فأُذِن لهم في الدخول، وجلس جماعة قبل

الغسل، وقـرأوا القرآن وتبركوا برؤيتـه وتقبيله ثم انصرفـوا، وحضر جمـاعة من النساء فـفعلن مثل ذلك ثم انصرفن، واقـتصر على من يُغَـسِّل ويعين في الغسل، فلما فرغ من ذلك أُخـرج، وقد اجتمع الناس بالقلعـة والطريق إلى جامع دمشق، وامتلاء الجامع وصحنه، وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والفوارة..

العلامة القاضى ابن سوار السبكى رحمه الله:

قال لبعض من لقيه: «والله يا فلان مـا يبغض ابن تيمية إلا جاهل، أو صاحب هوى، الجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به»أ. هـ.

الإمام العلامة ابن الحريرى الحنفى رحمه الله:

كان رحمه الله يقول: «إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام، فمن؟»، وكتب في مـحضـر أثناء محـاكمـة الشـيخ: «إنه منذ ثلاثمائـة سنة ما رأى الناس مـثل ابن تيمية»أ. هـ .

الإمام العالم كمال الدين الزملكانى رحمه الله:

قال: «لم يُر من خمسمائة سنة أحفظ مـنه»أ. هـ. وقال أيضاًرحمه الله: «سيدنا وشيخـنا وقدوتنا الشيخ الإمام العـالم العلامة الأوحد البـارع الحافظ الزاهد الورع القـدوة الكامل العارف تقـي الدين شيخ الإسـلام، سيـد العلمـاء، قدوة الأئمـة الفـضلاء، ناصـر السُنَّة، قامع البـدعة، حـجـة الله على العبـاد، رادٌ أهل الزيغ والعناد، وأحد العلماء العاملين، وآخر المجتهدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، أعلى الله مناره، وشيَّد به من الدين أركانه:

مـاذا يقـول الواصـفـون لـه ... ومـحـاسنه جلّت عن الحـصـر

هـو حُـجَّـة لله قـاهـرة ... هـو بيننا أعـجـوبة الدهر

هـو آية فـي الخلـق ظاهـرةٌ ... أنوارُها أربت علي الفـجـر»أ.هـ.

شيخ الإسلام الإمام تقى الدين أبو الفتح محمد بن على ابن دقيق العيد رحمه الله:

قال لشيخ الإسلام لما لقيه وسمـعه: «ما كنت أظن أن الله تعـالى بقى يخلق مثلك»أ. هـ.

الإمام العلامة ابن الوردى رحمه الله:

قال: «وحضرت مجالس ابن تيمية، فإذا هو بيت القصيدة، وأول الخريدة، علماء زمانه فلك هو قطبه، وجسم هو قلبه، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر، والبحر علي القطر، حضرت بين يديه يوماً، فأصبت المعنى، وكنَّاني، وَقَّبل بين عيني اليمنى، وقلت:

إن ابن تيمية فى كل العلوم أوحد
أحييت دين أحمدِ وشرعه ياأحمد»أ.هـ.

حافظ الإسلام، محدث الأعلام، استاذ أئمة الجرح والتعديل شيخ المحدثين أبو الحجاج يوسف بن الزكى المزّى الشافعى رحمه الله:

قال: «ما رأيت مثله، ولا رآى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، ولا أتبع لهما منه»أ.هـ.

العلامة الإمام الشيخ إبراهيم الرقى رحمه الله:

قال: «الشيخ تقي الدين يؤخذ عنه، ويُقلد في العلوم، فإن طال عمره ملأ الأرض علماً، وهو على الحق، ولا بد ما يعاديه الناس، فإنه وارث علم النبوة»أ.هـ.

أمير المؤمنين فى الحديث الحافظ الذى عقمت النساء أن تلد مثله شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلانى رحمه الله:

قال: «وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باق إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو تجنب الإنصاف...»أ.هـ.

الشيخ عماد الدين الواسطى فى وصية تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية بشيخهم:

«... اعرفوا إخواني حق ما أنعم الله عليكم من قيامكم بذلك، واعرفوا طريقكم إلى ذلك، واشكروا الله تعالى عليها، وهو أن أقام لكم ولنا في هذا العصر مثل سيدنا الشيخ الذي فتح الله به أقفال القلوب، وكشف به عن البصائر عمى الشبهات، وحيرة الضلالات...»

«. . . اعرفـوا حق هذا الرجل الذي هو بين أظهركم وقـدره، ولا يعرف حـقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره»

«. . . فالله الله في حفظ الأدب مـعه، والانفعال لأوامره، وحـفظ حرماته في الغيب والشـهادة، وحب من أحبه، ومـجانبة من أبغضـه، وتّنقصه، ورد غيـبته، والانتصار له في الحق»

«. . . إذا علمتـم ذلك -أيدكم الله تعالى- فـاحفظوا قلبـه، فإن مثـل هذا قد يُدعى عظيماً في ملكوت السماء، واعـملوا على رضاه بكل ممكن، واستجلبوا وده لكم، وحبه إياكـم بمهما قدرتم عليه، فـإن مثل هذا يكون شهيـداً، والشهداء في العصر تبعٌ لمثله.»

ثناء العلماء علي شيخ الإسلام

قال ابن الألوسي في «جلاء العينين»:

«هو شيخ الإسلام، وحافظ الأنام، المجتهد في الأحكام: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي، وفي تاريخ إربل: أن جده سُئل عن اسم تيمية فأجاب: أن جده حج وكانت إمرأته حاملاً، فلما كان بتيماء -بلدة قرب تبوك- رأى جارية حسنة الوجه قد خرجت من خباء، فلما رجع وجد إمرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه قال: يا تيمية يا تيمية، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء، فسمي بها»آ. هـ.

وقد ولد بحران يوم الأثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم به والده وبأخويه عند استيلاء التتار على البلاد إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة.

فأخذ الفقه والأصول عن والده، وسمع من خلق كثير منهم الشيخ شمس الدين، والشيخ زين الدين بن المنجا، والمجد بن عساكر، وقرأ العربية على ابن عبد القوى، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه، وعني بالحديث ، وسمع الكتب الستة والمسند مرات، وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من سائر العلوم، ونظر في الكلام والفلسفة ، وبرز في ذلك على أهله، ورده على رؤسائهم واكابرهم، ومهر في هذه الفضائل، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا: إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث، وأمده الله تعالى بكثرة الكتب، وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه.

مؤلفات شيخ الإسلام

قال ابن الآلوسي: «. . . وألف في أغلب العلوم التأليفات العديدة، وصنف التصانيف المفيدة في التفسير والفقه، والأصول والحديث، والكلام والردود على الفرق الضالة والمبتدعة، وله الفتاوى المفصلة، وحل المسائل المعضلة، ومن تصنيفاته التي تبلغ ثلثمائة تصنيف: «درء تعارض العقل والنقل» أربع مجلدات، و«الجواب الصحيح» - رداً على النصارى - أربع مجلدات، و«شرح عقيدة الأصفهاني» مجلد، و«الرد على الفلاسفة» أربع مجلدات، وكتاب «إثبات المعاد» والرد على ابن سينا، وكتاب «ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً»، و«المعجزات والكرامات»، وكتاب «إثبات الصفات» مجلد، وكتاب «العرش» وكتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، وكتاب «الرد على الإمامية» رداً على ابن المطهر الحلي مجلدين كبيرين، وكتاب «الرد على القدرية»، وكتاب «الرد على الإتحادية والحلولية»، وكتاب في فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على غيرهما، وكتاب تفضيل الأئمة الأربعة، وكتاب شرح العمدة في الفقه أربع مجلدات، وكتاب الدرة المضية في فتاوى ابن تيمية، وكتاب المناسك الكبرى والصغرى، والصارم المسلول على من سب الرسول، وكتاب في الطلاق، وكتاب في خلق أفعال العباد، والرسالة البغدادية، وكتاب التحفة العراقية، وكتاب إصلاح الراعي والرعية، وكتاب في الرد على تأسيس التقديس للرازي في سبع مجلدات، وكتاب في الرد على المنطق، وكتاب الفرقان، وكتاب منهاج السنَّة النبوية، وكتاب الإستقامة مجلدين، وغير ذلك.

قول الحافظ الذهبي في شيخ الإسلام:

وما أبعد أن تصانيفه إلى الأن تبلغ الخمسمائة مجلد" وترجمه في معجم شيوخه بترجمة طويلة، منها قوله: «شيخنا وشيخ الإسلام وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة، وذكاءً وتنويراً إلهياً، وكرماً ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه وكتابته، وخرج ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصل لغيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقائق معانيه بطبع سُيال، وخاطر وقّاد، إلى مواضع الإشكال ميّال، واستنبط منه أشياء

لم يسبق إليها. وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ ما يحفظه من الحديث، مع شدة استحضاره له وقت الدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين، وأتقن العربية أصولاً وفروعاً، ونظر في العقليات، وعرف أفعال المتكلمين، ورد عليهم ونبَّه على خطئهم، وحذَّر منهم، ونصر السُنَّة بأوضح حجج وأبهر برهان، وأوذي في ذات الله تعالى من المخالفين، وأخيف في نصر السُنَّة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته، وأحيا به الشام، بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم" خصوصاً في كائنة التتار، وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله، وإنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت»أ. هـ.

قول الحافظ ابن كثير فيه:

«وفي رجب سنة سبعمائة وأربع راح الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مسجد النارنج، وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً، وبهذا وأمثاله أبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه في ابن عربي واتباعه، فحسد وعودي، ومع هذا لا تأخذه في الله لومة لائم، ولم يبال بمن عاداه ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث لا في مصر ولا في الشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه كما سيأتي»أ. هـ.

قيل من جملة أسباب حبسه خوفهم أنه ربما يدعي ويطلب الإمارة" فلقى أعداؤه عليه طريقاً من ذلك، فحسنوا للأمراء حبسه لسد تلك المسالك، ،كتب الشيخ كمال الدين الزملكاني: كان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء، ولا يعرف أنه ناظر أحد فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علم الشرع أو غيره إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الإجتهاد على وجهها».

كلام للسيوطى فى ابن تيمية:

نقله ابن الألوسي عنه" قال: «ورأيت في كتاب النشر الذائب في الأفراد والغرائب» من فنون كتاب الأشباه والنظائر النحوية للإمام السيوطي رحمه الله ما نصه: «جواب سؤال سائل عن حرف «لو» لسيدنا، وشيخنا، الإمام، العالم، الأوحد، الحافظ، المجتهد، الزاهد، العابد، القدوة، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، بركة الإسلام، حجة الأعلام، برهان المتكلمين، قامع المبتدعين، ذي العلوم الرفيعة، والفنون البديعة، محي السُّنَّة، ومن عظمت به لله تعالى علينا المِنَّة، ودامت به على أعدائه الحجة، واستبانت ببركته وهديه المحجة: تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، أعلى الله تعالى مناره، وشيَّد من الدين أركانه:

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر

هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية في الخلق ظاهرة ... أنواره أربت على الفجر

نقلت هذه الترجمة من خط العلامة فريد دهره ووحيد عصره: الشيخ كمال الدين بن الزملكاني: «بسم الله الرحمن الرحيم نقلت من خط الحافظ علم الدين البرازلي: «قال سيدنا وشيخنا الإمام العلامة، القدوة الحافظ، الزاهد العابد الورع، إمام الأئمة، خير الأمة مفتي الفرق، علامة الهدى، ترجمان القرآن، حسنة الزمان، عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة، ذو الفنون البديعة، ناصر السُّنَّة، قامع البدعة: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، أدام الله تعالى بركته، ورفع درجته.

الحمد لله الذي علَّم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الباهر البرهان، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، المبعوث إلى الإنس والجان، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً يرضى به الرحمن.

سألت وفقك الله تعالى عن معنى حرف «لو» وكيف يتخرج قول عمر رضي الله عنه «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه» على معناها المعروف، وذكرت أن الناس يضطربون في ذلك، واقتضيت الجواب اقتضاء أوجب أن أكتب في ذلك ما حضرني الساعة، مع بعد عهدي بما بلغني ما قاله الناس في ذلك، وأنه لا يحضرني الساعة ما أرجعه في ذلك فأقول... أ.هـ. بحروفه.

ثم ساق الإمام السيوطي آخر الجواب إلى نهايته، وأقرَّ المترجم على ترجمته، فإن أردته فارجع إلى الأشباه والنظائر، فإن فيه جلاء الأبصار والبصائر.

رأى الحافظ ابن سيد الناس فى ابن تيمية:

وكتب الحافظ ابن سيد الناس: «ألفيته ممن أدرك العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السُّنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، برز في كل علم على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه...»أ.هـ.

رأي ابن الوردى:

وقال ابن الوردي في تاريخه وقد عاصره ورآه: «وكانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» ولكن الإحاطة لله تعالى، غير أنه يغترف فيه من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي، وأما التفسير فسُلِّم إليه، وكان يكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة عنواً من أربعة كراريس.

وله التآليف العظيمة في كثير من العلوم، وما يبعد أن تصانيفه تبلغ خمسمائة مجلداً، وله الباع الطويل في معرفة الصحابة والتابعين، قَلَّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنَّف فيها واحتج لها بالكتاب والسُّنَّة، وبقى سنين يفتي بما قام الدليل عنده، ولقد نصر السُّنَّة

المحضة بالطريقة السلفية، وكان دائم الإبتهال، كثير الاستعانة قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يديمها، لا يداهن ولا يجابي، محبوباً عند العلماء والصلحاء، والأمراء والتجار والكبراء، وصار بينه وبين بعض معاصريه وقعات مصرية وشامية لبعض مسائل أفتى فيها بما قامت عنده الأدلة الشرعية، واجتمع بالسلطان محمود غازان السفاك المغتال، وتكلم معه بكلام خشن ولم يهبه، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ودعا دعاء منصف أكثره عليه، وغازان يؤمن على دعائه».

انتهى ملخصاً، وأطال في الترجمة.

رأى الواسطى:

وقال العلامة عماد الدين الواسطي في حقه بعد ثناء طويل جميل ما لفظه: «فوالله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية: علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً، وقياماً في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفاً، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ، وما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الإتباع حقيقة» أ.هـ.

رأى ابن دقيق العيد:

ونقل في الشذرات عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وقد سئُل عن ابن تيمية بعد اجتماعه به كيف رأيته؟ قال: «رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء». فقيل له: فلم لا تتناظران؟ قال: «لأنه يحب الكلام وأحب السكوت».

رأى السبكى:

وقال ابن مفلح في طبقاته: «كتب العلامة تقي الدين السبكي إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية ما نصه: «فالمملوك يتحقق قدره وزخارة بحره، وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغ في ذلك المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله تعالى من الزهادة والورع، والديانة ونصرة

الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل في أزمان»أ. هـ.

رأى الحافظ ابن حجر العسقلاني:

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمته المطنبة: «إن الفتنة لما ثارت على الشيخ ابن تيمية من جهة بعض كلماته، تعصب له القاضي الحنفي ونصره، وسكت القاضي الشافعي ولم يكن له ولا عليه، وكان من أعظم القائمين عليه الشيخ نصر بن المنبجي، لأنه كان بلغ ابن تيمية أنه يتعصب لابن عربي، فكتب يعاتبه على ذلك، فما أعجبه لكونه بالغ في الحط على بن عربي وتكفيره، فصار هو يحط على ابن تيمية، ويغري بيبرس الجاشنكير، وكان بيبرس يفرط في محبته ويعظمه، واتفق أن قاضي الحنفية بدمشق وهو شمس الدين بن الحريري انتصر للشيخ ابن تيمية وكتب في حقه محضراً بالثناء عليه بالعلم والفهم، وكتب به في خطه ثلاثة عشر سطراً من جملتها: أنه منذ ثلثمائة سنة ما رأى الناس مثله»أ. هـ.

ونقل الإمام العسقلاني أيضاً عن الحافظ الذهبي أنه قال: «حضر عند شيخنا أبو حيان المفسر فقال: ما رأت عيناى مثل هذا الرجل! ثم مدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بديهة، وأنشده إياها وهي:

لما أتانا تقى الدين لاح لنا ... داع إلي الله فرد ماله وزر
علي محياه من سيما الألي صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسر بل منه دهره حبراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قاما بن تيمية فى نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ مضت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره اندرست ... وأخمد الشر إذ طارت له شرر
يامن يُحَدِّث عن علم الكتاب أصغ ... هذا الإمام قد كان ينتظر

يشير بهذا إلى أنه المجدد وقد صرح بذلك أيضاً العماد الواسطي ثم دار بينهما كلام فجر« ذكر سيبويه فأغلظ الشيخ ابن تيمية القول في سيبويه، فناظره أبو حيان بسببه، ثم عاد ذاماً له، وصيّر ذلك ذنباً لا يغفر.

ويقال إن ابن تيمية قال له: «ما كان سيبويه نبي النحو ولا معصوماً، بل أخطأ

وحضرة الجنازة في الساعة الرابعة من النهار، أو نحو ذلك، ووضعت في الجامع والجند يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصلى عليه - أولاً - بالقلعة تقدم في الصلاة عليه الشيخ محمد بن تمام، ثم صلى عليه بجامع دمشق، عقيب صلاة الظهر، وحُمل من باب البريد واشتد الزحام وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم للتبرك وصار النعش على الرؤوس، وتارة يتقدم وتارة يتأخر، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها من شدة الزحام، وكل باب أعظم زحمة من الآخر، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام، لكن كان المعظم من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أخرجت منه الجنازة، ومن باب الفراديس، ومن باب النصر وباب الجابية، وعظم الأمر بسوق الخيل، وتقدم في الصلاة عليه أخوه زين الدين عبد الرحمن، وحمل إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله، وكان دفنه وقت العصر أو قبلها بيسير، وأغلق الناس حوانيتهم، ولم يتخلف عن الحضور إلا القليل من الناس، أو ممن أعجزه الزحام، وحضرها نساء كثير بحيث حُزرن بخمسة عشر ألفاً، وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً أو أكثر، إلى مائة ألف[1]، وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به، وقيل: إن الطاقية التي كانت على رأسه دُفع فيها خمسمائة درهم، وقيل: إن الخيط الذي فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل دفع فيه مائة وخمسون درهماً، وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء، وتضرع، وختمت له ختم كثيرة بالصالحية والبلد. وتردد الناس إلى قبره أياماً ليلاً ونهاراً، ورؤيت له منامات كثيرة صالحة، ورثاه جماعة بقصائد جمة».

وذكر ابن كثير أنه لم يتخلف عن الحضور إلا ثلاثة، وخرج في جنازته الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأجناد والرجال و النساء والصبيان من الخواص والعوام. . . إلى أن قال: «والجميع يبكين عليه، لأنه كان أمة وحده، وفرداً حتى نزل في لحده، وكانت سيرة حياته حافلة بالجهاد والمعاناة والمحن».

قال ابن عبد الهادي: ولما مات كنت غائباً عن دمشق بطريق الحجاز الشريف، وبلغنا خبره بعد موته بأكثر من خمسين يوماً، لما وصلنا إلى تبوك، وحصل التأسف لموته رحمه الله تعالى.

(١) كان الإمام أحمد رحمه الله يقول: « قولوا لأهل العلم بيننا وبينكم يوم الجنائز »

وقد وجد بخط الشيخ أبيات كتبها بالقلعة، وهي[1]:

أنا الفقير إلي رب السموات	**أنا المسكين في مجموع حالاتي**
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	**والخير إن جاءنا من عنده ياتي**
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	**ولا عن النفس دفع المضرات**
وليس لي دونه مولي يدبرني	**ولا شفيع إلي رب البريات**
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	**رب السماء كما قد جاءت في الآيات**
ولست أملك شيئاً دونه أبداً	**ولا شريك أنا في بعض ذراتي**
ولا ظهير له كيما أعاونه	**كما يكون لأرباب الولايات**
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً	**كما الغني أبداً وصف له ذاتي**
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	**وكلهم عنده عبد له آتي**
فمن بغي مطلباً من دون خالقه	**فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي**
والحمد لله ملء الكون أجمعه	**ما كان منه، وما من بعده ياتي**
ثم الصلاة علي المختار من مُضَرٍ	**خير البرية من ماضٍ ومن آتي**

وله أيضاً:

إن لله علينا أنعماً	**يعجز الحصر عن العد لها**
فله الحمد علي أنعمه	**و له الحمد على الشكر لها**

.في الكتاب في ثمانين موضعاً ما تفهمها أنت، فكان ذلك سبب مقاطعته إياه، وذكره في تفسيره «البحر» بكل سوء، وكذا في مختصره «النهر»]. هـ.

قال ابن الألوسي: «وقد ترجمته علماء المذاهب المعاصرون له وغيرهم بتراجم مفصلة، وأثنوا عليه بالثناء الحسن، وذكر له كرامات عديدة، ومواظبة على الطاعات والعبادات، وتجنباً عن البدع، وشدة اتباع السُنن وطريق السلف الصالح، وأنه لم يتزوج حتى مات».

١ – كذا بالأصل، وهو غير صحيح، والذى فى كتب التاريخ: أن الذى ضرب الإمام مالك هو جعفر بن سليمان والى المدينة من قبل المنصور وابن عمه، ولما علم المنصور بضرب الإمام وما نزل به أعظم ذلك إعظاماً شديداً، وأنكره على ابن عمه وكتب بعزله، واعتذر للإمام مالك.

هيئته :

قال ابن الألوسي : «وكان أبيض اللون، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمتي أذنيه، عيناه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت».

ما كتبه العلماء فى وفاة الشيخ

وقد ذكر نبذة من اختياراته العلامة ابن رجب المتوفي سنة سبعمائة وخمس وتسعين في طبقاته، وفصَّل أيضاً سيرته وأحواله والثناء عليه.

وفاة شيخ الإسلام

وقد توفي سنة سبعمائة وثمان وعشرين، سحر ليلة الأثنين عاشر ذي القعدة الحرام في السجن، فأخرج إلى جامع دمشق فصلوا عليه، فكان يوماً مشهوداً، لم يعهد بدمشق مثله، وبكى الناس بكاء شديداً، وتبركوا بماء غسله، واشتد الزحام على نعشه، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مراراً، وحذر من حضر جنازته بمائتي ألف، ومن النساء بخمسة عشر ألف، وختمت له ختامات كثيرة[١] ورثي بقصائد بليغة، منها قصيدة الشيخ عمرو بن الوردي وهي :

عثا فى عرضه قومٌ سلاط	**لهم من نثر جوهره التقاط**
تقى الدين أحمد خير حبر	**خروق المعضلات به تخاط**
توفى وهو محبوس فريد	**وليس له إلي الدنيا إنبساط**
ولو حضروه حين قضي لألفوا	**ملائكة النعيم به أحاطوا**
قضي نحباً وليس له قرين	**ولا لنظيره ألف القماط**
فتي فى علمه أضحي فريداً	**وحل المشكلات به يناط**
وكان إلي التُّقَي يدعوا البرايا	**وينهى فرقةً فسقوا ولاطوا**
وكان الجن قد تفرق من سطاه	**بوعظ للقلوب هو السياط**

١ – هذه وتلك حكاية حال ذكرها ابن الألوسى وابن الهادى وكان ينبغي ردها، إذ لم يكن ذلك من سلفنا الصالح ولا وردت به السنن، والعبادات توفيقية تؤخذ دون زيادة أو نقصان .

فـيــا لله مــا قــد ضم لحــــــد ويا لله مــا قــد غطي البــلاط
هم حــــدوه لما لم ينالـــوا مناقـبــه فـقــد مكروا وشــاطوا
وكــانوا علي طرائقــه كــســالى ولكـــن في أذاه لهم نشــاط
وحبس الدر في الأصــداف فخــر وعند الشيخ في السجن اغتبـاط
بآل الهــاشـمــي لـــه اقـتــداء فـقــد ذاقــوا المنون ولم يواطوا
بنو تيـمـيــة كــانوا فـبــانـوا نجــوم العلم أدركـهــا انهــبــاط
ولكن يا ندامــة حــابسـيــه فــشك الشــرك كــان به يماط
ويا فرح اليـهــود بما فـعلتـم فـإن الضــد يعـجـبـه الخبــاط
ألم يك فـيكــم رجــلٌ رشـيـد يري سـجن الإمـام فـيـسـتـشـاط
إمــام لا ولاية كــان يرجــوا ولا وقف علـيــه ولا رباط
ولا جــاراكـمــو في كــسب مــال ولم يعـهــد لـــه بكم اخـتـلاط
فـفـيم سـجنتـمـوه وغظتـمـوه أمـــا لجزا أذيتـه اشــتـراط
وسـجن الشـيخ لا يرضـاه مـثلي فـفـيـه لقـدر مـثلكم انحطاط
أمــا والله لولا كــتم ســرى وخــوف الشــر لا تحل الرباط
وكنت أقــول مــا عندى ولكــن بأهل العلم مــا حــسن اشــتطاط
فـمــا أحــد إلي الإنصــاف يدعــو وكـــل في هواه لـــه انخــراط
سـيظهــر قـصـدكم يا حــابسـيــه ونبـئـكـم إذا نُصِب الصــراط
فـمــا هو مــات عندكم واسـتـرحـتم فـاعطوا مـــا أردتم أن تعــاطوا
وحلوا واعـــقــدوا من غــيــر رد عليـكم وانطوي ذاك البــســاط

ابتلى ابن تيمية كما ابتلى الصالحون من قبل

قال ابن الألوسي: «ومـا زال الناس ولا سيمـا الكبراء والعلماء يبتلون في الله تعالى ويصبرون، وقد كانت الأنبيـاء عليهم السلام يقتلون، وأهل الخير في الأمم السالفـة يقتلون ويحـرقون، وينشـر أحدهم بالمنشـار وهو ثابت على دينه، ولولا

كراهية التطويل لذكرت من ذلك ما يطول، وقد سم أبو بكر، وقتل عمر، وعثمان، وعلى، وسم الحسن، وقتل الحسين وابن الزبير، وصلب حبيب بن عدي، وقتل الحجاج عبد الرحمن بن أبي ليلى، وسعيد بن جبير وغيرهم، وقتل زيد بن علي، وأما من ضُرِبَ من العلماء فكثيرون، منهم: عبد الرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج أربعمائة سوط ثم قتله، وسعيد بن المسيب ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط، وصب عليه جرة ماء في يوم شات، وألبس جبة صوف، وخبيب بن عبد الله بن الزبير ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مائة سوط، وذلك أنه حدث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً فكان عمر إذا قيل له أبشر قال كيف بخبيب على الطريق؟!

وأبو عمرو بن العلاء ضربه بنو أمية خمسمائة سوط.

والإمام موسى الكاظم سجنه هارون حتى مات.

والإمام أبو حنيفة توفي في السجن بعد أن ضرب وقيل أوجر سماً.

والإمام مالك بن أنس ضربه المنصور[1] أيضاً سبعين سوطاً في يمين المكره، وكان مالك يقول: لا يلزمه اليمين.

والإمام أحمد امتحن وسجن وضرب في أيام بني العباس.

وللشيخ ابن تيمية في هؤلا الأئمة أسوة، ولو أردنا استقصاء ما ذكره معاصروه من الثناء عليه، وبيان سيرته ومفصل أحواله لأفضى بنا إلى الطول والقلم لملت ملولا ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد.

تبرئة شيخ الإسلام مما نسب إليه، وثناء المحققين المتأخرين عليه

نقل ابن الألوسي ثناء بعضهم فقال: «منهم الفهامة ذو العلوم اللدنّية، صوفي الفقهاء وفقيه الصوفية: الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني المدني الشافعي المتوفي سنة ألف ومائة وواحدة، فقد قال في كتابه «إفاضة العلام في تحقيق مسألة الكلام»

---

١ - كذا بالأصل، وهو غير صحيح، والذى فى كتب التاريخ : أن الذى ضرب الإمام مالك هو جعفر بن سليمان والي المدينة من قبل المنصور وابن عمه، ولما علم المنصور بضرب الإمام وما نزل به أعظم ذلك إعظاماً شديداً وأنكره على ابن عمه وكتب بعزله، واعتذر للإمام مالك .

ما لفظه: «وفيما نقلناه من نصوص -يعني بن تيمية- وقررناه على وجه موافق للكتاب، والسُّنَّة، وعقيدة السلف: كُفاية لبيان حاله في اعتقاده، وبراءة ساحته من القول بالتجسيم، والقول بالجهة على الوجه المحذور عند كل لبيب منصف».

ثم قال: «ثم إن ابن القيم وإن كان على عقيدة شيخه كما عند المشنعين عليهما فتبرئة شيخه عما نسب إليه تبرئة له أيضاً، وتصحيح اعتقاده وتطبيقه على الكتاب والسُّنَّة وعقيدة السلف تصحيح لاعتقاده وتطبيق، ولكنا ننقل من كلامه ما يؤكد ذلك إلى آخر ما قال، ومما أطنب فيه أطاب بما يزيل الإشكال».

ومنهم أمير المؤمنين في الحديث علامة العراق علي أفندي السويدي البغدادي الشافعي، فإنه قد كتب علي عبارة السبكي في التشنيع على الشيخ ابن تيمية ما نصه: «هذه الدعوى من السبكي تحتاج إلى بينة، مع أن نصوص المتقدمين وأحوالهم تخالفه، وعلى تقدير الجواز فكيف يقال بحقه: إنه عدل عن الصراط المستقيم، فكيف يعدل عن الصراط المستقيم من يقصر التوجه علي الرب المتعال؟

فلا وجه لرد السبكي عليه بمثل هذا الكلام، مع اقتفاء ابن تيمية طريق خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام» انتهى ملخصاً.

وقد نقله عنه ولده العلامة الشيخ محمد الأمين في شرح كتابه «العقد الثمين» وأقره.

ومنهم شيخنا ومولانا الوالد عليه الرحمة والرضوان، فإنه قال في رسالته الإعتقادية ما نصه: «ولقد اطلعت على رسالة للشيخ ابن تيمية، وهي معتبرة عند الحنابلة، وطالعتها كلها فلم أر فيها شيئاً مما ينبذ ويرمى به في العقائد، سوى ما ذكرنا من تشديده في رد التأويل، وتمسكه بالظواهر، مع التفويض والمبالغة في التنزيه مبالغة يقطع معها بأنه لا يعتقد تجسيماً ولا تشبيهاً، بل يصرح بذلك تصريحاً لا خفاء فيه، والعجب ممن يترك صريح لفظه بنفي التشبيه والتجسيم، ويأخذ بلازم قوله الذي لا يقول به، ولا يسلم لزومه، وعلي كل حال فهو كما قال كثير من المشايخ في الشيخ محي الدين»أ. هـ.

وقال أيضاً في رحلته «نزهة الألباب» عندما سأله في القسطنطينية المحمية شيخ الإسلام عن أمر المتشابه ما نصه: «ثم انجر الكلام إلى ابن تيمية فقال: إنه قائل بالجسمية، فقلت: حاشاه، ومذهبه في المجسم أنه مطلق غير مسلم، فقال: إنه

يقول العرش قديم نوعاً، فقلت: لم نجد لنسبيته إليه غير الدواني نقلاً يليق أن يمنح سمعاً، فقال: له مخالفة للأئمة الأربعة في بعض المسائل الفقهية، فقلت: شبهته في تلك المخالفة بسبب الظاهر قوية، وله في بعض ذلك سلف، كما يعرفه من تتبع المذاهب ووقف، وقد مدحه غير واحد من العلماء الأعلام، وقد سمعت من شيخي أنه رأي كتاباً في ترجمة من لقبه بشيخ الإسلام فقال: قد ذمه العلامة السبكي، فقلت: كم من جليل غدا من ذم معاصريه يبكي، فآه من أكثر المعاصرين. فهم بأيدي ظلمهم لخبات القلوب عاصرين»أ. هـ.

ومنهم عالم بلد الله الحرام، والمشاعر العظام، المنلا على الهروي القاري، فإنه أثنى عليه، وبرأه مما نسب إليه في شرحه الشمائل وغيره من تأليفاته.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن جمال الدين يوسف الشافعي اليافعي اليمني.

ومنهم شيخنا السيد العلامة أبو الطيب الحسيني البخاري القنوجي، فسّح الله تعالى في مدته، فإنه ترجم له ترجمة حافله في كتابه «اتحاف النبلاء المتقين» و«أبجد العلوم» وأثنى عليه ثناءً كريماً، وذكر كلام أهل الفتيا من أصحاب المذاهب الأربعة في الثناء عليه، ومنهم: العيني الحنفي، وأطال فيه إلى أوراق.

ومنهم كثيرون يطول بذكرهم الكتاب، فمن أراد أن يستوعب طيب نشرهم، فليرجع إلى كتاب التواريخ والطبقات، فإن فيها المطالب المفصلات.

أقسام المنتقدين لابن تيمية

قال ابن الألوسي: «إن أكثر المنتقدين من المعاصرين وأشدهم في الوقوع فيه: الإمام السبكي، ومن المتأخرين الشاذ النادر، وهم علي أقسام: فمنهم من شنع لداء المعاصرة، ومنهم لشهرة كاذبة من غير تحقيق، ومنهم لمخالفة في العقيدة، ومنهم حباً في ابن عربي وأتباعه، ومنهم اقتداء بشيخه المنافس له»أ. هـ.

مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية

بعض مؤلفاته في العقيدة:

١- كتاب: الإستقامة.

٢- تفصيل الإجمال فيما تجب لله من صفات الكمال.

٣- كتاب : إقتضاء الصراط المستقيم في الرد على اليهود والنصارى.
٤- كتاب: الإيمان: كتاب جامع لتعريف الإيمان والإسلام والفرق بينهما.
٥- كتاب: شرح العقيدة الأصفهانية.
٦- رسالة: العقيدة الحموية.
٧- رسالة: العقيدة التدمرية: مجمل عقيدة السلف.
٨- رسالة: العقيدة الواسطية: مختصر عقيدة السلف.
٩- رسالة: عقيدة أهل السنّة والجماعة.
١٠- رسالة: المناظرة في العقيدة الواسطية.
١١- الرسالة: الكيلانية.
١٢- الرسالة: البغدادية.
١٣- الرسالة: البعلبكية.
١٤- الرسالة: الأزهرية.
١٥- السؤال: عن العرش.
١٦- الوصية الكبرى في بيان الفرقة الناجية.
١٧- جوامع السياسة الألهية.
١٨- معارج الوصول.
١٩- رسالة الأكليل في المتشابه والتأويل.
٢٠- رسالة مراتب الإرادة.
٢١- رسالة القضاء والقدر.
٢٢- رسالة الاحتجاج بالقدر.
٢٣- بيان الهدى من الضلال.
٢٤- معتقدات أهل الضلال.
٢٥- منهاج السنّة النبوية.
٢٦- الجمع بين العقل والنقل أو درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول صريح المعقول.

٢٧- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
٢٨- الواسطة بين الحق والخلق.
٢٩- نقض المنطق.
٣٠- نقض تأسيس التقديس للرازي في سبع مجلدات.
٣١- العبودية.
٣٢- معالم الأصـول في تفنيد قول الفلاسـفة والقرامطة في كذب الأنـبياء في بعض الأحيان.
٣٣- الوصية الصغرى في الدين والدنيا.
٣٤- رسالة الإستغاثة.
٣٥- رسالة في درجات اليقين.
٣٦- كتاب التوسل والوسيلة.
٣٧- رسالة في الكلام على الفطرة.
٣٨- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
٣٩- تخجيل أهل الإنجيل.
٤٠- الرد على النصارى.
٤١- الرد علي النصيرية.
٤٢- الصارم المسلول في الرد علي شاتم الرسول.
٤٣- المسألة النصيرية.
٤٤- مسألة الكنائس.
٤٥- كتاب مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم.
٤٦- العقيدة المراكشية.
٤٧- مسألة العلو.

هدى بل

٤٨- نقد تأسيس الجهمية.

٤٩- إبطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية.

٥٠- بغية المرتاد في الرد على الفلاسفة والقرامطة والباطنية.

٥١- الرد على الحلولية والأتحادية.

٥٢- شرح حديث النزول.

٥٣- الفتاوى الكبرى.

٥٤- رسالة الإرادة والأمر.

٥٥- مجموع الفتاوى في ٣٠ مجلد.

تراجم ودراسات حول شيخ الإسلام ابن تيمية

١ - العقود الدرية — محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي.
٢- عقيدة ابن تيمية الحنبلي — محمد أحمد الهبراوي.
٣- ابن تيمية إمام السيف والقلم — سعد صادق محمد.
٤- ابن تيمية بطل الإصلاح الديني — محمد مهدي الاستانبولي.
٥- ابن تيمية حياته وعصره — محمد أبو زهرة.
٦- ابن تيمية السلفي — د/ محمد خليل هراس.
٧- ابن تيمية الفقيه المعذب — عبد الرحمن الشرقاوي.
٨- ابن تيمية المفترى عليه — محمد سليم الهلالي.
٩- ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل — د/ محمد السيد الجليند.
١٠- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية — سراج الدين أبو حفص عمر البزار.
١١- البداية والنهاية (١٤/ ١٦٣) — الحافظ ابن كثير.
١٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٦٣/ ١) — محمد علي الشوكاني.
١٣- تاريخ المذاهب الإسلامية (٢/ ٤٠٥) — محمد أبو زهرة.
١٤- تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٦) — للإمام الذهبي.
١٥- ترجمة شيخ الإسلام — محمد كرد علي.
١٦- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين — نعمان خير الدين ابن الألوسي.
١٧- الحافظ ابن تيمية — أبو الحسن الندوي جمال الدين السرمري.
١٨- حياة شيخ الإسلام — محمد بهجة البيطار.
١٩- تيسير الفقه الجامع للاختيارات الفقهية — د/ أحمد موافي.
٢٠- ابن تيمية — محمد يوسف موسى.
٢١- منطق ابن تيمية — محمد الزين.
٢٢- شذرات الذهب — لابن العماد الحنبلي.
٢٣- التاريخ — لابن الوردي.

٢٣- التاريخ — لابن الوردي.
٢٤- فوات الوفيات — صلاح الدين بن شاكر الكتبي.
٢٥- الطبقات — لابن رجب الحنبلي.
٢٦- مجموعة الفتاوى المصرية لابن يمية — بدر الدين أبي عبد الله محمد بن علي الحنبلي البعلي.
٢٧- رجال الدعوة والفكر — للندوي.
٢٨- رسائل من السجن لابن تيمية — محمد العبدة.
٢٩- دائرة المعرف الإسلامية (ابن تيمية) — محمد بن شنب.
٣٠- مدارج السالكين — لابن القيم.
٣١- روضة المحبين. — ابن القيم.
٣٢- رحلة ابن جبير .
٣٣- رحلة ابن بطوطة.
٣٤- ابن القيم من آثاره العلمية — أحمد ماهر محمود البقري.

خاتمة

علم من أعلام الهدي

يستحق شيخ الإسلام ابن تيمية بكل جدارة أن يعتبر في أعلام المجددين المصلحين وذلك بما خلفه وراءه من ذخائر العلوم والمؤلفات، فهو فقيه عصره والعصور التي تلت القرن الثامن الهجري، كما كان عاملاً قوياً من بين العوامل الآخرى للحركات الإصلاحية التي نشأت في أرجاء العالم الإسلامي المختلفة منذ القرن الثاني عشر الهجري، إذ قد تأثرت به رحمه الله طبقة كبيرة من المؤلفين والدعاة والمصلحين في كل دور من أدوار التاريخ منذ ظهوره، ولقد ركز رحمه الله علي معني التوحيد والإتباع، وانصبغ هو بذلك، فكان مثالاً للعالم الرباني العامل، وعمل جاهداً للرجوع بالأمة من حوله للكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمة فأبطل العقائد والتقاليد المشركة ورد على عبُاد القبور ومن استخف بشعائر الله واستهزأ بالله، واعتقد بألوهية المشايخ، وتطرق إلى فتنة المشاهد، والحج إليها وترجيح الحج إلى القبور على الحج إلى الكعبة مما أدى إلى الإعراض عن المساجد وغير ذلك مما شاع في زمانه، ولازالت آثاره باقية إلى يومنا هذا.

كما نقد رحمه الله الفلسفة والمنطق وعلم النفس، ورجح أسلوب الكتاب والسُّنَّة ورد علي الفرق، والملل والنحل الزائغة، عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وقاوم عقائدها وتقاليدها المنحرفة فكانت حياته بذلك جهاداً في سبيل الله يتنقل من ساحة إلى أخرى، فهو تارة يخرج بنفسه لقتال التتار وشحذ همم الملوك والأمراء والعامة لمواجهتهم، وتارة أخرى يتصدى للعقائد الخربة التي أضعفت النفوس، واستمطرت البلاء على البلاد والعباد، وتارة أخرى يخرج هو وأصحابه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم هو لا يكف عن جهاده حتى وهو في حبسه وسجنه فما انقطع عن الكتابة والتأليف نصحاً للأمة وبياناً لأصول الإيمان وتأكيداً لمعاني الأخوة، ودفعاً للخلق لكل ما يقر بهم من رضوان الخالق جل وعلا.

وقد تميز رحمه الله بالذاكرة الموهوبة والذكاء النادر حتى قال عنه الحافظ الذهبي «ما رأيت أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه، وكانت السُّنَّة بين عينيه وعلى طرف لسانه».

وقال أيضاً: «يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» وقال: «كان يتوقد ذكاءً»، و«كان آية على الذكاء وسرعة الإدراك»، وقال فيه بعض معاصريه: «لم يولد مثله منذ قرون»، وقد تَّبحر شيخ الإسلام في العلوم والمعارف، وما دخل في علم إلا وفاق أهله فيه، يعلم ذلك من قرأ وطالع ردوده على النصارى والفلاسفة وأهل الفرق، حتى قال عنه العلامة ابن دقيق العيد: «لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد»، وقال عنه خصمه جمال الدين الزملكاني: «كان إذا سُئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن حكم أن أحداً لا يعرف مثله»، وقال: «لم يرى من خمسمائة سنة أحفظ منه».

وقال الذهبي: «ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب»، وقال أيضاً لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه في العلم».

وكانت شجاعته رحمه الله أمام الموت موضع دهشة جميع معاصريه حتى وصفه الحافظ سراج الدين بقوله: «وكان إذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان ويقوم كأثبت الفرسان وينكي العدو من كثرة الفتك بهم ويخوض بهم خوض رجل لا يخاف الموت» وشجاعته في مجال العلم والتحقيق والصدع بالحق لا تقل أهمية وقيمة فقد عارض البدع والمنكرات السائدة في عصره، وجاهد بالعلم واللسان مقابل وحدة الوجود ونظرية الحلول والاتحاد، وهتك الأستار عن تلبيسات المتصوفين الدخلاء والمبتدعين المفترين، ورفع لواء الثورة على المنطق والفلسفة اليونانية، ولقد كان رحمه الله مجتهداً اجتهاداً مطلقاً لا تأسره عادة أوعرف أو مسألة مشتهرة منتشرة بل كان يُبلغ ما يراه صواباً حتى أنه لما ذكر أبو حيان النحوي بعض مسائل النحو برواية سيبويه، أجابه شيخ الإسلام بأنه لم يكن نبياً نزل عليه النحو بل إنه أخطأ في ثمانين موضعاً من الكتاب، وكان علماء النحو يعتقدون في سيبويه إماماً للنحو واجب الإتباع.

وقد تحدث الحافظ الذهبي عن شجاعته واستقامته العلمية والدينية فقال: «أطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه

خلق من علماء مصـر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدعـوه وناظروه وكاتبوه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقـول الحق المر الذي أداه إليه إجتهـاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال وما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكر وسعة الإدراك والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله، فيـجري بينه وبينهم حملات حربية ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة رموه عن قوس واحد فينجيه الله».

وقال عنه أيضـاً: «وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قـام الدليل عليه، ولقد نصر السنَّة المحضة والطريقة السلفية ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها».

وقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري»: «إنه شيخ مشايخ الإسلام في عصره بلا ريب والمسائل التي أنكرت عليه مـا كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بهـا إلا بعد قيام الدليل عليه غالبـاً، . . . إلى أن قال: حتى كان أشـد المتعـصبين عليـه والعاملين في إيـصال الشـر إليه وهو الشـيخ جمـال الدين الزملكاني شهد له بذلك».

وكان رحمه الله قـد قطع جل وقته وزمانه في العبادة حتـى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله وممـا يزاوله، ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركـة ولا مزارعة ولا عمارة ولا كان ناظراً أو مباشر لمال وقف، ولم يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أميـر ولا تاجر ولا كان مدخراً ديـناراً ولا درهماً ولا متاعـاً ولا طعاماً وإنما كانت بضاعتـه مدة حياته وميراثه بعد وفاته رضي الله عنه العلـم اقتدى بسيد المرسلين فـإنه قال: «إن العلمـاء ورثة الأنبيـاء، وإن الأنبيـاء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم فـمن أخذ به أخذ بحظ وافر»، ولا يزال تارة فـي إفتاء الناس، وتارة في قضاء حوائجهم، يصلي مع الجماعة، ويعطي الدرس ويقبل على العلوم، وهو في خـلال ذلك كله يقضي الـليل والنهار يذكـر الله تعالى ويـوحده ويستغفره، ولا أدل على إخلاصه وورعه من أنه عفا عن أعدائه، وأعلن بصراحة: «أحللت كل مـسلم عن إيذائه لي» فلم تكن خلافـاته لشائبة نفـسيـة وعداوة وإنما كانت علي أسـاس علمي وانتصاراً لدين الله، وهذا كله جـعله رحمه الله مفـخرة لأهل العلم، وجعل تـأثيره عميـقاً في عصـره والعصور التي تـلته، مما يؤهله لأن يكون رائداً من رواد التجديد والإصلاح، وذا شخصية قوية لها بصماتها في تاريخ

الأمة، ومن عجيب ما يتميز به رحمه الله قربه من العامة والخاصة وبساطة أسلوبه، وخلو كتبه من الجفاف والتعقيد، وارتباط اسلوبه بالحياة، حتى وكأنه يعيش في وسطنا، وفتاواه لمعالجة واقعنا، قال عنه الحافظ أبو حفص: «يجري كما يجري التتار، ويفيض كما يفيض البحر، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين، مغمضاً عينيه، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد القلوب، ويحير الأبصار والقول». وقال عنه الأقشهري: «وقلمه ولسانه متقاربان»، فمؤلفاته وكتبه ليست منقطعة عن الناس بل هي تشير إلى عواطفه وحماسه وتنبض حياة وحيوية، تدلك دلالة واضحة على سعة اطلاع شيخ الإسلام ومعرفته بمقاصد الشريعة، وأنه أخذ بأطراف الدين وأصوله، قال عنه تلميذه أبو حفص البزار: «كان ابن تيمية إذا شرع في الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق فنون ونقول، واستدلالات بآيات وأحاديث واستشهاداً بأشعار العرب...»، وقال عنه أحد مناظريه الشيخ صفي الدين الهندي: «ما أراك يابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان فر إلى مكان آخر».

ونحن عندما نذكر وننقل هذه المعاني لا نفعل ذلك غلواً فيه رحمه الله ولا ندعي له العصمة بل هو كما قال ابن القيم في شيخه: «شيخ الإسلام حبيب إلى أنفسنا والحق أحب إلينا منه»، وما أردنا إلا إنصافه وابراز قيمته، وتوضيح دعوته التجديدية الإصلاحية، في وقت شاعت فيه الغربة واشتد فيه الإنحراف وكثر فيه الادعاء.

اننا نرفض إنتقاصه والحط من شأنه وقدره، فلحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وإذا لم يكن العلماء بأولياء لله فليس لله ولي كما قال الإمام الشافعي.

ونرفض النزعات العقلانية التجديدية التي جعلت الدين خلف أظهرها، فلا تعارض بين نص صحيح وعقل صريح، وإذا حدث فإما أن يكون النص غير صحيح أو العقل غير صريح، ولابد من تقديم النقل على العقل ورفض التأويل الكلامي، وعلى العقلانيين، هنا وهناك أن يرجعوا لكتاب شيخ الإسلام «درء تعارض العقل والنقل» فالعقل متولي ولي الرسول ثم عزل نفسه، والعقل دابة توصلك إلى قصر السلطان لكن لا تدخل بها عليه.

كمـا نرفض أيضاً هذه الشخـصيات الشـوهاء، التي تربت على الرقص والغناء ومتابعة الموضات أو تلك التي تربت على أفكار الصوفـية والمعتزلة وما شابه ذلك، فـلا هذه ولا تلك تصلح لإقامـة خلافـة على منهـاج النبوة، ولا تسـتطيع إقامـة حضارة على أساس منهاج العبودية، ولا تقوى على مواجهة يهود وأشباه يهود.

إننا بحاجـة إلى شخصيـة تتوافر فـيها شمـولية النظرة تتسم بمعـاني الأصالة لا التقليـد وتطالب بالتقـدم لا الرجوع إلى الوراء، والتـقدم الذي ننشده لـيس معناه هجران الدين ولا التـخلي عن الأخلاق الإيمانية، وإنما هو قيـادة الدنيا بدين الله، فهذا هو التقدم والتطور والتـحضر الحقيقي ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1]، فلا مـعارضة بـين صناعة الطائرة وبناء المدرسـة والمستشـفى، وبين إطلاقه اللحـية وتقصيـر ثوب الرجل وإظهاره لشعائر دينه، فـالعبادات الأصل فيهـا التوقيف دون زيادة أو نقصان أما المعاملات فالأصل فيـها الإباحة مع مراعاة ضوابطها الكلية، إننا نرفض الفـصل بين الدين والدولة، وبين بعض العـبـادات والبعض الآخـر، وبين الأرض والسماء، كما نرفض الفـصل بين العلم والعمل،وبعض الساعات والبعض الآخر، وبعض الرجال والبعض الآخـر، فالحسبة واحدة ولابد من الإستقـامة فيها على شرع الله.

لقد كانت بداية شيخ الإسلام رحمة وتوفيق وفضل فقد ذكر ابن عبد الهادي في كتـابه «العقود الدرية»: «أنه اتفق أن بعض مـشايخ العلماء بحلب قـدم إلى دمشق وقال: سمعت في البـلاد بصبي يقال له أحمد بن تيميـة، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قـاصداً لعلي أراه، فقال له خـياط: هذه طريق كُتَّابه وهو إلـى الآن ما جاء فاقعد عندنا الساعة يجئ يعبـر علينا.ذاهباً إلى الكُتَّاب فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر صبيان، فقال الخيـاط للحلبي: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمـية، فناداه الشيخ فـجاءه إليه، فـتناول الشيخ اللوح، فنظر فيـه ثم قال: يا ولدي أمـسح هذا حتى أملي عليك شـيئـاً تكتبـه، ففـعل فأملى علـيه من مـتون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، قال له: إقرأ هذا فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم دفعه إليه، وقال: اسمعه عليَّ فقرأه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال له: يا ولدي امـسح هذا، ففعل فأملى عليه عدة أسانيد انتـخبها، ثم

قال: اقرأ هذا، فنظر فيـه كما فعل أول مرة فقام الـشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم فإن هذا لم يُر مثله.

لقـد تهيـأت لشيخ الإسـلام ظروف النشأة الحـسنة، والإنسان ابن بـيئـته كـما يقولون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم كانت نهايته محمودة وجنازته مشـهودة وقد مات في السجن مظلوماً وحياته بين البداية والنهاية، علم وعمل وجهاد وتجديد وإصلاح فرحمه الله رحمة واسعة.

وجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء

وسبحانك اللهم ربنا وبحمدك

وأشهد أن لا إله إلا أنت

أستغفرك وأتوب إليك.

وكتبه

سعيد عبد العظيم



الفهرس